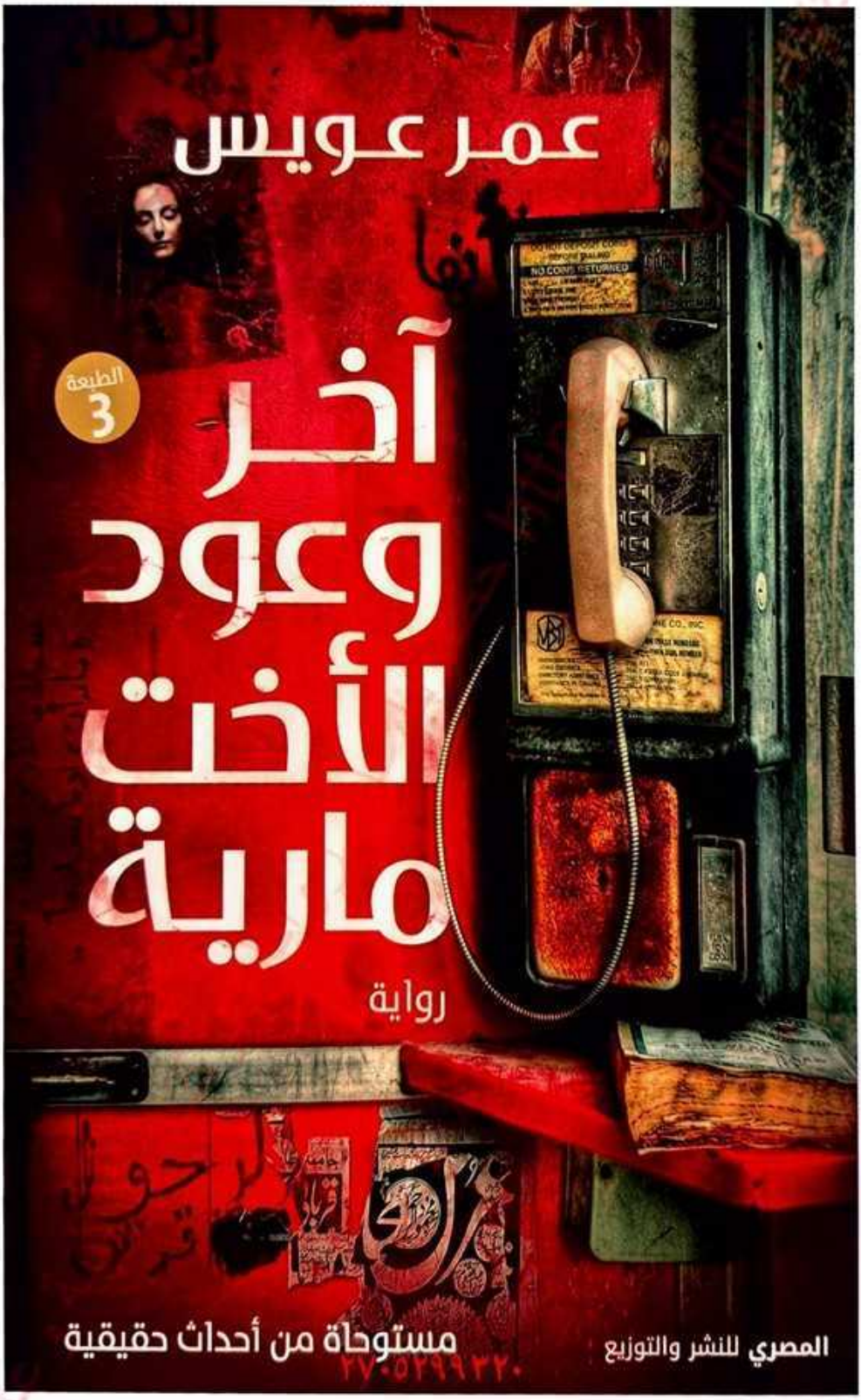
عمر عويس
آخر وعود الأخت مارية
الطبعة 3
رواية
مستوحاة من أحداث حقيقية
المصري للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: آخر وعود الأخت مارية
اسم المؤلف: عمر عويس
رواية

تصميم الغلاف: كريم آدم
تدقيق لغوي: مصطفى الجزار
الإخراج الداخلي: محمد عبد القوي مصيلحي

الطبعة الثالثة: 2018

رقم الإيداع : 2018-13558
الترقيم الدولي : 978-977-770-081-8

35 شارع أحمد ذكي - المعادي - القاهرة.
+2 01146335098
elmasrypublishing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أي صورة كانت ورقية أو إليكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يتعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical photocopying, recording or other wise, without the prior permission, in writing, of the publisher

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

إهداء

إلى البعيدة القريبة، مَرَّ ثلاثون عامًا، لم أدرِ بها أنّ مِرآتي كانت تجاوِرني بأمتار قليلة..

عزيزتي، بعد البوح لك بكلّ أسراري من خطايا وهوَس الخلود، آنَ الأوان كي تقرئي ما سمعتِه.

**

إلى الأصدقاء: علي الشامي، محمد نادر، أحمد ربيع، محمود النبوي..

كنتم وحي الفكر وخير داعم وقت كتابة هذه الرواية.

**

إلى الأبطال الحقيقيين: «ضحي.م»، «ع.البدري»، «س.بشارة»..

كتبتُ هذا العمل في محاولة منّي للتخفيف عنكم ولو بالقليل.

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا
@RIWAYAT2025
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

تأمّلي يا ماري.. لقد وُلِدتُ بعدك بعشر سنين، ولا عَلاقة في الظاهر بين تاريخ ميلادك وميلادي، ولا بين أهلي وأهلك، ولا بين بشرى -بلدتي في لبنان- وبلدك كولومبيا. ومع ذلك، لو لم أولَد حيث وُلِدتُ، ولو لم يكُن أبواي في نفور مستمرّ، أو لم يكُن لي أخ اسمه بطرس، لَمَا هجرنا بلادنا. ولو لم يكُن لأمّي معارف من أبناء قريتنا في بوسطن حيث أنت، لما اخترناها للإقامة من بين كل مدن أمريكا وقُراها، ولو لم أكُن أميل إلى التصوير، ولم أعرض صوري حيث عرضتُها فيراها صديقك ويخبرك عنها، وكان لا يُقعِدك مرض أو شُغل، لَمَا أتيت إلى المعرض واتفق وجودي في تلك الساعة هناك مع زيارتك. ولو كان معك أحد لَمَا اقتربتُ منك وسألتك إذا كنت تريدين أن أشرح لك بعض الصور.

لكن الناس يا ماري يدعون كل تلك مصادفات، لأنهم يجهلون مغزاها في حياتهم، أمّا الحياة ذاتها يا ماري فهي لا تعرف المصادفات، ففي الكون خيوط لا تحصى يتألّف منها نسيج الكون الواحد، وحياتي وحياتك خَيطان في هذا النسيج السرمدي.

(رسالة جبران خليل جبران إلى صديقته ماري هاسكل)

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/Novels2025

ثورة الأشقاء الثلاثة

مقدمة تاريخية..

انتهى عهد مصر الفرعونية مع فتوح الإسكندر الأكبر، ووصوله إلى مصر سنة 331 قبل الميلاد، حيث طرد الفرس، وأنهى عصر مصر القديمة التي كانت مِن أهمّ الإمبراطوريات في الشرق والعالم القديم، ومِن ثَمّ بدأ صراع لا ينتهي على سيادة مصر.. توالى على مصر حكّام عدّة من عهد البطالمة خلفاء الإسكندر، ثم الرومان بعد انتصار أوكتافيوس على مارك أنطوني وحبيبته كليوباترا، إلى أن تمكّن الفرس من انتزاع السلطة من الرومان لفترة بسيطة، تقدر بنحو عشر سنوات، قبل أن يسترجع الرومان ما فقدوه من إمبراطوريتهم، وصولًا إلى الفتح الإسلامي الذي يُعَدّ مِن أهمّ الأحداث في تاريخ مصر، فما زالت مصر تحافظ على هوِيّتها الإسلامية حتى يومنا هذا، شأنها في ذلك شأن معظم الدول العربية.

في القرن الخامس الميلادي احتدم الجدال والنزاع بين الكنيسة الشرقية بالإسكندرية والكنيسة الغربية بالقسطنطينية بسبب طبيعة المسيح، الكنيسة الشرقية اعتقدت بأن للمسيح طبيعة إلهية واحدة ومشيئة واحدة، أما الكنيسة الغربية فتبنّت القول بثنائية الطبيعة المحدّدة، بشرية وإلهية، وصار اعتقاد كل منهما مذهبًا لها. وبحكم قوة الاحتلال، فإنّ مذهب الكنيسة الغربية صار مذهبًا رسميًا، وفُرِض على المصريين، لكن سرعان ما تطوّر الأمر إلى قلاقل دينية عنيفة اتخذت صفة الثورات الوطنية، فأمر الإمبراطور ماركيانوس بقتل كل من يعارض مذهب الطبيعتين، وبدأ عصر اضطهاد المصريين وكنيسة الإسكندرية وعين الرومان بطريركا -يتبع مذهبهم- وهو برتارس لكنّ المصريين رفضوا الاعتراف به.. اقتُحمت الأديرة، ودُفن الأقباط وهُم أحياء، وأُذِلّ الأساقفة بربط رقابهم بالسلاسل والأغلال وجزهم في الشوارع، وقُتل مِن المصريين أعداد ضخمة، قد تفوق أعداد الشهداء في أثناء مواجهة الرومان الوثنيين في السنين الأولى للمسيحية.

استمرّت المجازر، واستمرّ رفض المصريين للمذهب الغربي، وصار هناك ما يسمى بشهوة الاستشهاد عند المصريين، حتى وصلنا إلى القرن السابع الميلادي.

***

البداية

في إقليم البحيرة، وُلد القدّيس إيريناوس (Irenaeus) بقرية مومفيس، مِن أبوَيْن مسيحيين محبّين لله، كانا يقدّمان وليمة ضخمه للفقراء والمحتاجين في عيد القدّيس اليشع النبي، وكانا يفعلان ذات الأمر شهريًا. كان الوالدان متألمين لعدم الإنجاب، دون أن يفقدا سلامهما الداخلي، واثقين بأن الله يدبر أمورهما حسب إرادته.

في أحد الأيام شاهدا في المنام شيخًا يسير داخل البيت ويباركه، فعرفا أنه القدّيس اليشع. فَرِحا به جدًا، ولم يمضِ وقت طويل بعدها حتى ظهر لهما كبير الملائكة ميخائيل في شكل راهب يبشّرهما بأن الله سَيَهَبُهُمَا طفلًا يسمّونه إيريناوس -وتعني "المسالم"- ويحمل سمات اسمه.. بالفعل أعطاهما الله هذه العطية ونشأ محبًا للعلم، ذكيًا، تواقًا لحياة الهدوء والعبادة.

في سنّ الأربعين، سمع إيريناوس عن راهب يعيش في البرّية فانطلق إليه، وكاشفه بكل ما في قلبه معلنًا له رغبته في أن يتتلمذ على يديه، أرشده الراهب أن يبدأ بالحياة الديرية وسط الإخوة، ويتدرج من حياة الشركة إلى الوحدة، ناصحًا إياه أن يذهب إلى دير القدّيس باخوميوس ببافو (أقصى الصعيد). انطلَق نحو الصعيد وإذا برئيس الملائكة ميخائيل يظهر له متخفيًا ليرافقه حتى باب الدير، وأخذ ينصحه بما يجب فِعله.. عاش إيريناوس داخل الدير مخلصًا قلبه لله، واستمر هذا الوضع لعدة سنوات.

أنجب الوالدان بعد إيريناوس أخته تكلا، فنشأت كأخيها في حياة مقدسة، وكانت منذ صباها تحبّ العبادة

لله وخدمة الفقراء.. بعد موت الأب اشتاقت أن تعيش حياة الزهد مثل أخيها، فسافرت إلى إحدى بيوت العذارى بالإسكندرية، وسكنت هناك، وقامت بتوزيع أموالها على المحتاجين وإيواء الغرباء في بيتها.. لكن أعداء الخير لم يتركوها لحياة السكينة، إذ استطاع بعض الأشرار أن يُميلوا قلبها شيئًا فشيئًا حتى انهارت تمامًا، واستسلمت للخطيئة، فصار بيتها مكانًا للفساد. سمعَتْ أمُّها بما حدث فحزنت حزنًا شديدًا وقضت فترة طويلة في الصوم والصلاة من أجلها، ثم طلبت من أخيها -في إحدى زياراته لها- أن يمضي إلى أخته.

أطاع إيريناوس والدته وتوجّه إلى الإسكندرية وهو يرتل: إن سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرًا لأنك معي..

بعد وصوله إليها، صار يوبخها على استهتارها، ثم بكى في مرارة وهو يقول: أختاه.. الشيطان يلهو على وجهك، تكلا الجميلة صارت مدنسة.

جلسَتْ على ركبتها أمامه وسألته في نحيب: وهل لي توبة؟

نظر إليها في عطف ثم وضع يده فوق رأسها قائلًا في هدوء: وحتى وقت الحشرجة، لكن اتركي هذا المكان حالًا وتعالي معي.

انطلقت تكلا معه إلى البرّية، بين البحيرة والإسكندرية، وأقاما هناك لتجهيزها نفسيًا للعودة إلى والدتهما.. وفي إحدى الليالي قام إيريناوس من نومه في نصف الليل للصلاة واتجه إلى مرقد أخته فرأى عمودًا من النور نازلًا من السماء، والملائكة تحمل زوحها. اقترب من جسدها ليجدها قد فارقت الحياة، فسجد يشكر الله على صنيعه معها، فسمع صوتًا يقول: لقد قُبلت توبتها في الساعة التي تابت فيها لأنها قدمت توبة خالصة مِن قلبها.

دفن إيريناوس جسدها وانطلق عائدًا إلى والدته في مومفيس ليبشرها بما حدث، فمجّدَت الله وشكرته هي الأخرى.. قرر إيريناوس البقاء مع والدته لحين نفاذ أمر الله به أو بها، ومِن ثَمّ يقرّر مصيره.. بدأت بركاته في الظهور، واعتبرته القرية ملاذًا لهم، حتى ذاع صيته وبدأت الوفود تقدُم إليه من كل أنحاء الإقليم.

في برمهات 599 ميلادية، قدِم إلى إيريناوس رجل مِن نفس سِنّه تقريبًا يُدعى يعقوب، وبصحبته ولداه مينا وأباسخيرون. بعد ضيافتهم سألهم القدّيس عن سبب الزيارة، فقال يعقوب في أسى باللهجة البحيرية القديمة التي كان يشتهر بها سكان الدلتا والإسكندرية: أيها القدّيس إيريناوس، زوجتي حامل في الشهر السابع، لكنها مريضة للغاية، وهي في أمسّ الحاجة إلى دعواتك ومباركة البيت، فهل ترحم عذابها؟ جئنا إليك من قرية أيكيلة -مركز أبو حمص في البحيرة حاليًا- نمنّي أنفسنا بقدومك معنا.

وافق القدّيس إيريناوس وتوجّه معهم إلى هناك راكبين عربة تجرّها الجياد.

كانت أيكيلة تشبه باقي قرى الوجه البحري، أما البيت فوجده إيريناوس مختلفًا بعض الشيء، كان بيتًا كبيرًا من الحجر الجيري، له حديقة يحيط بها سور ضخم له باب خشبي كبير وعدة واجهات منمقة بحجارة منقوشة ومزخرفة بأوراق العنب، وهناك بئر خاصّة عميقة في فِناء المنزل مشيد بالطوب المحروق، وإسطبل للخيل.. البيت من الداخل عبارة عن طابقين، الحجرات السفلية للمعيشة والنوم، أما العلوية فهي مخصصة للزوار فقط. سقف البيت مرتفع كعادة البيوت وقتها، وبه العديد من الأعمدة الحجرية بنهايتها تيجان تمثل حركة تماوُج أغصان الأكانتس، وفي أعلاه علامة الصليب والعديد من أطباق الفضة التي تخطف الأنظار. وجد يعقوب التساؤل في عين القدّيس فقال: نحن نعمل في صناعة الفضة.

طلب يعقوب من القدّيس دخول غرفة نومه، فوجد زوجة يعقوب في حالة إعياء شديد، الغَرَق يغمر وجهها، ولون بشرتها أقرب للأموات، وعيناها ذابلتان. كانت ترتدي جلبابًا من الكتان الأبيض محلى عند الأكمام والياقة بخط أزرق غامق، وتلفّ شعرها بشال يجمعه إلى أعلى في شبه تاج، لكن المرض والحمل بدّدا جمالها وأناقتها في ما عدا مسحة بسيطة باقية. ألقى عليها التحية، ثم بدأ في قراءة آيات البَرَكة وتراتيل طرد الشيطان وإبعاد الحسد. بعد الانتهاء جهّز العبيد مائدة الطعام، عليها اللحم والخبز والبازلاء وما طاب من الفاكهة.

قرّر القدّيس المبيت بضعة أيام لحين الاطمئنان على الأمّ، وذلك بعد إلحاح من يعقوب وولديه، وعرف خلالها أن يعقوب من كبار الملاك في البحيرة ويحبه أهل القرية لكرمه وحكمته، ولاحظ الأخلاق الكريمة لصاحب البيت عن قُرب، كما لاحظ حُسن تربيته لأبنائه مينا وأباسخيرون واهتمامه بتعليمهما، وأمانة الأسرة في صناعة الفضة.

أنجبت الزوجة في الليلة الثالثة لزيارة القدّيس بنتًا كاملة النضج رغم عدم إتمام الشهور التسعة، كانت إحدى كرامات القدّيس، فتهلل البيت فرحًا بالرضيعة وطلبوا من القدّيس تسميتها..

قال إيريناوس: مارية.. مارية ابنة يعقوب.

- اسم جميل!

- اسم العذراء مريم جميل بكل اللغات (مارية هو الاسم اللاتيني لمريم).

فرح الجميع بالاسم، ولم ينتظر يعقوب تسميتها بالطريقة المعتادة (كانت العادة وقتها اختيار الأب سبعة أسماء لقدّيسين مختلفين على سبع شمعات، والشمعة التي تستمرّ مضيئة إلى آخر الحفل يطلقون الاسم الذي تحمله على الوليد). كان أول احتفال عائلي بمارية بعد ميلادها بسبعة أيام، بارك القدّيس الوليدة ورفع صلاة شكر لله من أجل سلامة والدتها، وتسمى بصلاة الطشت، نظرًا لاستخدام الطشت في غسل الطفل. في نفس اليوم رسم مينا، الابن الأكبر، صورة للقدّيس على طبق من فضة تظهره على درجة من الوقار وعلى وجهه ابتسامة هادئة، عُلّقت على أحد الجدران الظاهرة لبهو البيت.

ماتت الأمّ بعد ميلاد مارية بأربعين يومًا، فلم تحملها إلى الكنيسة لتنال سرّ العماد، وأقيمت صلاة خاصّة في بيت يعقوب في اليوم الثالث للوفاة، وكان يسمّيها العامّة رفع الحصير، أي إنهاء فترة الحزن الشديد، ويجلس فيها أهل البيت والمعزّون على الحصير أرضًا بدلًا من الجلوس على الأرائك والمقاعد. حضر القدّيس إيريناوس العزاء وأظهر دورًا في منع مظاهر الحزن في العزاء مثل اللطم وشقّ الملابس وحلّ الشعر وصبغه بالنيلة والتعديد، ثم وقف في حديقة البيت وألقى موعظة صغيرة كانت ذات أثر فعّال في تخفيف وطأة الحدث.

عاشت مارية طفولة سعيدة رغم الفجوة العمرية بينها وبين شقيقيها مينا وأباسخيرون، بسبب نشأتها مع إسحق وقسما، ابنيهما على الترتيب. وصلت إلى سنّ الدراسة والتحقت معهما بمدرسة الكنيسة.. كبرت مارية عامًا بعد عام وكبرت معها أحلامها ورغبتها في مساعدة أسرتها حتى في العمل الشاقّ، كانت الجميلة تضيء قنديلًا من الزيت أسبوعيًا أمام الأيقونة الفضّية تكريمًا للقدّيس، الذي لم تنقطع زيارته لهم عامًا تلو الآخر. اعتبرته مارية أبًا ثانيًا لها، تفرح بزيارته السنوية يوم ميلادها في الربيع، وتنتظره باقي العام، أما مينا وأباسخيرون فكانا يستشيرونه في كل أمور حياتهما ويعتبرانه بمثابة المرشد الحكيم.

في العام الخامس عشر بعد ميلاد مارية، وفي أثناء زيارة القدّيس السنوية لبيت يعقوب، أحسّ يعقوب بدنوّ أجله فأوصى القدّيس بأبنائه الثلاثة وشدد عليهم بنفاذ كلمة القدّيس عليهم مهما حدث، ثم أعتق أربعة من العبيد لإخلاصهم وعطفهم وترك لأبنائه حرية التصرف في باقي العبيد.. حينما زارهم إيريناوس العام التالي وجد مظاهر الحزن تخيّم على البيت الكبير ومارية تقف بحديقة البيت باكية وحولها إسحق وقسما، ابنا شقيقيها. أدرك الرجل أن صديقه العزيز قد رحل عن عالمنا، فجلس ساندًا ظهره إلى السور يبكي، لكن هذه المرة لم يُلقِ أي عظات أو خُطب.

***

في بداية القرن السابع الميلادي، زاد اضطهاد الرومان للأقباط المصريين، فلجأ الأباطرة إلى جمع وظيفة بطريرك الكنيسة إلى منصب والي المدينة، وذلك لإرغام المصريين على قبول مذهب الطبيعتين، فصار بطريرك

الإسكندرية حاكمًا لها في نفس الوقت. كان كل بطريرك يبدأ عهده بمذبحة كبرى يقتل فيها عددًا ضخمًا من أفراد الشعب، كان أحيانًا يصل إلى مِئتي ألف شخص ممن يرفضون اتباع عقيدته، أما ردّ فعل المصريين فكان أقصاه محاولة رجم البطريرك الجديد في أثناء إلقاء خطبته.. حدث استثناء عام 616 ميلادية، عندما تولى البطريرك الأنبا أندرونيقوس بعد اتفاق الشعب عليه، واستطاع أن يقيم في الإسكندرية معتمدًا على قوة أسرته، التي كانت غنية جدًا وتتولى بعض المناصب الإدارية الكبيرة في العاصمة. لم تستطع قوّة الرومان أن تخرجه منها، ولعل السبب المنطقي لذلك هو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك في حالة يُرثى لها، إذ اجتاحت جيوشُ الفُرس كثيرًا من أراضيها، وازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، فهاجر كثير من أهالي سوريا وفلسطين لاجئين إلى مصر.

نحن الآن في عام 618 ميلادية..

بعد فَقْدِ إيريناوس صديقه العزيز ومن بعده موت والدته، اشتاق القدّيس إلى أخته تكلا كثيرًا فقرر الذهاب إلى البرّية هناك لزيارتها والصلاة لها. وصل إلى الإسكندرية وفوجئ باضطرابات هناك لا يصل صوتها -رغم علوّه- إلى الريف، تأثر كثيرًا بعد سماع سيرة الشهداء، ومدى فرحتهم بمقابلة الموت، حتى سمع أنّ كثيرين منهم كانوا يترنّمون في بهجة خلال إقامتهم في السجون، أو في أثناء سيرهم في الطريق إلى ساحة الاستشهاد.

عاد إلى مومفيس وذهنه مشغول بما رآه، شاعرًا أن حياة الرهبنة غير مُرضية على الجانب العملي، العزلة وتلاوة الصلوات في الغرف المغلقة تهذّب النفس لكنها -مع الأسف- لا تهذّب المجتمع، النعامة تدفن رأسها بالرمال لتموت سعيدة دون مواجهة مفترسها، لكنها لا تعلم أنها منحت قاتلها فرصة جديدة للعيش سعيدًا.. بدأ يزيد من وعي أهالي قريته ومِن ثَمّ القرى المجاورة، فحاول أبناء صديقه يعقوب -رحمه الله- إثناءه عن ذلك خوفًا من بطش الرومان لكن دون فائدة، انتشرت دعوة القدّيس إيريناوس بسرعة نظرًا لتعطش العامّة لكلمة تُوَحّدهم، حتى وصلت دعوة القدّيس إلى أديرة الغربية. كان يقيم بضعة أيام في كل بلدة يقابلها حتى يطمئنّ إلى استماع أهل البلدة لدروسه اليومية، والتي مفاداها رفض الاحتلال الديني والعسكري الذي يعانون منه مُرّ المعاناة.

بعد نحو شهرين في الإقليم ألقى حاكم قِسْم سمنود القبض على القدّيس إيريناوس وزجّ به في السجن وأرسل إلى والي الإسكندرية يستأذنه في إعدامه، لكن بطريرك الإسكندرية أندرونيقوس لم يكن ضعيفًا أو تابعًا، وكان قد سمع بالقدّيس إيريناوس وشقيقته تكلا -رحمها الله- فرفض قرار الوالي وأبلغه بذلك فأثر الوالي عدم إثارة القلاقل.. لم يَنْصَع حاكم سمنود وأرسل إلى الإمبراطور نفسه في القسطنطينية فأمر بعزل أندرونيقوس.

كان الشعب القبطي بأكمله ملتفًا حول سجن سمنود لمنع الجنود من إخراجه إلى ساحة الإعدام، خاف القدّيس إيريناوس على شعبه أن يَعمل فيه الجنودُ سيوفهم، فسلّم نفسَه سِرًّا للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهةٍ لا يحيط بها المصريون، فحدث ذلك وسلّم رأسه للجُند منتظرًا تنفيذ الحكم..

كانت هناك حالة من الغليان تسري في أهالي أبكيلة منذ وقت حبس القدّيس.. حوّل مينا وأباسخيرون -اللذان صارا من ذوي الوجاهة والاعتبار- بيت أبيهما يعقوب إلى مركز لثورة ضخمة رافضة إعدام القدّيس، أما مارية فكانت تلعب نفس الدور مع نساء القرية فكانت تلهب حماسهم لمواجهة ظلم حاكم سمنود وقرارات الإمبراطور نفسه. في الحقيقة لم يكن أهالي القرية بحاجة إلى مَن يُلهِب حماسه، كان القدّيس صديقًا لهم ولم يغلق بابه ولو ساعة في وجه أحدهم في أثناء زياراته السنوية لبيت كبيرهم.

تطوّرت الأحداث بتحرك مينا وأباسخيرون مع الأهالي حاملين شتى أنواع الأسلحة البيضاء من سيوف وسكاكين وشوم وغيرها على ظهور خيولهم، هكذا بدأت الثورة بقريتي أبكيلة، ومومفيس محل ميلاد القدّيس، ثم القرى المجاورة مثل ترنوط، وسنطيس، والكريون... إلخ. صار إقليم البحيرة تابعًا للإخوة الثلاثة

خلال أسبوع واحد.. الضربة الأولى لهذا الاحتجاج كانت بالهجوم على مراكز الغلال (مكانها حاليًا مركز أبو المطامير بالبحيرة)، التي كان يُخزَّن بها القمح المقشور (الحنطة) تمهيدًا لنقلها إلى الإسكندرية ومنها إلى القسطنطينية، نتج عن ذلك مجاعة اهتاج منها سخط القوم على الوالي المدني وكادوا يفتكون به لولا بعض أعيان الأقباط الذين ردّوا عنه اعتداء الغوغاء.. تحوّل الاحتجاج إلى ثورة كبيرة عمّت غالبية أقاليم الوجه البحري فلم يستطع الوالي قمعها.

أما إسحق وقسما اللذان صارا شائبين يُعتمد عليهما، وذوَيْ دمٍ حرّ، فكان دورهما أشدّ وأعنفَ مِن أبوَيهما، إذ تمكّنا بمساعدة الأهالي من أخذ الجزية التي جمعها الرومان من المصريين، وكذا الاستيلاء على كثير من مراكب الأعداء، وسعوا خلفهم حتى تقهقرت المراكب الباقية للرومان وأوشكت على الوصول إلى قبرص! واكتسح الأخوان القوّات الحربية الرومانية أمامهما (في الواقع كان الجيش البيزنطي في مصر هزيلًا يقوده رؤساء غير أكفاء ويتكوّن من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية، وكان دورهم هو قمع الاضطرابات الداخلية البسيطة ومساعدة الحكام على جمع الضرائب، أي إنّ عملهم كان قاصرًا على عمل الشرطة، لدرجة أن الجندي أصبح له الحق في الزواج واتخاذ مهنة مدنية في أثناء مدة خدمته في الجيش، ووصل عدد الجيش وقتها إلى 30000 جندي توزّعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وداخل المدن الكبرى فقط).

خاف الإمبراطور من سوء النتيجة وطلب من بطريرك الإسكندرية الجديد أن يعقد صلحًا مع الإخوة الثلاثة، سافر البطريرك إلى أيكيلة مسقط رأس الإخوة، وحاول التفاهم معهم للوصول إلى حلّ لكن الإخوة كانت كلمتهم واحدة، وهي الإفراج عن صديقهم القدّيس إيريناوس وإعادة بطريرك الإسكندرية أندرونيقوس دمث الأخلاق إلى منصبه، هنا شعر البطريرك بالخوف من الإطاحة به فقرّر خداعهم، إذ أوهمهم بالموافقة على طلباتهم وبالتالي أوقفوا الحرب، لكنه في نفس الوقت أرسل إلى الإمبراطور يخبره برفض الإخوة التفاوض واستمرارهم في أعمال التخريب وتهييج الجماهير، فعيّن الإمبراطور قائدًا جديدًا للجيش في مصر وأرسل إليه عدة كتائب فصارت المواجهة حتمية.. وصلت الكتائب إلى الإسكندرية ومنها إلى الفرع الغربي للنيل، فرع رشيد، وفي الطريق حرق القائد كثيرًا من المباني والمنشآت وطرَد الأقباط من كل وظائفهم المدنية.

بدأت المواجهة بوقوف القائد الروماني على شاطئ النيل ممسكًا بالقدّيس إيريناوس ومِن خلْفه جيشه، وعلى الشاطئ المقابل احتشد الثائرون بقيادة الأشقاء الثلاثة.. كانت الحيرة تملأ قلوبهم وتنهش عقولهم، واقعين بين مطرقة خيانة الشعب مِن ورائهم لإنقاذ أبيهم الروحي، وسندان التخلي عن عاطفتهم الفردية من أجل الواجب الوطني، لم يتوقع الإخوة قبل المواجهة أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة، وأن صانعي الفضّة سيتحوّلون إلى زعماء ثورة شعبية في مواجهة قائد عسكريّ بيزنطيّ مخضرم.. في أثناء حيرتهم وجدوا مركبًا صغيرًا يعبر النهر في اتجاههم، وجدوا القدّيس عليه مكبّلًا بالأصفاد مِن يديه وقدميه، وفي رقبته سلسلة طويلة يمسك بها جندي من الخلف، وعلى وجهه آثار ضرب مبرح وفي عينيه نظرة أسى لم يعهدوها عليه من قبل. قال الجندي في البداية بلغة ركيكة: القائد يأمركم بطرح أسلحتكم وإلا سيقضي على القدّيس أمام أعينكم.

هتفت مارية لأخيها الأكبر مينا: هذه خدعة يا أخي!

أما أباسخيرون، أكثرهم ثباتًا، فقال: وماذا إنْ صَدَق الكاذب؟

هنا وقف القدّيس على مقدّمة المركب وقال بصوت ملأه الحزن: طلب مني هؤلاء التفاوض معكم، لكنني جئت إليكم غير عابئ بالمصير. الرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالإيمان وغمر السلام نفوسهم، كنت أظنني من ضمن هؤلاء في ما مضى لكنني اليوم عرفت أن القلوب العامرة بالإيمان هي مَن ترفض الظلم ولا ترضخ له.. فلننتصر أو نُستشهَد يا أبنائي.

قالت مارية التي صارت شابة ناضجة رائعة الجمال: هنيئًا لك يا أبي، فأنت الرجل الجريء المستهين بكل خطر.

ابتسم القدّيس لها في ثقة فبدأ الجندي التجديف إلى الخلف، وجذب القدّيس من رقبته ليسقط على أرض المركب، فصرخت مارية في لوعة، أما مينا وأباسخيرون فنظر كل منهما إلى الآخر ثم إلى الأهالي و.. اشتعل الموقف.

عَبر المصريون النهر، كانت معركة عنيفة ودموية، أبدى فيها المصريون في البداية شجاعة كبيرة، لكن سرعان ما انتهت عن طريق لجوء الرومان إلى حيلة خسيسة، وهي فتح خطوطهم الخلفية ليجد الأهالي أنفسهم أمام كل المعتقلين من منطقة الدلتا، فانشغل المصريون بمقابلة أصدقائهم وذويهم حتى قتل الرومان بعضهم وفرّ كثيرون، ولم يبقَ في ساحة القتال إلا قلة بسيطة من ضمنهم الأشقاء الثلاثة الذين حاولوا الفرار بعد القتال في استبسال غريب، لكن قُبض عليهم. أما إسحق وقسما فاستطاعا الهروب، كل منهما في طريق.

***

وقف الناس والجنود على مسافة ثلاثين خطوة من ساحة الإعدام بالقرب من بيت يعقوب، كانت مارية مربوطة في عمود خشبي طويل وُضِع الكثير من الأخشاب والحطب حوله تمهيدًا لحرقها حيّة.. في مواجهة العمود دُقّ في الأرض عمود خشبي ضخم أشبه بجذع الشجرة وتجوّف مِن أعلى ليضع المحكومُ عليه رقبته ثم يهوي الجندي المنوط بتنفيذ الحكم فوقها بالفأس من مسافة ثلاث أمتار تقريبًا. صاحت النساء صيحات الرعد عندما أبصرن مُعَدّات الإعدام قد نُصِبَت، وبعد دقائق جيء بالابن الأكبر مينا مقيّدًا من الخلف، ثم قرأ عليه أحد الجنود الحكم المكتوب على ورقة بردي ضخمة بالحروف اليونانية، بعد ذلك أجبره أحد الجنود على الجثوّ على ركبتيه ووضع عنقه على العمود الخشبي فصار وجهه في مقابلة أخته مارية.. صرخت مارية صرخة قوية وهتفت باسمه في مشهد مؤثر: مينا!!!.. مينا!!!.. أخي!

ثم أغمضت عينيها من بشاعة المنظر.

الأبشع من الإعدام دائمًا هو لحظات ما قبل الإعدام، تدور خاطرة واحدة في ذهن المحكوم عليه: «ليتني أستطيع ألا أموت»، ثم تصير الفكرة ضربًا من الجنون حتى لا يتمنى إلا سرعة تنفيذ الحكم.

هوى الفأس ذو النصل الحادّ على رقبة مينا، فتحت مارية عينيها فوجدت رأس أخيها أمام قدميها في منظر مرعب، فأغمضت عينيها للمرة الثانية وراحت في إغماءة.. توقف الصراخ والعويل فجأة لمدة دقيقة كأنّ الزمن توقّف، ثم انطلقت آهات تشقّ الصدور في سيمفونية حزينة وبكاء جنائزي طويل، لحسن الحظ لم تشاهد مارية تنفيذ حكم الإعدام في أخيها الثاني أباسخيرون، إذ أفاقت من الإغماء بعد تنفيذه لتجد رأسه قد انفصلت عن جسده هو الآخر، وعيناه واضحتان أمامها مما جعلها تفرغ ما كان ببطنها..

تعالت أصوات الغضب والاعتراض ثم صاح واحد من الجمهور لم يتبيّنه جند الرومان: لن تقتلوا النساء.

أخذ الجميع يزوم، وهتف كل الحضور في صوت واحد: لن تقتلوا النساء..

خاف القائد العسكري المسؤول عن الإعدام وأدرك أن إعدام الفتاة سيشعل الأمور فصاح في صرامة محاولًا إخفاء توتره: لن نقتل مارية بنت يعقوب.

هدأ الوضع كثيرًا بعد جملته لدرجة أن البعض أخذ في التصفيق، ناسين ما حدث.

***

يناير 619 ميلادية..

صعدت مارية آخر مراكب الغلال المتجهة من الإسكندرية إلى القسطنطينية.. كانت عيون المصريين ملأى بالحسرة في وداعها بعد سماعهم بما فعلته، لكن الغريب أن عيون الرومان كانت هي الأخرى تائهة، ليس بسبب قرار نفي مارية إلى جزيرة كريتا (تكريت الآن) بالتأكيد، إنما بسبب توحُش إمبراطورية أخرى وافتراسها

لمقاطعاتهم في الشرق، الفرس، إمبراطورية بلاد فارس التي استغلّت الاضطرابات الداخلية في الإمبراطورية الرومانية فطردوا الرومان من سوريا وفلسطين وصمّموا على محو الحكم الروماني من آسيا، فاتجه الشاه الفارسي خسرو الثاني بنظره نحو مصر، سلّة غلال الإمبراطورية الرومانية، وقرّر ضمّها إلى مُلكه..

تحركت السفينة وبدأت رحلة مارية الطويلة في بحر الروم (الأبيض المتوسط).. نظرَتْ إلى البحر في غضب في البداية ثم في انهيار ثم في سكون تام، حاول أحد البحّارة التحرّش بها كعادة الجنود مع الأسرى من النساء لكنه ابتعد عنها في اشمئزاز عندما وجد دمها الشهري يغرق رداءها الكتاني وصندلها الجلدي. بكت مارية في غضب ممزوج بالخجل، ثم نامت بعد إحساس مخيف بالقهر والعجز والحزن العميق، تمنّت ألا تقوم من نومها، لكنها استيقظت بعد ساعات للأسف. نظرَتْ حولها فلم تجد شيئًا قد تغيّر، ما زالت حبيسة داخل قبو السفينة ودموعها لم تجفّ بعد، ودماؤها تزداد اندفاعًا من رحمها النابض.. نظرَتْ إلى أعلى من خلال كوّة في سقف القبو، ما زالت السماء موجودة هي الأخرى والربّ مِن فوقها لم يدبّر أمرَها بعد.. بعد دقائق فتح أحدهم القبو فتطلّعَتْ إليه في لامبالاة ظنًا منها أنها محاولة جديدة للتحرُّش، انتبهت بعد ثوانٍ أنه لا يرتدي زيّ البحّارة أو جنود الرومان التقليدي، شكّت أنه غريب، ثم تيقّنت من ذلك عندما صاح بلُغة لم تسمعها من قبل، لكنها استنتجت المعنى من تعبيرات وجهه.

- مَن أنت؟

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/rewayat2025

آن عبد المهدي سيف الملك

(بكاء النيروز)

هبطَت ذرّات الضباب من السماء، وأخذت تغلّف الغابة بطبقة شاحبة، فبدا كل كهف بها معزولًا عن الآخر. أصوات كثيرة كانت تتكلّم في الخارج، القطة الشيرازي تلهو داخل كهفها، تستمع إلى صوت أنفاسها يعلو ويهبط، ثم تنظر من خلال كوّة تسمح بدخول ضوء الشمس وإضاءة داخل الكهف، لتجد الحيواناتِ مِن كلّ الأجناس تسير في الغابة، كلٌ يحمل همومه، فئران، أسود، ضباع، أفيال... إلخ، تتحرك في خفة بسبب رشاقة جسدها، تخبط رأسها ثلاث مرات بانتظام على الجدار وتحرّك رأسها يمينًا ويسارًا في انتظام ثم تعود للهو مرة أخرى. جميلة هي، لا تملّ مِن النظر إليها.. فجأة انتابها شعور بالضيق ناحية الضوء، فأمسكت بأوراق ضخمة عليها رسومات خاصّة بها، أغلقت بها الكوّة، ونظرت ناحية مدخل الكهف وتمتمت في هدوء وهي تنظر إلى أعلى: ستدخل الجهيزة الآن.

بعد دقائق دخلت الجهيزة (أنثى الدُبّ) إلى الكهف في هدوء وابتسمت لها قائلة: كيف حال قطتي الصغيرة؟ هل آتي لك بالطعام الآن؟

حركت رأسها هذه المرة إلى الأمام في انتظام، دلالة على الموافقة، دون أدنى حركة من عضلات وجهها، لا توجد تعبيرات البتة، «ماشك فيس» كما يقولون.. أحضرت الجهيزة بعضًا من الدجاج المطبوخ بطريقة الشيش طاووق، فصاحت قطّتنا في وجهها بحدّة: لا أريد هذا!

حدّتها كانت مخالفة لطبيعة القطط الشيرازي المسالمة. ابتسمت الجهيزة قائلة: هل تريدين الخروج معي بعد تناول الطعام؟

انزعجَت قليلًا ثم أشارت ناحية مكان نومها ولم تتكلّم. فهِمَت الجهيزة ما تقصده ثم خرجت مِن الكهف في هدوء..

خَفَتَ ضوء الشمس تدريجيًا بالخارج، وأوشك يوم الغابة على الانتهاء، لكن بقي ضجيج عقلها مستمرًا. حان وقت النوم، الضجيج ما زال مستمرًا دون رحمة، سألت نفسها: لماذا تعيش القطة داخل الكهف والحيوانات تلهو في الخارج؟ نامت ساعة ثم استيقظت، ثم نامت ساعتين أخريين، هكذا خالفت جدولها الزمني المعتاد للنوم. بعد استيقاظها شعرت بالوحدة، قطة تعيش في كهف منذ ثلاثة وعشرين عامًا يجب أن تشعر بالوحدة، لا أحد يفهمها داخل الغابة بأسرها أو يعرف ما الذي تفكر فيه، هي أيضًا لم تعرف لماذا تتصرف الحيوانات هكذا! قررت عدم الجلوس هكذا، فخرجت من كهفها في بطء، وجدت الجهيزةَ العجوز جالسة في زاوية لن تستطيع رؤيتها منها ومنشغلة في مشاهدة الحيوانات الأخرى، قالت لنفسها: النمرة ليست هنا، وهذه فرصة لرؤية كهفها من الداخل.

تسللت في هدوء حتى وصلت إلى غايتها في نهاية الطريق..

الفرق بين الكهفين كان في اتساع مكان النوم لصالح كهف النمرة، والكثير من الكتب في كل مكان. فجأة، اقتحمت الجهيزةُ كهفَ النمرة في سرعة، قائلة في تعجُب: ماذا تفعلين هنا يا قطتي؟!

هزّها الصوت من الداخل، فقفزت في انزعاج لدرجة أنها سقطت أرضًا ووضعت يدها على أذنيها في خوف مبالَغ فيه. لمحت أمامها دفترًا مزخرفًا من الخارج بشكل غريب أسفل مكان نوم النمرة، نسيت خوفها سريعًا وفتحته في لهفة، مقرّبة الأوراق من أنفها لتشمّها، ميّزت رائحة النمرة.. النمرة التي هجرتها وذهبت إلى بلاد بعيدة لا تعلم عنها شيئًا، لن تتوه عن رائحتها أبدًا.. هنا خرجت الجهيزة من الكهف وتركت قطتنا الجميلة تقرأ في هدوء.. لم تكن الجهيزة مهتمة بمعرفة فحوى المكتوب، أوراق مكتوبة بخط اليد في أحد كهوف الغابة، بالتأكيد تخص النمرة أو كتبها الدبّ قبل وفاته، المهمّ أن القطة انشغلت بالأوراق وهدأ جسدها وتوقفت عن

تلك الحركات التشنجية..

جلست القطة القرفصاء على الأرض، وبدأت صحبتها مع ذكريات أبعد حيوانات الغابة عن قلبها وأقربهم إلى دمها الفارسي العريق.

***

أوراق من دفتر خاصّ بالسيدة آن عبد المهدي سيف الملك.. مكتوبة بخط اليد:

أكتب لأني اقتربت من الأربعين، أقل من ثلاثة شهور فقط تفصلني عنها. ليس كل من اقترب من الأربعين يكتب مذكراته بالطبع لكنني وحيدة أغلب الوقت، أرغب في اكتشاف ذاتي بشكل أكبر لتجاوز هذه الأيام القاسية دون زوجي راغب، فلِمَ لا أكتب؟ عرفت من الكتب أن العقد الخامس سيكون مليئًا بهواجس متنوعة من انحسار الجاذبية والجمال وزيادة نسبة القلق النفسي للمرأة تحديدًا، وأن نقص الاستروجين -هرمون الأنوثة- وظهور التجاعيد، إلى آخر تلك الأعراض، هي أمور تعلن عن بدء العدّ التنازلي لصلاحية المرأة، لهذا أريد معرفة المستقبل من خلال الكتابة بشكل متأنٍّ قبل أن أصل إلى مرحلة انهيار الجسد والروح، أو فخّ سنّ اليأس الشهير.. قرأت أيضًا أنّ السنوات القادمة ليست بأكملها سيئة، يوجد بعض الأمور التي تدعوك للتفاؤل وتحمل في طياتها كثيرًا من الميزات المفيدة.. النضوج، الاستقرار الأسري، اشتعال الغيرة أكثر على الزوج، وهذا مفيد، كذلك ظهور الحكمة في التعامل مع مشكلات الأبناء والعمل.. فوائد كثيرة كما ترون، لكنني أعرف أنها -للأسف- لن تهمّني في شيء البتة.

يقال إنّ عائلتي لها أصول من بلاد العرب أو مصر تحديدًا، لا أعلم صحّة هذا لكن والدي أكده أكثر من مرة حينما سألته عن معنى اسمي، آن.. اسم قديم قادم من لغة أجدادي العريقة ومعناه «البراءة» أو «الطهر»، له معنى آخر في القرآن لكن والدي يتحاشى الحديث عنه حتى لا تُنتزع البركة من حياتي؛ «آن» في القرآن هو شدة لهيب جهنّم يوم القيامة.

اسمي آن، وُلِدتُ في التاسع والعشرين من مارس 1960، في أثناء الاحتفالات بأعياد الربيع (النيروز) بقرية جميلة جدًا، أقرب للخيال، في وسط إيران، تتبع إداريًا محافظة أصفهان الشهيرة وتبعد عن طهران العاصمة بنحو 300 كم، تُدعى آبيانة.. عاش أجدادي في آبيانة منذ آلاف السنين، لكن في السنوات الأخيرة انحدر عدد سكانها إلى نحو ألف نسمة فقط، إذ انتقل أغلب أبناء القرية للحياة في المدن، لهذا يعرف الكل بعضهم بعضًا هناك.. في قرية آبيانة تتجمّل الطبيعة بكامل خلِيّها، يسمّونها القرية الحمراء لأن أغلب بيوتها مصنوعة بالكامل من تراب جبال كركس الحمراء، تجد البيوت الطينية الحمراء متراصة بعضها بجانب بعض على التلال، ونوافذها الخشبية المشبكة تتزين بمزهريات جميلة. سقف كل بيت هناك يعدّ أرضية للبيت الذي شُيّد فوقه، لا توجد حولها جدران لكي تقوم بحصار البيوت، ولا يُسمَح لسيارة أو حتى دزاجة بدخول الأزقّة والشوارع.

الجبال، النهر، شجر الصفصاف، المسجد، وأخيرًا الفقر -رغم كون القرية من المناطق السياحية- هذا هو ما نشترك فيه جميعًا هنا.

طقسنا ليس معتدلًا، خصوصًا في الشتاء، إذ تتكون طبقة من الثلج أمام بيوت القرية. بيتنا القديم يطلّ على الشارع الرئيسي في القرية، الذي يشقّ القرية من المنتصف، مما سمح لي بمساحة واسعة للهو والتحرك في الصغر.. ليس لي إخوة، أو للدقة مات قبلي رضيعتان وبعدي مولود ذكر، ماتوا جميعًا دون سبب واضح، وعشت أنا، أو هكذا ظننت.

مات أجدادي جميعًا قبل أن أراهم، ما عدا جدتي لأبي، نسمّيها الخالة، سيدة مُسِنّة، كانت تسكن معنا في بيت القرية، كانت ظريفة حلوة المعشر، تحبّ إلقاء النكات والسخرية ممن حولها. كان جسدها نحيلًا نوعًا ما، لها وجه مربّع الشكل، وعينان واسعتان وشفتان رفيعتان. ترتدي الوشاح الملوّن الطويل وتنورة يصل طولها إلى ما تحت الركبة كعادة كل نساء القرية. كانت أفكارها تقدّمية بالنسبة إلى بنات جيلها، تقول عن التعليم

إنه مُهِمّ، تستشهد أغلب الوقت بأشعار السيد عمر الخيام وتحبّ قراءة الطالع.. بعد أن تقلب النسوة أكواب القهوة ويتركنها في الصحون الصغيرة حتى تجفّ أرضيتها، تلتقط هي كل كوب بتركيز عميق، تحوّل الخطوط والدوّامات التي كوّنتها القهوة إلى تنبؤات مذهلة مليئة بالتفاؤل. كان أغلبها يَثبُت خطؤه بالطبع، لكنها لم تصدم إحداهن يومًا. كانت تزمّ شفتيها في أثناء القراءة بطريقة تجعلهما تختفيان في اللحم المحيط بفمها، وكنت أحبّ مشاهدة فعل الاختفاء منتظرة شفتيها وهما تعودان من جديد.. عانت الخالة في سنواتها الأخيرة من أمراض كثيرة مزمنة، أشدّها حساسية الصدر والروماتويد.

قرأتْ لي الطالع ذات مرة وأنا في الثانية عشرة، يومها قالت في حنان: أراكِ تُنجبين فتاة ساحرة مثلك يا آن، و... هناك ذكر أيضًا. ستعيشين حيوات كثيرة يا صغيرتي، وستسعدين أوقاتًا كثيرة منها..

الآن تأكدتُ أنّ نبوءات جدتي الكاذبة زادت واحدة.

سافر أعمامي الثلاثة للعمل بأصفهان كمعظم رجال القرية لكونها المدينة الأقرب، حتى عمتي سافرت مع زوجها هناك، أما أبي فرفض السفر لكونه الأخ الأكبر والمسؤول عن رعاية والدته -الخالة- فبقي معنا عمي الأصغر، كامران، فترة مراهقته وأول الشباب قبل سفره لأصفهان هو الآخر. عمي كامران يكبرني بسبعة أعوام، عشنا جميعًا مع الخالة حياة هادئة لا يعكر صفوها أي شيء لأعوام طويلة.

سأصف أُمّي لكم: بدينة نوعًا ما، وجهها ممتلئ قليلًا مما جعل عينيها تبدوان ضيقتين قليلًا، ساقاها نحيفتان وغير منسجمتين مع بقية أجزاء جسمها، في معظم الأحيان تُبقي شعرها الطويل ملمومًا بصورة متقنة في مؤخرة عنقها على طريقة الكعكة أو اللفة الفرنسية. أمي جميلة لكنه جمال الاحتواء، جمال الأم الحنون.. أما أبي فكان شديد الوسامة، يبدو من بعيد ذا هَيبة بالغة، من بعيد فقط، فعندما تقترب منه ستجد عينيه غير منسجمتين مع هيئته، الطول مع الشعر الأسود الناعم، البنيان الرشيق، الرقبة الممتلئة الطويلة، وله خدّان ينبضان باللون الأحمر القاني، كل هذا ثم تنظر إلى عينيه فتجد خضوعًا غريبًا، واستسلامًا كاملًا دون طموح في شيء، هذا الرجل المهيب كان يجب أن يكون واثقًا من نفسه أكثر من ذلك.. كان شديد التديُّن، يقضي أغلب وقته بين المسجد والعمل، إذ كان يمتلك حانوتًا لبيع المشغولات الفضّية والنحاسية، مثل السلاسل، الخناجر، الخواتم، الآيات القرآنية المنقوشة، إلخ. حانوت صغير لكنه كان الأشهر في القرية كلها، كانت الحركة الشرائية تزدهر في المناسبات السعيدة لأهل القرية، فكنا نشعر بالسعادة تلك الأيام كأنها تخصُّنا نحن. كان أبي يحضر في مكان عمله طَوَال اليوم بسبب عشقه للفضّة، إذ يَعُدّ نفسه فنانًا وليس تاجرًا. أحيانًا كان يقضي النهار بطوله في الرسم على قطعة فضة واحدة.

جميع الأطفال في آبيانة متعلمون، ربما لقلة عدد السكان والغيرة بينهم، لكنها غيرة محمودة على أي حال. ما زلت أذكر تفاصيل مدرستي العتيقة هناك في فترة دراستي الابتدائية، أما الحكاية الأسطورية المكتوبة على بابها الخشبي العملاق فحبّبتني في التعليم، وكان لها أثر في اختياري مهنة التدريس بعد ذلك. تقول تلك الأسطورة: «بعث الملك ابنه إلى المدرسة وقدّم له طبقًا من فضّة كتب عليه (غضب المعلّم لتعليمك هو أفضل مِن لُطف الأب بالنسبة إليك)».. هكذا رسّخت الأسطورة أهمية العلم والثقافة بداخلي.

أنا جميلة في كل مراحل حياتي. الجمال الإيراني معروف لكنني حتى بالنسبة إلى الإيرانيات الفاتنات كنت أجملهم، صحيح أنني الآن جميلة الهيئة فقط، لكن في طفولتي كانت روحي تزيد من جمال وجهي، في تلك الفترة كان أبي يحذرني دائمًا: «لا تُدعِي الرجال الغرباء يلمسونك يا آن».

تعلّمتُ منذ الطفولة أن المغتصِب نادرًا ما يكون غريبًا، الأشخاص المقربون إلينا هم من يُلحِقون بنا الأذى. في المجتمعات الغنية والمدن المتحضّرة، أو المفترض بهم التحضر والمساواة بين البشر، يكون المتحرّش أو المغتصِب هو المصوّر الفوتوغرافي، مدرّس الموسيقى، زوج الصديقة، سائق السيارة... إلخ، غالبًا ما يكون رجلًا تقيًا يغضّ البصر، بينما في الريف يكون الوضع أشد خطورة، ليس لأنه يأتي من الغريب، بل يأتي من الأشخاص الأكثر قربًا ممن سبق ذِكرهم. لا يوجد في قريتي سائق أو مدرّس موسيقى خاصّ، يوجد هناك ما ترتجف له

القلوب وترتعش له الأبدان، زنا المحارم.. الأب، الأخ، الخال، أو.. العم.

في إيران الاختلاط بين الرجال والنساء ممنوع، الذكر البالغ نفسه لا يستطع الاقتراب من أيّ أنثى غير أمه، أخته، خالاته، عماته، ومعروف للجميع أن معظم أنواع الجنون لها جذور شتى من الحرمان الجنسي، يحدث هذا ما دام هناك كبت جنسي، لهذا نجد أن الولع بالأطفال مثلًا مُتفشٍّ ممن هُم في سنّ المراهقة أو أصغر قليلًا هنا. الأمر ليس منحصرًا في إيران أو المجتمعات الإسلامية، بل نجده كذلك في المجتمعات الكاثوليكية المتزمّتة.

في طفولتي، في الستينيات وقت حكم الشاه، كان من حقّنا أن نتعلّم ونقتني الكتب ونقيم الحفلات وحتى مشاهدة الأفلام السينمائية. أذكر أنني شهدت نساءً من قريتي المتواضعة وهنّ يصبحن فاعلات في مجالات الحياة كلها، ففي البرلمان مثلًا كانت رائدة حقوق المرأة مهرانكيز كار، ودولت شاهي، والأيقونة فاروخرو بارسا... إلخ.

بحلول سنة 1984، أي بعد الثورة الإسلامية، سوف تعود القوانين ذاتها التي سادت خلال عمر جدّتي، سوف نُجبَر على ارتداء الحجاب (طُبّق القانون على تلاميذ المرحلة الابتدائية أيضًا)، وتُعاقَب الطالبة إذا ما كشفت خصلة من شعرها جهارًا (حذف هذا الجزء من المذكّرات نظرًا لاستفاضتها في الحديث عن الحياة السياسية في إيران، والتي لن تؤثر على سير الأحداث).

نعود إلى طفولتي، كنت أحبّ السير بجوار نهر برزرود في فصل الربيع لكن دون الاقتراب منه بسبب الهيدروفوبيا (الخوف من الماء)، كأنني أحتفل بميلادي، أيام النيروز، كنت أشمّ أطيب الروائح في الجوّ، النهر بجانبي والجبال أمامي شامخة تزيد القرية لطافة وروعة، أدندن الموسيقى وأحمل اللواشك (مأكول إيراني لذيذ ذو طعم بين الحلو والفزّ، مصنوع من فواكه مختلفة مثل التفاح والخوخ والبرقوق المجفف فوق أسطح المنازل هناك)، بعد ذلك أعود إلى البيت، ألقي التحية على أمي، أتناول طعام الغداء، وأستذكر دروسي حتى وقت النوم مثل أي طفلة تحبّ الدراسة.

كان عمّي كامران في تلك الفترة مراهقًا على وشك إنهاء تعليمه الفني، تُعامِله أمي كابنٍ لم تلده، كان معتادًا على النوم في حجرة الخالة، يختلي إلى حجرته مبكّرًا، كنت أشعر أنني متروكة وحيدة بشكل من الأشكال حينما يكون والداي في الخارج، لم أشعر يومًا أنه السند أو أخي الكبير، خصوصًا بعد أن خدش طفولتي..

استيقظتُ ذات ليلة على صوت أنفاس غير منتظمة بجانبي، شخص ما كان يمسكني برفق من الخلف ويلمسني أسفل الخصر، من مؤخرتي، كنت خائفة من الأنفاس أكثر من خوفي من اللمسة، كانت تلك الأنفاس تتصاعد ويرافقها لهاث مثل لهاث الكلب بينما هو يضغني بقوّة. حاولتُ ألا أتحرّك، وبقيت ساكنة كتمثال قدر المستطاع، حبستُ أنفاسي وأبقيتُ عينيّ مغمضتين، لربما حين أفعل ذلك ينصرف مبتعدًا، هكذا فكرت. لم أكن متأكدة كم سيطول إمساكه بي، لكنني لم أتحرك حتى عندما نهض فجأة وابتعد. كان بإمكاني سماعه وهو يمشي لثوانٍ في خفّة شديدة كما لو كان يسير في دوائر على السجادة السميكة، ومِن ثَمّ غادر الغرفة. لم أفتح عيني وقتذاك خشية أن أراه أو يأتي من جديد، لكنني أدركت أنه هو.. عمّي كامران.

منذ تلك الليلة تحديدًا لم أستطع النوم وحيدة في الظلام قَطّ، وصار نومي متقطعًا وقلقًا -حتى الآن-تجنبت الحديث مع أهل البيت، حتى اعتقد والداي أنني أحاول لفت الانتباه إلى نفسي -عرفتُ ذلك عندما سمعتهما يتحاوران ليلًا- فسألتُ ذاتي في غضب: ما الذي يدفع طفلة وحيدة مدللة أن تفتعل أشياء لجذب الانتباه إليها؟! لم يكن هناك مثلًا أخ أصغر لأشعر بالغيرة، أو زوجٌ أمّ يضربني طوال الوقت.. إلى آخر تلك الأمور المحفزة للغيرة عند الأطفال، فلمَ الافتعال إذًا؟! لم يكن بوسعي إخبار والدتي بما حدث.. حاولتُ تجنّب عمّي بكلّ الطرق، لكنه كان يقترب مني ويسألني وقت العصر في لُزوجة: آن، ما واجباتك اليوم في المدرسة؟

كنت أتظاهر بعدم السماع وأتحاشى النظر إليه.

حينما سافر للعمل في أصفهان -كأغلب إخوته- بعد عامين من تحرّشاته المتكررة، كنت وقتها على أعتاب المراهقة لكنني ناضجة بما يكفي، نادتني أمي كي آتي وأودعه لكنني ذهبت إلى الحمّام وأغلقت الباب خلفي، أنّبتني أمي على فظاظتي تلك، وقالت غاضبة: هل هذا ما درستِه في الفصل؟! عمّك شابّ يحاول أن يقترب من حياتك أكثر حتى يعرف مشكلاتك ويحلّها، قال إنك طفلة لامعة الذكاء، ويريد أن يودعك.

كان يأتي إلينا في إجازات قصيرة بعد ذلك، لكنني كنت دومًا أستطيع الإفلات منه. كنت أفكّر فيه طوال العام، أفكّر لدرجة أنني نسيت الطفلة الرقيقة الهادئة منذ ولادتها، نسيت أحلام الأطفال مثل النضوج والزواج، لم أعُد أراقب أمي في كل حركة أو أرتدي الأحذية العالية، لا أضع مساحيق التجميل، ولا ألعب مع العرائس وأمثّل إرضاعهن، مثل أي بنت.. بعد سنوات نسيتُ ما حدث.

***

في سِنّ المراهقة، كافأ القدَرُ عمّي كامران على تحرّشه الجنسيّ بإشعال ثورة هرمونات داخل غُدَدي الكظرية، وصلتُ في الخامسة عشرة إلى درجة جمال الحور العين، كنت جميلة وبالطبع كنت بائسة، هذه متلازمة موجودة منذ نشأة الكون، لا يجتمع جمال المرأة وسعادتها إلا في حالات نادرة لم أكن أنا منها. بدأت تغييرات في البنية الجسدية لي، مثل بروز الثديين، الطول الفارع، الصوت الناعم، ظهور الشعر في مناطق معينة من الجسم، وأخيرًا خروج الدم من مهبلي، أو ما يطلق عليه اسم «الدورة الشهرية».. الآلام الطبيعية المصاحبة لنزول السائل الأحمر في الظهر والبطن عند كل الفتيات، كانت بالنسبة إليّ آلامًا لزوجي، صار رحمي هو لعنة العمر كلّه، لكم تمنّيتُ أن يقف أمامي وأخبره أن يُهدِئ قليلًا من ثورته الشهرية.

عام 1975 اغتصبني عمّي كامران، لن أنسى هذا العام ما حييت، بعدما تحرّش بي في طفولتي اغتصبني عندما أعلنت مراهقتي عن أعتاب أنوثة صريحة وصارخة. تفاصيل واقعة اغتصابي قاسية، لا أقوى على سردها بأريحية، سأسردها في جُمَل مقتضبة، محاولةً التماسك في أثناء كتابتها، كي لا تخرج مني أنّات الألم.

قبل الواقعة بيومين، جاء عمّي الأصغر من أصفهان، كان وقتها شابًا في الثانية والعشرين من العمر، للوهلة الأولى تحسبه طيّبًا، يزور أهله لعدم قطع صلة الرحم، يُقبّل يد والدته وأخيه الأكبر، ويُقسِم أنه يعود إلى آبيانة كل فترة كي لا يقال إنه نَسِيَ أقاربه. ليته نَسِيَ أقاربه، لأنّ ذكرياته في القرية كانت جنسية فقط على ما يبدو.

في تلك الليلة المشؤومة، سافر والداي إلى أصفهان، المسافة نحو أربعين كيلومترًا، ليس سفرًا بعيدًا، ساعتان فقط للذهاب والإياب وشراء لوازم البيت واحتياجات أبي من سبائك الفضة، لكنها كانت كافية لتنفيذ كامران جريمته. كنت نائمة في حجرة والديّ نومًا متقطّعًا وقلقًا، سريرهما الكبير الرحب كان يهبني الأمان، أستمتع بدفع ساقَيّ العاريتين فوق المواضع الباردة في الملاءة، الأضواء كانت مطفأة في الحجرة ليلًا، لم أشعر به في البداية، لكنني استيقظت فجأة عندما شعرت بأنفاسه الساخنة على رقبتي، حاولت الإفلات منه، وسألته في خوف: «عمي كامران! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!».. الغريب أن عينيه كانتا تحملان تعبيرًا سخيفًا، أنا لستُ مذنبًا، أنا حقًّا أريد أن نكون سعيدَين، فقط جرّبي ولن تندمي.. قال بلين: «أنتِ أجمل فتاة في البلدة، بل أنتِ الأجمل في إيران».. جفلتُ وتحركتُ استعدادًا للنهوض لكنه أمسك بي من خصري ومدّ يديه كي يلمس فخذي.. لم تتقابل أعيننا مطلقًا، كان مركّزًا بصره على مناطق معينة في جسدي...

«يا للجمال!».. قالها في غنج وتحركَتْ يداه إيابًا وذهابًا على ساقَيّ العاريتين، وعندما استطعتُ النهوض أخيرًا، نهض معي وهو لا يزال يتلمّسني في مناطق يؤلمني جدًا أن أصفها حتى بعد مرور هذه السنوات الطويلة، حاولتُ الإفلات منه وصرختُ في رعب: «ابتعد عني يا عمّاه»...

انتقل إلى الخطوة التالية في سرعة دون تردد، وأشهر مطواته أمام وجهي وجذبني من ذراعي في عنف، واضعًا سلاحه الأبيض على رقبتي، ثم أجبرني على خلع ملابسي بالكامل، وانقضّ عليّ في وحشية كالحيوان...

هدأ عمّي كامران بعد أن أتى بمنيّه داخل أحشائي، هدأ تمامًا بعد فِعلته الحقيرة، وساد الصمتُ في الغرفة.

تقول أمي دائمًا إنّ للنهر أغنيًا وللّيل أذانًا، لكنّ النهر كان نائمًا يومها، وسمع الليلُ صراخي لكنه عجز عن الدفاع..

بعد دقائق أمسك المطواة مرة ثانية وأخذ يهدّدني بالقتل في حالة إخبار والدي بما حدث.

هناك صنفان من البشر يمارسان الأنانية بشكل غريب حقًا، أولهما الشخص الذي يخدعك عاطفيًا، تعيش معه أيامًا سعيدة، ثم تكتشف لاحقًا أنك كنت مخدوعًا، وقد تكون سعيد الحظ ولا تكتشف ذلك أبدًا. أما الثاني فهو يحاول السيطرة على عواطفك، وإن لم يستطع فهو يبدأ في ممارسة الانتهاك الجسدي بشكل مباشر. من وجهة نظري النوع الثاني هو الأقذر، والقرآن يثبت صحة كلامي، يقول عز وجل: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

نحن نعيش مع شياطين الإنس مرحلة اللذة الدنيوية، رغم كوننا نعلم نهايتها الكارثية، بينما الانتهاك الجسدي مرحلة تخطّت أساليب الشياطين. عمّي كامران يأتي بعد هذين الصنفين، فمغتصبُ محارمه يقع بالتأكيد في مرتبة الحضيض. المثل الشعبي يقول: الثعلب الجبان لا يأكل العنب اللذيذ (مثل فارسي). كان كامران ثعلبًا جبانًا فاقد الإحساس بالآخرين، لا يهمّه إن كان الطعام طيّبًا أو فاسدًا، المهمّ أن يُجهز عليه.

لماذا لم أملأ الدنيا ضجيجًا؟ لم أكُن أسيرةَ حربٍ اغتُصِبتْ وتحتاج إلى التكيُّف مع حياة القبيلة التي أسَرَتْها ثم ينتهي الأمر، كنت طفلة خائفة من المجهول، مراهقة هُدّدت بالقتل، كنت مرعوبة بالطبع، نضوجك العقلي في الأربعين يختلف كليًا عن أيام المراهقة.

تخيّل أن الضحية في هذه السنّ الصغيرة قد تشعر بعض الأحيان أنها مذنبة! كنت أسأل نفسي يوميًا: لماذا كانت ساقاي عاريتين وأنا نائمة؟! سمعتُ عن ظاهرة غير عقلانية تُسمى «متلازمة ستوكهولم»، وهي ظاهرة نفسية يتعاطف فيها المجنيّ عليه مع المجرم (سُمّيَت بذلك عندما وقعت حادثة سرقة بنك عام 1973 واحتُجِز الرهائن لمدة 6 أيام في مدينة ستوكهولم بالسويد ومِن ثَمّ بعد تلك المدة أصبح الرهائن متعلّقين عاطفيًا بالمجرمين، بل قاموا بالدفاع عنهم بعد انتهاء الأزمة). أعتقد أنني عانيت منها لسنوات طويلة، لم أحمّل كامران أيّ ذنب، خصوصًا بعد الواقعة مباشرة.

مرّ شهران وأنا حبيسة الغرفة، أبكي كل يوم بالساعات. صحيح أن المراهقات يبكين طَوال الوقت دون سبب، ويغلبن العاطفة على أي شيء، لكن المراهِقة التي تبكي وتلعن وجودها في الدنيا بعد اغتصاب عمّها لها هي مراهِقة تستحقّ منا كلّ احترام وإشادة بصمودها، هذه «سوبر مراهِقة»..

ظهرَتْ لديّ وقتها عادة غريبة، وهي الهرش في المنطقة الخثلية (ما بين السُرّة والعانة)، كنت أستمرّ في الهرش حتى تدمى، وأحيانًا أقرصها من فوق الملابس بسبب إحساسي بحكّة دون سبب ظاهر. إلى الآن ثلازمني عندما أتذكّر تلك الواقعة.

كان الجنين ينمو في أحشائي، فكّرتُ في ما تفكّر فيه كل امرأة تعرّضَت للاغتصاب من رجل سافل، الانتحار بالطبع، هواية المراهقين الأولى.. خِفتُ من أساليب الانتحار الأخرى، صراحة لن أقدر على قطع شراييني، أو التدلّي من سقف حجرتي ورأسي معلقة في حبل سميك، ولا يوجد في القرية كلها سلاح ناريّ من الأساس. قررتُ الوقوف فوق أحد الجبال وترك نفسي للسقوط مِن أعلى، قرأتُ ذات مرة أن هذا عقاب الشذوذ الجنسي في الإسلام. ما حدث كان شذوذًا بالفعل، قلت لنفسي هذا أفضل عقاب، السقوط إلى الهاوية ومِن ثَمّ الموت.

لم أشعر بشيء، فجأة وجدتني في البيت على سريري ووالداي من حولي، نظرت إليهما كأنني ذهبتُ إلى العالم الآخر بالفعل، كانت أمي تبكي وأبي ينظر إليّ في شفقة ممزوجة بالدهشة عن سبب فعلتي، يبدو أنني فشلت في الانتحار أو أن السقوط لم يكن مميتًا بسبب طبيعة التربة الترابية للجبال.

قال والدي: آن، حمدًا لله على سلامتك، نحن نحبّك يا ابنتي، هل كنتِ تحاولين الانتحار؟

لم أردّ عليه، ظوّال عقودٍ خامرني شعور بالغضب عجزتُ عن الإفصاح عنه، خصوصًا ناحية والدي، قد يكون بسبب أن المجرم منسوب إليه وليس إلى أمي. كان غضبًا ممزوجًا بالسخرية من أن كل أولئك الرجال الذين أطمأنوا إليهم هم مَن آذوني فعلًا وليس الصبيان الذين في سنّي، هؤلاء كانت أقصى رغباتهم الشرّيرة هي السير معي بجوار النهر أو احتفاظي بوردة من أحدهم في كتاب القراءة.

تركنا أبي بعد طلبي الانفراد بوالدتي، صارحتُها بما حدث، لم يستوعب عقلُها في البداية، أخذتْ تصرخ بشكل هيستيري، ثم هرولتْ إلى حانوت والدي، لم يستوعب عقلُه ما حدث هو الآخر.. كانت طعنة قاسية له، بل طعنة مزدوجة، مرة بسبب حمل ابنته سفاحًا، والأخرى بسبب شخص الجاني نفسه، الذي رعاه منذ كان رضيعًا.. بحث عن أخيه في القرية كلها بعينين زائغتين والزبَد يسيل من شِدقَيه، لم يجد له أثرًا بالطبع، سأل إخوته هاتفيًا عن كامران لكنهم أبلغوه بعدم رجوعه من آبيانة.

كان مقهورًا لا يقوى على البوح للخالة أو أحد من إخوته، لم يعرف حتى إن كان سيجرؤ على قتل شقيقه أم لا. عشنا عدة ليالٍ سوداء بعد محاولة انتحاري لم يظهر فيها عمّي كامران، كأنه تبخّر.. هنا طرحت أمّي فكرة الإجهاض.. رفض والدي الفكرة بشكل قاطع لدرجة أنه صرخ في وجه أمي قائلًا: حرام، إنها كبيرة من الكبائر لن أسمح بها.

قالت أمي بعقلانية: حتى لو كانت كبيرة، هناك دية صيام شهرين متتابعين.

يردّ: هُراء، هذه جريمة لن أشارك بها، لن أصلح خطأ بارتكاب خطأ آخر أفدح منه، ثم إنّ الحمل يحدث بالرضا، هكذا تعلّمنا.

قالت أمي في لوم: وهل هناك أفدح مما فعله أخوك؟!

بدا كلامُها قاسيًا على ملامح وجهه فأكملتْ مستعطِفة: الضرورات تبيح المحظورات يا عبد المهدي.

لكن والدي ظلّ ثابتًا على رأيه.

ليتك وافقتَ يا أبي وأرحت الجميع. الحمل السفاح بالرضا هو مسؤولية مشتركة بالفعل، الإنجاب عمومًا مسؤولية مشتركة، لكن ماذا عن المغتصَبة ومِن أحد المحارم أيضًا؟! سيولد طفل ابن حرام لكنه حرام من نوع آخر، حرام اقترفه الرجل وليس حرامًا مشتركًا (1).

بعد الحادثة كان والدي يتجنّب النظر في عيني ويكتفي بالمسح على رأسي مع التمتمة: «الله يحرسك»، يقولها بصوت أشبه بالبكاء.. بعد فترة، انحنى قليلًا في مشيته دون سبب طبيّ واضح، لعل ما أصاب جسده علامة على عدم تقبّل زوجه لما حدث، لربما جسده يعاقبه لرضوخه لما حدث. الهروب من شرّ يختلف كليًا عن الهروب من المواجهة بسبب الخوف من النتائج، ألسنا نمحو نصف جريمتنا بتقبّل الألم؟ هكذا قال ديستوفسكي.

قرر والدي رحيلنا عن آبيانة خوفًا من الفضيحة، أيّدتْه أمي فبدأ ترتيباته على الفور.. عرض الحانوت للبيع، أشاع خفل أمي، كان يتلقى الدعابات عن فحولته بابتسامة هزيلة ثم يلحقها بجملة ثابتة لا تتغير: «يجب أن أرحل إلى المدينة وأبحث عن عمل في أصفهان، الفضة لن تقدِر على مصاريف فرد جديد، سأرحل».

اعترض أصدقاؤه، وتعجّب الجيران مِن القرار المفاجئ، لكننا في النهاية رحلنا عن آبيانة بعد أسابيع قليلة من الحدث.. ليلتها أغلق والدي حانوت المشاغل الفضية لتسليمه إلى المالك الجديد، رأيته ينظر إلى خنجر معلّق على أحد الحوائط في أثناء غلقه نظرة طويلة جدًا، نحو خمس دقائق كاملة، لم تنقطع أفكاره بها، رأيت في عينيه أحلام اليقظة، يقتل أخاه، يطعنه عشرات المرات، يمثّل بجثته، رأيت في عينيه الدموع ولم أسأله يومًا إن كانت دموع القهر وقلة الحيلة أم دموع الشفقة على قتله لأخيه في أحلام اليقظة.

قرر والدي التحرك عند الفجر، تطوّع أحد الجيران بإيصالنا إلى أصفهان، لكنه بمجرد انصراف الجار حجز

ثلاثة مقاعد بالقطار المتجه إلى العاصمة طهران، قال إنّ طهران لن تجعلنا نصطدم بأي قريب أو بعيد إلا صدفة، سنقوم باستئجار شقة صغيرة هناك حتى الولادة، بعدها نقرر ما سيحدث..

صعدنا عربة القطار ثم ساد الصمت لفترة حتى بدأ في التحرك بطيئًا، تجزّه ضوضاء عجلاته، نظرتُ من الشباك في اتجاه الملوّحين لذويهم من فوق الرصيف، فوجدتُني أهرش خفلتي، وتذكرت طالع الخالة.. وداعًا جدّتي، وداعًا آبيانة، وداعًا بيت شجرة الصفصاف، وداعًا طفولتي وصباي، وداعًا أعياد الربيع وزهرتي الجميلة في المزهرية.

بعد هنيهة بدأ صوت أنين مكتوم يخترق جدار الصمت في حدّة، وبهدوء رتيب تحوّل إلى بكاء مرير جعلني ألتفت لأجد أمي غارقة في نوبة جديدة من البكاء، أما والدي فأخذ يردّد في المقعد المجاور لي دون توقّف: خرج الحسين من قريته هاربًا، قرية أبيه وجدّه المصطفى.. لبيك يا حسين.

***

وصل المهندس راغب النطاط إلى إيران في النصف الثاني من السبعينيات، لم تكن الثورة الإسلامية قد قامت بعد، لهذا يبدو كما لو كانت لديهم حياة سعيدة آنذاك. إنْ نظرتَ إلى مجموعة صور للحياة هناك في الستينيات والسبعينيات (لجأتُ للبرهان بالصور بسبب تبدّل حال إيران الآن) سيظهر ارتداء النساء الفساتين الراقية، الاهتمام بالقراءة والثقافة والفنون، ستكتشف حياة كانت رائعة ومليئة بالحريات.

نشأ راغب شابًا في حيّ الزمالك، له أربع أخوات، لهذا عاش معهن مدلّلًا يستمتع بوقته منذ طفولته حتى بداية شبابه. المهندس الشاب بدأ حياته العملية بعد دراسة الهندسة الميكانيكية من جامعة دارمشتات الألمانية، أقدم جامعات العالم في دراسة الهندسة، تخرّج عام 1974. كانت بدايته الحقيقية بعد التخرج مباشرة، بداية جديدة لمصر كلها بعد الحرب، وبداية لراغب أيضًا، بداية واعدة إن أردت الدقة، فوالده فهمي النطاط من أعمدة صناعة السيارات في مصر وفرنسا، كانت الصناعة القادمة بقوة في ذلك الوقت (صار لها شأنٌ كبير الآن لا يسمح الوقت بذكره). كان يمتلك نسبة مساهمة في شركة «رينو» بالإضافة إلى منصب المدير التنفيذي لها بمنطقة الشرق الأوسط.. كثير من طلاب هندسة السيارات يجدون صعوبة في الحصول على عمل في هذا المجال، أغلبهم يعمل في مصانع تصنيع المركبات الصغيرة في الخارج، فما بالك بأن يكون والدك له أسهم في تلك الصناعة؟!

سافر راغب وعمل في فرنسا مع والده، الذي هيأ له مستقبلًا واعدًا.. تطوّر الشاب سريعًا بالطبع، لا يوجد أفضل من توفير مناخ مناسب في العمل لشاب مليء بالأفكار لتنفجّر طاقته، وهل هناك مناخ أفضل لمهندس صغير السنّ من اجتماعه يوميًا بعمالقة صناعة السيارات في أوروبا؟ أتقن اللغة الفرنسية وصارت زاوية عقله منفرجة في العمل، تبتلع بداخلها كل شيء، لديه أفق واسع، رؤية متطوّرة، يأخذ خبرات من هذا ومن ذاك مما جعله شغوفًا بمهنته الأقرب للفن منها للهندسة.

لكن ومثل كل الزوايا المنفرجة، تكوّنت زاوية أخرى مكفلة لها، زاوية حادّة تبدأ بسيطة لا تزيد عن درجة أو درجتين ثم تنتهي باتساع ضخم بين ضلعيها، هكذا كان لباريس أثر سيّئ على الشاب المصري خلال عام واحد. كانت البداية بتناوله كأسًا من الفودكا وسهرة في المولان روج بصحبة فتاة باريسية، هذه ثنائية الانهيار الشهيرة، الخمر والنساء، لا تنسَ أننا نتحدث عن السبعينيات، العالم كله -بما فيه العرب- في حالة انهيار أخلاقي عجيب، انهيار ما بعد الحروب، فما بالك ببلد النور والحريات؟! في تلك البلاد إن لم تكن لك رفيقة تمارس معها الجنس وتشرب الخمر في شارع الشانزليزيه ليلًا فأنت كائن غير مرغوب فيه.

صار يفكّر في شهواته، حبّ النساء بداخله أقرب للهوس.. أعاده والده مرة أخرى إلى مصر كي يتزوج من القاهرة، بالفعل تزوّج راغب بفتاة جميلة وثرية، ابنة أحد تجّار الانفتاح الاقتصادي في العصر الذهبي لمصر، هكذا تزوّج المال بالمال والذي يبدأ بانبهار المحيطين بمظاهر الاحتفال المبالغ فيها، ثم ينتهي بخلافات حادّة

بسبب طبيعة الزوجين المتعالية، ذلك الدلع الذي يكون رافضًا لأي سلطة، حتى لو كانت سلطة سماوية تأمرك بطاعة الزوج واحترام الزوجة، في حالتنا هنا لا نتكلم عن عنف في التعامل، أو عدم السماح بزيارة أقارب الزوجة، أو حتى الشخ في مصاريف البيت، أغلب خلافات راغب مع زوجته كانت تندرج تحت بند التفاهة، العيش في أوروبا أم في مصر؟ الخروج يوميًا في سهرات المجتمع الراقي، رائحة فمه الكريهة بسبب الخمر، ناهيك بمعاكسة الخادمات بشكل مستمر، حتى انفضح الأمر مع خادمة «حماته»..

حاول والده إنقاذ الزيجة من الفشل، فطلب منه إحضار زوجته والاستقرار معها في فرنسا.. سافرا بالفعل ثم أنجب منها ولدين في خلال ثلاث سنوات فقط، كانت تحبّ الأطفال وهو يحبّ الحياة، انشغلت هي بالأطفال وقرر هو البحث عن متع الحياة الأخرى، وعدها بطفل ثالث وربما رابع كمكافأة على تعاملها المهذب معه، خصوصًا بعد الإنجاب.. لم يكن راغب شريرًا يومًا ما، هو فقط يحبّ المغامرة في كل شيء، العمل، النساء، السفر، الجنس... إلخ، يحبّ كل ما هو جديد ويكره الحياة الروتينية. وجد زوجة تحبّ الأطفال فمنحها ما تهوى كي تتركه في مغامراته، ونسي أن المرأة لا تنظر إلى رَجُلِها هكذا، إن كانت تحبّ الأطفال فلأن الأمل يداعبها دائمًا أن يكون هو طفلها الأول، لهذا بدأت الخلافات في العودة من جديد..

شعر الوالد بالقلق الشديد على ابنه، وبدأ في البحث عن حل جذريّ بعد فشل حلّ زواج راغب، خصوصًا بعدما صارحه الأخير بشأن رغبته في الزواج بباريسية كزوجة ثانية، فوقف له بالمرصاد وقرر إبعاده إلى بلاد محافظة ولها علاقات تخصّ سوق السيارات.. ما الحل؟

جاءه الحلّ سريعًا في صورة فاكس من شركة محلية إيرانية لتصنيع السيارات تدعى «إيران خودرو» (خودرو بالعربية تعني سيارة) للشركة الفرنسية من دولة تحمل عمقًا حضاريًا مخيفًا، وهُوِيّة إسلامية لا بأس بها، دولة لا يعرف عنها شيئًا وظنّ أنه سيقتحمها مثل أي مغامرة أخرى، إيران، بلاد فارس.. تأسست تلك الشركة عام 1966 وبدأت بتجميع سيارات «هلمان هنتر» بعد توقيع عقد مع مصنع «روتس» البريطاني، بعدها بدأت في مخاطبة دول مثل فرنسا وألمانيا، وذلك لعمل خطوط إنتاج مع مصنع السيارات العالمية المعتمدة مثل «مرسيدس»، «بيجو»، «رينو»، «سوزوكي».. اعترض راغب في البداية لكن فهمي النطاط لم يمنحه فرصة للاختيار، وهكذا سافر راغب إلى إيران وهو في السابعة والعشرين من عمره معتبرًا سفره -أو نفيه كما وصفه- فرصة جديدة لمغامرة على أرض جديدة.

عندما وصل إلى إيران بصحبة فريق «رينو» استقبلهم وفد من شركة «إيران خودرو» استقبالًا حميدًا للغاية.. شعر بأهميته -رغم صغر سنه- وحاجة الصناعة بزمّتها إليه، خصوصًا بعدما استطاع المصمم الإيطالي الشهير إيتال التجديد في شكل السيارات، وبحدوث أزمة النفط الأولى في أثناء حرب أكتوبر 1973 لم يتبقَّ سوى أزمة الطاقة.. كان راغب أصغر أعضاء فريق شركة «رينو» الفرنسية، والذي يعمل على تحسين استهلاك الوقود للسيارات وتجديد التصميم الخاص بالمحرك نفسه، تلك المشكلة التي ظهرت بعد حدوث أزمة النفط الأولى.. المثير أن تلك الأزمة كانت بسبب وطنه مصر، أما الأزمة الثانية فكانت بسبب إيران، بلد المرأة الأهمّ في حياته.. آن عبد المهدي سيف الملك.

***

أسير في طرقات شارع مصدق، أطول شوارع إيران (نسبة إلى رئيس الوزراء الإيراني الأسبق محمد مصدق قائد الثورة المدنية على الشاه، وبعد انتصار الثورة الإسلامية تغيّر الاسم إلى ولي عصر، وهو الاسم الأشهر له الآن)، أبحث عن شيء لا أدري كنهه. هذا عالم غريب لا أنتمي إليه، أتطلع إلى الأشجار الباسقة أمامي فأشعر أن الذات الإلهية تجسدت فيها، أناجيها علّها تطمئنني ثم أنسى ما كنت أناجيها لأجله بعد ثوانٍ. الرجال والنساء يسيرون في أبهى صورة، كانت هذه أفضل فترات إيران، فترة ما قبل الثورة الإسلامية، الانطلاق كان سمة مميزة لتلك الفترة، كانت هناك مسارح ومسابقات رياضية وفنون... إلخ، وعلى العكس كانت تلك الفترة هي الأسوأ في حياتي.

هناك طفلة صغيرة تبكي على يدي دون سبب كعادة الأطفال، فأربت على ظهرها برفق ثم بعد ذلك أنهرها بقوّة فيعلو بكاؤها أكثر. طلبتْ مني والدتي أن أخرج بصغيرتي إلى الشارع حتى يستفيد جسدها بالشمس، لكنني لم أفهم في البداية عمن تتحدث، كأنها طفلة وجدناها أمام جامع بعدما حملت إحداهن بها سفاحًا، لا أعرف عنها شيئًا ولا أريد، أعود بذاكرتي إلى الوراء للحظات فأدرك أنني مَن حملت بها سفاحًا مِن عمّي، وأنها بالفعل تخصّني بِصِلَة الرحم، هذا الرحم الذي كان نقمة عمري كله.

الشارع طويل للغاية، طويل لا ينتهي كأنه طريق الآلام (طريق الآلام هو الطريق الذي سلكه السيد المسيح من باب الأسباط إلى كنيسة القيامة عندما قام اليهود بتعذيبه وصلبه حسب المعتقد المسيحي). تُرى هل طفلتي هي صليبي؟ إن كان المسيح حمل صليبه طَوال الطريق ولم يتخلّ عنه أو عن أفكاره فكيف لي بصبر الأنبياء؟ كيف لي بحمل طفلة على يدي وبداخل زوجي طفلة ما زالت تتحسس المراهقة فوجدْتُ نفسها مطالبة بالتنزه مع ابنتها في أكثر شوارع طهران ازدحامًا؟!

تذكرتُ رحيلنا المبطن بالهروب عن آبيانة فجزًا، كان الطريق طويلًا إلى طهران، تلك المدينة الضخمة التي تستوعب مليونًا ويزيد، العاصمة التي يشتاق الجميع للعيش فيها وصلنا إليها كارهين. بحث والدي في الشوارع الفقيرة والأسواق عمّن يرشده إلى مكان للسكن، كان معه كثير من غفلة التومان بعد بيعه للحانوت وما به من مشغولات (الريال هو عملة إيران منذ 1932 وحتى الآن، لكنّ الإيرانيين يفضّلون استعمال تعبير "تومان" في تعاملاتهم التجارية حتى اليوم). وجدنا شقة صغيرة لا تتعدى مساحتها ثمانين مترًا في عمارة، بيت متواضع بأحد الشوارع الفرعية، على بُعد خمس عشرة دقيقة من شارع ولي عصر يسمى شارع مولوي (شارع متوسط المستوى يقع بجانب القنصلية السعودية وتغيّر اسمه في 2016 إلى شارع باقر النمر الإرهابي السعودي الشهير الذي أعدمته السلطات السعودية وأثار جدلًا واسعًا).

عندما دخلَتْ أمي البيت لأول مرة انفجرَتْ في البكاء، كانت تبكي أغلب الوقت لكنها بكت تلك المرة بشكل غير مسبوق، وأخذت تحكي عن آبيانة كأنها تحكي لغرباء وليس لأسرتها، أمّا والدي فكان الأكثر عملية طَوال الوقت، كان تأنيب ضميره المستمرّ حافزًا على محاولاته لإسعادنا طَوال الوقت، صحيح أنها كانت محاولات غير مجدية، لكن أسرة تبكي في شقة ويحيطهم أربعة جدران، أفضل ألف مرّة من أسرة تبكي على أرصفة الطريق بالتأكيد.

هكذا استمرّ في لعب هذا الدور حتى مماته، لم يستطع استئجار محل وشراء بضاعة كافية نظرًا للتكلفة الباهظة، فبدأ مباشرة في عرض خدماته على محلات المشغولات الفضية في سوق طهران الكبير لكنه لم يوفّق أيضًا، استقر به الحال في محل «كباب» بنفس السوق في بازار الكباب (الطبق الإيراني الشعبي الأشهر). كان يقف في انتظار المواصلات المحلية يوميًا حتى مكان السوق ويعود إلينا غارقًا في العرق ورائحة اللحم المشوي وبعض الوجبات أول كل شهر.

صمت طويل، مع رحم منتفخ، ووالدين كادحين. استمر الحال هكذا لشهور، والدتي كانت تسعى لإشاعة أننا غرباء طَوال الوقت، لم ألتحق بأي مدرسة بالطبع طَوال فترة الحمل، هيئة الحامل لا تليق بفتاة في السادسة عشرة من عمرها، خصوصًا في طهران، لم أكن أريد أسئلة تسبّبُ لي الإحراج.. أسئلة عديدة كانت تدور بأذهاننا عن المستقبل، لكن السؤال الأهمّ في ذلك الوقت كان: أين ستُجرى الولادة؟ المستشفيات الحكومية لا تصلح لمثلنا بالمرة، سيسألون عن الزوج أو وثيقة الزواج لمعرفة نسب المولود. بالطبع كان الحل الوحيد هو القابلة، «الداية» كما يطلقون عليها، وهي سيّدة تقوم بعمل طبيب النساء ولا تتطلب دراسة أو شهادة من جامعة أو معهد تمريض، ترث مهنتها من الأمّ والجدّة بالممارسة. وجدّتْ أمي بغيتها في نزهت خانوم، تعرّفْت عليها في السوق عندما كانت تبحث عمّن يساعدها في تنظيف شقّتنا.

قالت نزهت خانوم موجهة الحديث إليّ: كيف تزوجت في هذه السنّ الصغيرة يا ابنتي؟

قالت والدتي في سرعة وثبات: نحن غرباء، من ريف أصفهان، وجئنا للبحث عن زوج ابنتي.

قالتها ثم استحضرت كل المكر الإنساني وهي تكمل قائلة: تزوجها لعام واحد ثم هرب بسبب الفقر.

صاحت نزهت خانوم مستنكرة بصوت قوي رغم كِبَر سنها: هل هو أعمى؟! ابنتك من الحور العين يا خانوم! إن كان قد تركها وهرب في الدنيا كما تقولين فلن يقابل زميلاتها في الآخرة أبدًا.

ثم كررت في تعجب حقيقي: هل هو أعمى يا خانوم؟!

فتردد أمي في تأثر غريب رغم كذبها: بالفعل أعمى يا نزهت خانوم.

سئي في ذلك الوقت كانت مؤشرًا لاحتمالية حدوث مخاطر بالولادة، لكنها تمت بشكل طبيعي، عندما بدأت أعراض الولادة لم أشعر بأي ألم، في البداية شعرت أن دلؤا مملوءا بعشر جالونات من الماء قد أفرِغ، أو كأن هناك من وضع خرطوم مياه مفتوحًا على آخره بين فخذيّ، ثم هدوء، هدوء تام، الاستراحة الشهيرة التي تحدث خلال الولادة. وجدتُني أفكر في نوع الجنين، الولد أم البنت أفضل؟ تمنيته ذكرًا، لا أعلم إن كانت موروثات بداخلي من الأجداد، سمعت أن العرب كانوا يَئِدون المواليد الإناث، ربما كانت أرواحهم لا تزال عالقة في خلاياي حتى الآن، حبّ الذكور منتشر كذلك في قريتي، بل إيران كلها، لهذا كرهتُ الإناث، ستولد مخلوقًا ضعيفًا آخر، لن تدرك شرور العالم إلا بعد عدة صفعات، وربما تُسحَق من أوغاد مثل كامران ومِن ثَمّ الموت. ليتها تموت إن كانت أنثى.

بعد ذلك شعرت بألم في أثناء مرحلة «الحزق»، وكلما زاد الألم ازداد معه تبلُّدي، كنت أنظر إلى سقف الغرفة وأتخيّل عمي كامران ينظر إليّ في شفقة، فتزداد عروقي نبضًا ويغمرني العرق، أمسكت ملاءة السرير بقبضتي في قوة وغضب ثم بدأت في وصلة من السباب القَذِر لا أعلم إلى الآن من أين جئتُ به. أذكر ملامح وجه نزهت العجوز وهي مدهوشة من جرأتي أمام والدتي، كنت غائبة عن الوعي حرفيًا وكأنني في عالم آخر، لا يوجد سوانا، أنا وعمي، لمحتُ وجهي في المرآة بجانب السرير فوجدتُني أزداد جمالًا مع الغضب، ومع الجمال يزداد انفعالي، أنا أكره الجمال وأكره جمالي بصفة خاصة.. وسمعت صوت والدتي تقول: «الله أكبر!»، ثم بكاء الطفل الصغير، عرفتُ أنها أنثى فانفجرتُ في البكاء.

أعطت أمي مكافأة مُرضية لنزهت خانوم قبل أن تنصرف، الميزة هنا في المدينة أن نزهت خانوم لن تعرفنا إلا لو طلبناها مرة أخرى، لن تتطفل عليك عكس قرية مثل آبيانة.

سمّيتُها يلدا، يلدا عبد المهدي سيف الملك («يلدا» كلمة سريانية تعني «الولادة»، ويحتفل الإيرانيون ببداية الشتاء في يوم يسمّونه «شب يلدا»، وهو أقصر يوم وأطول ليلة في العام).

بعد أن تعافيتُ من الولادة أكّد عليّ والدي نفس التنبيه عشرات المرات: «يلدا هي أختك يا آن وليست ابنتك، هي ابنتنا نحن، هل تفهمين يا آن؟».

كنت أردّ بإشارة مِن رأسي لأسفل دليلًا على الفهم والموافقة، لم تكن الموافقة بالقول فقط، بل بالفعل أيضًا، إذ سافر أبي لإثبات يلدا باسمه في مكتب صحة آبيانة ثم عاد سريعًا. صراحة لا أعلم -حتى الآن- لماذا قام بذلك! أعتقد أنه دليل إثبات على صدقه، يلدا هي ابنته وليست حفيدته، الإثبات كان بسيطًا، قسيمة زواج، بطاقات شخصية، الرسوم المقررة، بجانب الإكرامية، ووجود الطفلة نفسها. بشكل قانوني صارت يلدا ذات كيان داخل إيران، بل العالم كله، صارت زوجًا مضافة إلى أهل الأرض جميعًا في ما عداي، والدتها الحقيقية.

عاد أبي من آبيانة ممتقع الوجه متوترًا للغاية، واكتشفنا أنه كان محقًا في تنبيهه المتكرر بخصوص الطفلة.. قالت له الخالة بطريقتها المضحكة: «سيزداد أحفادي واحدًا عما قريب، لكن ستظلّ آن أعزّ الأحفاد وأجملهم».

عرفنا أن هناك حفلًا قادمًا، حفل عرس راقص تتمنى حضوره أيّ مراهِقة ليُلهب أحلامها عن الزواج، لكنني لم أكن مراهِقة سعيدة تنتظر الزواج، وحفل العرس لم يكن كأيّ حفل.. كان زواج كامران.

***

أخبرَتِ الخالةُ والدي بكواليس الخِطبة، إذ بحثت كثيرًا مع الخاطبة عن عروس مناسبة لكامران بين بنات الجيران والأصدقاء لكنها لم تُفلِح، بعد ذلك رشح لها كامران ابنة أحد تجّار الخشب بالقرية، فهو رجل ذو سمعة طيبة وابنته كذلك، قال إنه ارتاح لها لحسن سلوكها وأدبها، وبالطبع لعدم قيام أحدهم باغتصابها من قبل، قالت الجدّة في خُبث: «أراهن يا عبد المهدي أن كامران يحبها منذ فترة طويلة، أنا أفهم تلك الأمور».

في قرارة نفسي أعلم أن هذا مدح لا يستحقّه عمّي كامران، هذا الحيوان لم ولن ينبض قلبه بالحب أبدًا، هذا الحيوان الشابّ لا يعرف شيئًا عن الحبّ، هو يريد زوجة تقبل بحالته المادية إن لم تساعد في تحسينها، ويكون فارسها الأول والأخير، هذا هو تفكيره، وأعتقد أنه تفكير كل من له أصول شرقية، الأمر ليس مرتبطًا بالدين، هي عادات نعيش عليها منذ أزمان بعيدة.

أكدت الخالة على والدي ضرورة وجودنا في العرس، عرض الأمر على والدتي فرفضت، اضطرّ إلى الاتصال بالخالة وتعلّل والدي بتدهور صحة أمّي بعد الولادة، لكن هيهات، لم يستطِع أبي الصمود طويلًا أمام تهديدات الخالة، فقد أقسمَتْ له بأغلظ الأيمان على عدم استقبالنا مجددًا. لم يكن هناك مفرّ من وجود أسرتنا بالكامل، ثلاثتنا والوافد الجديد يلدا، استعطف أبي زوجته وأقنعها بأن الذهاب إلى العرس سيجعل القرية بأكملها ترى الرضيعة بين يديها ومنسوبة إلى رحمها، وبعد نقاشات طويلة وافقَتْ والدتي على مضض وسافرنا..

كنت مليئة بأحلام اليقظة الانتقامية، رأيتني أبصق في وجه كامران وأفضحه أمام القرية مرة، ومرة أخرى ممسكة بآلة حادّة وأطعنه بها عشرات المرات، وتارة ثالثة أبلغ الخالة بأمر الاغتصاب... إلخ، الكثير والكثير من العبث دار في ذهني وقتها.

وصلنا إلى قريتي الجميلة فوجدناها تحتفل.. كأغلب الاحتفالات الإيرانية، تعود معظم تفاصيل حفلات الزفاف إلى العادات الزرادشتية القديمة، في آبيانة يحافظون على تلك العادات قدر المستطاع.. حمدتُ الله أن العريس والعروس لا يلعبان إلا دورًا محدودًا في ترتيبات حفل الزواج، فالحفل يكون للأهل والأقارب قبل أن يكون للعروسين.. وجدتُ الكثير من الصخب في بيت كامران، في البداية حضر والدي الأغد (كلمة فارسية تعني العقد، وهو كتب الكتاب عندنا). هناك غرفة للعروسين، وتوضع منضدة كبيرة عليها جميع النذور (مثل الشموع) حسب التقاليد ونطلق عليها سفرة أغد، الشموع تمثل النار وتعني عند الفارسيين المستقبل الساطع، وتوضع على جانبي المرآة، ويعنى ذلك أن حياة العروسين ستكون أبدية مليئة بالحبّ الذي لا ينطفئ.. بعد ذلك بدأ العروسان في توزيع الخبز علينا والمكسرات والبيض المزخرف، لم ينظر عمّي ناحيتي مطلقًا ولو لحظة، راقبتُ أبي وهو يحدّق نحوه غير مصدّق لفعلته، وضع السكّر المجفف أمام أبي وعاد إلى مقعده سريعًا فهنأه والدي بجملة واحدة: مبارك عليك يا كامران.

أمّا والدتي فتقوقعت داخل بيتنا القديم متعللة بالإرهاق من الولادة والسفر، نادت عليّ الخالة لتجهيز فراش الزوجية للعروسين (عادة في الريف الإيراني موجودة في أغلب البلاد العربية)، دخلتُ غرفة النوم خاصته وبدأت في فرش ملاءة السرير دون اكتراث، في ذلك الوقت سمعتُ صوت عمّي كامران من الخلف يقول بصوت ناعم: «أنا آسف يا آن، أحيانًا لا نعي ما نفعل ثم تقتلنا تلك الأفعال بعد ذلك».

جلستُ على ركبتي في وضع التشهد، ووضعتُ وجهي في الملاءة، ثم أجهشتُ بالبكاء.. شعرتُ لحظتها أن حياتي لن تنصلح بعد ذلك أبدًا، سمعته يقترب مني كي يهدئ من روعي فالتفتُّ إليه حتى لا يلمسني وقلت في صوت متهدج: أنت رجل قاسٍ يا كامران، شخص انعدمت صفة الرجولة بداخله فبات مسخًا يتجول بين الناس.

قلتها ثم انتابتني حالة من الضحك الهيستيري، وأكملت في ضحك ممزوج بالدموع: لا أعلم كيف ستتزوج بعد أن انعدمت صفة الرجولة بداخلك!

كاد الأمر يتحوّل إلى فضيحة بيني وبين كامران، لكننا سمعنا فجأة صراخًا عاليًا، جعل الجميع يتجه ناحية

مصدر الصوت، كان من أحد البيوت المجاورة، بيتنا القديم، كان صراخ والدتي، كنت معتادة عليه تلك الفترة فلا يمكن أن أتوه عنه. اتجه عمّي مسرعًا مع المعازيم وأنا من خلفه أسير ببطء كالموتى، لمحتُ والدي خارجًا من البيت وعيناه مُغرَوْرِقتان في الدموع، كان يبكي كما لم يبكِ مِن قَبل، فهمتُ ما حدث بعدما وجدته يجري ناحية عمّي الأوسط ويحتضنه.. لقد ماتت الخالة، ماتت بعدما شعرتْ أنّ رسالتها في الحياة قد انتهت وزوّجت كل أبنائها، ماتت الخالة وتركت رسالة للجميع أن الإخوة لا يفترقون أبدًا حتى وإن أخطأ أحدهم. وجدتُ كامران يحتضن والدي وبقية أعمامي.. في دقائق انفضّ حفل الأغد واتجه الرجال المقربون لتجهيز مراسم الدفن والمأتم.

ماتت الخالة وعاقبتْ عمّي كامران -دون أن تدري- بعدم اكتمال فرحته، تمنيتُ أن أفضفض لها بما حدث وتقبيلها للمرة الأخيرة.

***

طهران مِن جديد، عدتُ للسير في شارع ولي عصر، أراه يحتضن القصور والمتاحف من حولي في صورة جميلة من الحضارة والحنين إلى الطبيعة، ويشبهني في رفضه تلك الألوان الفجّة التي تشعّ من كل ركن في المحالّ التجارية، والأضواء التي لا تهدأ حتى نهارًا.

ذات مرة، دخلت إلى البارك ملت (حديقة الشعب) وجلست على أحد المقاعد تاركة يلدا أمامي فوق الحشائش، فكرت للحظات في تركها بعد أن يقلّ عدد زوّار الحديقة ثم أنصرف من المكان كأنني لا أعرفها، لكنني خفت، كان هناك رابط خفيّ يربطني بهذه الطفلة، أكرهها حرفيًا لكنني لا أقوى على الغدر بها، أستمرّ في مداعبتها رغم أنها لا تنظر إليّ مِن الأساس.

أمسكتْ يلدا بكلتا يديّ وحملتها من الأرض لبدء رحلة العودة إلى البيت، شعرتُ أن قلبي يُعتصَر عندما تذكّرتُ وفاة الخالة، ضممتُ يلدا ناحيتي أكثر إلى صدري لكن هذه المرة لم تبكِ، قلت لها بصوت خفيض: أعرف أنك تعرفين كل شيء، أنتِ الشاهد الوحيد على ما حدث أيتها الجميلة.

في طريق العودة، رأيت فتيات من نفس عمري يحملن كُتبًا، كُنّ مشرقات، يحلُمن بمستقبل قويّ، راودتني فكرة استكمال التعليم، كنت في السابعة عشرة من عمري ولم ألتحق بمدرسة بعد مرحلة التوجيهية (التوجيهية في إيران تعادل الإعدادية لدينا، وهي ضمن التعليم الإلزامي)، قررت الالتحاق بالديبرستان (التعليم الثانوي) حتى ولو من المنزل، اقترحتُ على أمّي وأبي الفكرة فوافقا، كانت موافقتهما من ضمن فوائد تأنيب الضمير، إن لم يحدث ما حدث وما زلنا نعيش في آبيانة فلن يكون هناك مجال من الأصل لهذا الطلب. غذتْ للدراسة بإحدى المدارس القريبة بجدّ هذه الفترة، لم أكُن تلميذة نابغة من قبلُ ولكنني قررتُ النجاح رغم كل شيء، مَن قال إنّ النبوغ والعبقرية موهبة فقط؟ الجزء الأكبر من النجاح هو العرق في العمل.

في تلك الآونة بدأ بعض الجيران وأصدقاء والدي في العمل يسألون عن نيتي في الزواج بعد طلاقي من زوجي الوهمي، كنت رافضة حتى الحديث عن تلك الفكرة، كان والدي يحاول إسعادي بتلك الأخبار..

- فتاتي الجميلة المليئة بالطاقة أصبحت شابّة يرغب بها العرسان.

كنت أبتسم له، ويتحجّج هو برفضي، كان يعلم أنني لا أصلح للزواج وسيُكشَف أمري ويُعرَف نسَب الطفلة بسهولة، كان يصمت بعد مرحه المفتعل، وأصمت أنا بعد سكوت عاتب.

بعد عامين من الدراسة الثانوية، قامت الثورة الإسلامية بقيادة آية الله الخميني وانتهى حكم الشاه عام 1979، ومعها اكتشفنا شيئًا عقّد حياتنا أكثر، أنّ يلدا تعاني من مرض التوحّد. لم يُشخَّص وقتها بالتوحّد نظرًا لعدم استخدام هذا المصطلح في ذلك الوقت، لكن الحالة كانت معروفة للأطباء الذين عُرضت عليهم، كانت غاضبة أغلب الوقت، ترفض النظر إليّ أو حتى الكلام مع جدّتها.. المسكينة لم تكن تتجاهلني عن عمد، كانت مريضة وتحتاج إلى علاج، تحتاج إلى سلوكٍ أمٍّ مُحِبّة لطفلتها، وليس إلى مراهِقة كارهة لحياتها.. افترضنا

في البداية وجود مشكلة في السمع لديها، ثم بدأت بالقيام بحركات متكررة من الدوران في نفس المكان، بعد شهور بدأت تكرر الكلمات التي تسمعها في البيت دون توقف، ثم فجأة لا تبدي اهتمامًا بأي شيء حولها دون سبب واضح، لو أن طائرة من الحرس الثوري حلّقت فوق رأسها لما التفتت إليها بأيّ شكل.

كانت ضربة قاصمة للأسرة، لم يذهب والدي إلى العمل وحبس نفسه داخل غرفته لمدة أسبوع كامل يتساءل: كيف لنا بمواجهة كارثة مثل هذه؟ أمي كانت أكثرنا قدرة على التعامل مع يلدا ومحاولة خلق نظام ثابت لمعيشتها، أما أنا فصببت جلّ اهتمامي على نفسي لكن دون جدوى، ابتعدتُ عن طريق يلدا قدر الإمكان، فصارت تخشى الاقتراب مني، حفظتُ الكثير من شوارع طهران، لكنها ظلت المدينة التي تذكّرني بقسوة الحياة ولا توجد لديّ ذكرى جميلة معها منذ وطِئتها قدماي، حتى بعدما التحقتُ بالجامعة، لم أفرح بهذا الفتح العظيم مثلما تفرح به أي فتاة ريفية حمقاء.

شعرتُ بيأس لا أقوى عليه، وغضب شديد يصطدم كل ساعة بصخرة حياتي محاولًا تفتيتها، لكنها في النهاية كانت صخرة لا فائدة منها.

التحقتُ بجامعة فرح ديبا (تغيّر الاسم إلى جامعة الزهراء بعد الثورة الإسلامية)، كلية الآداب واللغات تحديدًا. الأدب والمعرفة هما ما كان يجعل الوقت يمرّ بالنسبة إليّ، أعترف أن الجامعة عالجت جانبًا مهمًا في شخصيتي كنت قد نسيته، الجانب الاجتماعي، استطعت تكوين صداقات لا بأس بها، وتفوُّقي الدراسي جعلني محطّ اهتمام من الطالبات، لكن لم تستطِع إحداهن التغلغل في حياتي الخاصة.

تخصصتُ في اللغة الإنجليزية، اللغة الأشهر في العالم، كما ساعدتني اللغة على القراءة بشكل أوسع، صِرتُ أعرف الكثير والكثير عن العالم والأدب، صار لي رأي وأفكار وإرادة، صحيح أن الأمل الذي تنتظره جميع الطالبات معدوم عندي لكنني كنت مستمتعة.. كان بداخلي صراع غريب بين ما يحدث من حولي وبين ما أقرأ، أرى المظاهرات والاعتصامات ثم أستمع في اهتمام إلى المحاضرات عن كتب تولستوي وتشيكوف وجلال الدين الرومي، تلك الكتب الموجودة قبل ولادتنا والتي ستبقى دهرًا طويلًا بعد رحيلنا عن هذه الدنيا.. عِشتُ داخل الروايات وقرأت عن معنى الديمقراطية والأخلاق والمسؤولية و.. الحب، الحب الذي لم أعرفه حتى الآن، وصلتُ إلى الأربعين ولم أقابل الحبّ الحقيقي، قد أكون قابلته بالفعل لكنني لم أعرف حتى أنه هو، قرأت أن الحب مرتبط بأمور كثيرة جدًا تساعد على وجوده واستمراره وخلوده، إذا غاب عنصر من تلك البينة لا يستمرّ أبدًا أو يطويه النسيان.

أعجبتْ برواية «أنا كارنينا» و«مدام بوفاري»، قد يكون بسبب البطولة النسائية لهما، فرغم نهايتهما الحزينة فإنني كنت سعيدة بمشاركتهما أحزاني حتى لو في الخيال، أليس الخيال هو صورة مهزوزة من الواقع؟ كنت أدخل قاعة البحث (المحاضرة) فأجد أستاذتنا الجامعية تتكلم عن الروايات والأحلام، بل إنها تجرأت وناقشت معنا ذات مرة مفهوم الحبّ في إحدى الروايات، تكلمت الأستاذة عن النساء اللواتي يتزوجن دون حب وأنهن أسوأ من الزانيات، قالت أيضًا: هناك أنواع مختلفة من الكذب، قد تجدن امرأة قوية الأخلاق، لا تحلم أبدًا بارتكاب الزنا، ومع ذلك تخدع زوجها عاطفيًا فقط وليس جنسيًا مع زميل دراستها القديم في خيالها، هذه المرأة أيتها الطالبات تتألم من فكرة غياب الحب (الأستاذة الجامعية هي آذر نفيسي، شخصية حقيقية كانت موجودة في هيئة التدريس بجامعة الزهراء للبنات وقتها ولها مؤلفات عدة).. الجميع يتألم إذًا، الاغتصاب ليس السبب الوحيد لضياع حياتك، قد تضيع أيضًا بسبب غياب الحب عنها.

***

قالت الجهيزة في وَذ: ما أخبار قطتي الصغيرة؟ لماذا لم تأكلي قطع الدجاج الشهية؟

أجابت القطة الشيرازي الجميلة ذات الأعوام الخمسة والعشرين بعد صمت طويل: النمرة عانت كثيرًا، أعتقد أنها ما زالت تعاني مع الغرباء حتى الآن.

***

أشعر أنني عاجزة عن وصف التغيرات الجذرية التي طرأت على نسيج حياتنا هنا في طهران بعد الثورة، رغم قلّة عدد السنوات التي عشتها في طهران وقت حكم الشاه فإنني ما زلت أذكر جمالها جيدًا، الشوارع التي كنت أقطعها في مراهقتي في نهاية السبعينيات، صرت أشعر أنني غريبة تمامًا عنها، لم يغد الوطن وطنًا، تغيرت حياتنا حرفيًا، ليس بسبب الحرب، بل بسبب شتى أنواع العنف، معظمه عنف غير معنويّ، لكنه كان يلتهم حياتنا اليومية كالدود مع الجثث.

كان من المفترض أن تجلب لنا الثورة مزيدًا من الحرّية لكنها جلبت لنا الخوف من اكتشاف أنفسنا ومن العقاب، صارت الدولة تسمح لحزب واحد فقط بإبداء الآراء وهو حزب الله، فتغيّرت أسماء الشوارع وبدت اللغة غير مألوفة، وهاجم أعضاء لجنة الأمان المحلية المتظاهرين في الأزقة الضيّقة حاملين السكاكين لترويعهم كل يوم... بات الوطن ليس إيران وإنما الجمهورية الإسلامية في إيران، وأصبحت حدود الإسلام ممتدة من إيران لتصل إلى العالم الواسع، هكذا صار حزب الله هو المتحكم في كل شيء، وعندما تنتسب إليه يصير معك مفاتيح الوصول إلى أي شيء.. إلا الله.

لم أحبّ الشاه ولم أكرهه في نفس الوقت، لكنني كرهت الثورة الإسلامية بالطبع، هذا الذي يحدث في البلاد الآن لا يمتّ إلى الإسلام بأيّ صلة، صرنا مسخًا يمسح هُويّته بشكل جنونيّ، الثورة الإسلامية لا معنى لها، تشبه الرهبنة عند إخواننا المسيحيين، الهروب إلى الدير من كل ما هو موجود حولك، من الحياة، من كل شيء، ثم تعيش من أجل الصلاة، هذا جميل لكنك قمت بثورة على نفسك لتحرمها من كل شيء دون أن يطلب أحد منك ذلك، يكفي أن تظهر أخلاقك في التعامل مع مَن حولك وليس هذا التوتر لإعلان أنك متديّن. الغريب أن فكرة الرهبنة بدأت في الأساس هروبًا من الاضطهاد الديني ثم صارت مع الزمن رمزًا لقلّة الحيلة.

هكذا أعلنتُ أنني أريد العمل، أريد التأثير في مَن حولي بأي طريقة، أريد نقل خبرتي وتجربتي لأي شخص قد يستفيد بها يومًا ما. للأسف لم أعيّن داخل قسم التدريس، صراحة كان من أحلام حياتي القليلة، التدريس بجوار الأستاذة العظيمة آذر نفيسي، لكن سرعان ما تبخّر ذاك الحلم، هي طُردَتْ من الجامعة ومعها اثنتان من زميلاتها بسبب رفضهن ارتداء الحجاب الإلزامي، وأنا بدأت في تقديم أوراقي لأكثر من مدرسة دون انتظار خطاب التعيين من حكومة لا تعترف بالأنثى من الأساس.. كانت تراودني فكرة العودة إلى الوطن الحقيقي، إلى قريتي، آبيانة، إلى تلك الجبال، والسماء الليلية التي نِفثُ تحتها طيلة سنين طفولتي، إلى روائح السمك، القهوة، وحانوت أبي، حتى الحيوانات المرباة في البيوت.. طهران ليست وطني، ما من شيء يقتل الإنسان إلا آماله المحطمة، وآمالي كانت محطمة على المستوى الشخصي، والبلاد آمالها محطمة على المستوى السياسي.

بعد التخرج، استثمرتُ وقتي في القراءة وتحسين لغتي الإنجليزية، بل حاولت إضافة لغة أخرى، فكرت في العربية -لغة أجدادي- لكنني وجدت قواعدها كثيرة للغاية مثل البحر لا تنتهي، فاخترتُ الفرنسية.

ذات مرة قرأت في مجلة «أوميد إيران» (مجلة إيرانية ذائعة الصيت في الستينيات والسبعينيات) عن احتياج بعض الأسر إلى معلّمة خاصّة، كنت رافضة لتلك الطريقة حتى جاءني عرض من مهندس سيارات ثري يدعى شاهين، الغريب أنّ أبي هو مَن أتى لي بهذه الوظيفة، إذ كان المهندس شاهين في جولة بسوق بازار طهران، وقابل هناك صديقه مالك المحلّ الذي يعمل به أبي، بعدها تعرف إلى والدي، ثم بعد عدة زيارات سأل عن مدرّسة لغة إنجليزية، فرشحني له، فاتفق مع والدي على أن أذهب مرتين أسبوعيًا لتدريس اللغة الإنجليزية لابنته ملك، كانت وقتها طالبة في الصف الثالث الابتدائي.

اعتبرتها فرصة لتنفيس ما بداخلي من أمور سلبية، وخطوة جادة ناحية العمل.. في البداية كنت متخوفة من دخول تلك الفيلا الضخمة والسلوك الاجتماعي لأصحابها، ثم اكتشفت أنهم من الجيل الذي لم يتأثر بأفكار الثورة الإسلامية وما زال عبق العهد السابق يفوح منهم، سيدة البيت كانت في العقد الرابع من العمر، لها طلّة رائعة ووجه مريح، زوجته من عائلة كبيرة، تحاول زرع الأفكار البرجوازية في عقل أبنائها، لهذا بدأت في

إعطاء ابنتهما الصغرى ملك دروسا في الموسيقى واللغات الأجنبية، وبدأتِ البحث عن مدرّسة لتدريس اللغة الإنجليزية لكن زوجها شاهين وجد عندي ضالّته.. أما الزوج فلم أرَهُ سوى مرات معدودة بعد الاتفاق.

بعد أسبوع بدأتُ أولى الحصص المنزلية، أصدقكم القول إنني تمنّيت مِن قلبي أن تكون ملك ابنتي، قد تكون يلدا أكثر جمالًا وذكاءً منها لكنني لا أستطيع الاقتراب منها أو التحدث إليها، الأمومة غريزة، لا تعتمد على الحبّ في المقام الأول، بمجرد تحرّك الجنين داخلها تنفجر العاطفة على الفور، كذلك هي ليست مرتبطة بفرح الأمّ بالمولود من عدمها، أيّ أمّ تظهر بداخلها تلك العاطفة حتى لو أن الابن مشوّه أو مريض أو معاق، لا يهمّ، قد تحزن على حاله لكن أمومتها لا تختفي أبدًا.

الأمومة غريزة موجودة بالطبع بداخلي مثل أي أنثى، لكنها غريزة مشوّهة، بل لم تظهر عليّ علامات الأمومة قطّ، ليس بسبب مرض يلدا بالتوحّد، على العكس كان هذا رابطًا إنسانيًا بيننا، إنما بسبب تشوّه المصدر، إذا تزوجتِ الأنثى رجلًا لا تحبه أو حتى تكرهه فلن تتغير عاطفتها نحو وليدها مهما أنكرت ذلك، فما بالك هنا بالزنا أو طفل سفاح من اغتصاب محارم؟! طفلتي هي ابنة عمّي، الأمر يشبه مقابلة كائن فضائي مريض، أنت لن تهاجمه، وإن كان في يديك مساعدته ستفعل ذلك، لكنك لن تفكّر في تبنّيه أبدًا، هذا المخلوق مصدره ينافي فطرتك وما جُبِلْتَ عليه، هكذا كنت أرى يلدا. والغريب أنها تنظر إلينا بنفس الطريقة، نحن نراها شخصًا غريبًا عنا، وهي ترانا كائنات فضائية أو حيوانات قادمة من الغابة، لا نستطيع التواصل معها.. التوحّد مرض نفسي قاسٍ لكنه شاقٌّ جدًا ومرهق للمحيطين بصاحبه.

أوقات عصيبة كثيرة عشتها مع البنت الصغيرة، عندما كانت تتحرك مثل بندول الساعة أمامي مُصدِرة صوتًا يشبه صوت حركة العقارب، وقتها كنت أشعر أنني أريد ضربها. ذات مرة كنت نائمة في حجرتي، لا أسمح لأحد بالبيت عادة بمشاركتي الفراش، حتى ابنتي، في الثانية بعد منتصف الليل تقريبًا، شعرت بمن يتسلل أسفل الغطاء في هدوء ويحاول احتضاني في حنان، وقتها لم أشعر بنفسي، قمت كالملسوعة، وبدأت في الصراخ دون أن أنظر خلفي، حتى بدأت في تمييز صراخ آخر معي في الغرفة، كانت يلدا، كانت تصرخ هي الأخرى وتحاول الاختباء تحت السرير دون فهم.

تمنيت السفر بعيدًا بعيدًا، الحياة كانت بالنسبة إليّ إما صراخًا وإما مللًا أغلب الوقت، لا يوجد ما يفرحني أو يحرك رتابتها، خصوصًا بعد تخرجي الجامعي، لن أتزوج بالطبع، الأمر كان يحتاج إلى معجزة أو عريس «تفصيل» لظروفي.. كان الوقت يمرّ مع والديّ أشبه بأيام العزاء، ترغب في الخروج سريعًا من هذا الجوّ المقبض لكنك تستمرّ مكملًا الواجب الذي بدأته.

بعد أربعة أشهر تقريبًا، وجدت المهندس شاهين يطلب مقابلتي على انفراد، تصوّرت أنه يريد إنهاء التعاقد معي وكنت مستعدّة لذلك، لكنه قابلني بوجه مليء بالامتنان وشكرني على معاملتي الحسنة لملك، ثم سألني بعض الأسئلة عن حياتي الشخصية حتى فاجأني بسؤال صريح: هل تريدين الزواج يا آنسة آن؟

قلت في انزعاج: زواج؟! لا لا.

سألني في دهشة: لماذا؟! هل هناك غلاقة أو مشاعر ناحية أحد ما؟

- لا يا سيد شاهين، الأمر معقد كثيرًا.

- هذه الزيجة مختلفة نوعًا ما، سأكون صريحًا معك يا آن، الرجل الذي يريد الزواج بك يرغب في الحديث معك لعشر دقائق فقط، هل هذا ممكن؟

رفضتُ بالطبع وشكرتُه على اهتمامه ثم انصرفت.

***

كانت سنوات راغب النطاط الأولى في إيران هي المعاناة الأكبر له في حياته، لهذا صار الجحيم بالنسبة إليه

أرحم حالًا من تلك السُفرة. الشاب ذو الأعوام الأربعة والثلاثين -وقتها- والذي عاش حياته بالطول والعرض، وجد نفسه -بعد الثورة- في أحضان بلاد لا تعرف حياة الترف، وخصوصًا للأجانب. لم ينعم بحكم الشاه الهادئ نوعًا ما إلا شهورًا قليلة، ومن بعدها حكم البلاد جماعة لها أغراض توسعية وأفكار يرغبون في نشرها بالقوة، ثم أخيرًا قامت الحرب بين إيران والعراق.

ازدادت حياته هناك صعوبة بسبب موقف إيران من بلاده العزيزة مصر، حدّث ولا حرج، سادت حالة من الكره الشديد والتشفي في موت الرئيس أنور السادات، لدرجة تسميتهم شارعًا باسم قاتله -خالد إسلامبولي- بل وتلقيبه بالشهيد نكاية في السياسة المصرية.

على المستوى الشخصي فإنّ شخصية راغب المرحة وحبّه الشديد للجنس الناعم تحطّمت على صخرة أفكار آية الله الخميني المتشددة، مثل إجبار الأطفال في المدارس على ارتداء الحجاب.. ورغم إقامة راغب بأحد الفنادق الكبرى هناك، فإن الحياة كانت أشبه بسجن كبير، الأيام يشبه بعضها بعضًا، العلاقات فاترة، الإمكانيات ضعيفة مقارنة بعمله في فرنسا، صحيح أن هذا منحه فرصة للتميز في إيران، فاستطاع بسهولة تحقيق نجاحات وقفزات ضخمة لسوق العمل هناك، لكن ذلك لم يُرضِه قَطّ. كان من المحظوظين الذين لم يُطرَدُوا من الأجانب بسبب احتياج شركة «إيران خودرو» له، لم يعلم إن كان هذا حظًا سعيدًا أم شقاء. حاول التواصل مع والده عدة مرات لكن الأخير كان يتهرّب منه، رفض العودة إلى إيران في إحدى الإجازات السنوية، فهددته الشركة بالطرد بتوصية من فهمي النطاط أيضًا، فلم يجد أمامه حلًا سوى طرد تلك الأفكار الخاصّة بالنساء من عقله، جاهد كثيرًا، كان ينجح بالفعل لأيام قليلة، لكن سرعان ما تنتابه حالة من الجنون الشهواني، وتخيّل لقاءات حارّة وجامحة ما إنْ يلمح جزءًا بسيطًا من جسم شابة إيرانية.

سمع ذات مرة من زميله شاهين عن نوع من الزواج يسمّونه زواج المتعة، وهو زواج مؤقت يشرعه المذهب الشيعي والنظام الحالي في إيران، وفيه يحدّد الزوجان وقت الزواج وبمجرد انتهائه يقع الطلاق، وجد أن هناك العديد من المروجين لهذا النوع من الزواج من باب مواجهة المشكلات الجنسية، لم يهتم بالطبع بخرمته عند السنّة بسبب ابتعاده كل البعد عن الزواج الطبيعي الذي يهدف إلى الاستقرار الاجتماعي للطرفين، كان قد وجد بغيته في هذه الفتوى التي في ظاهرها زواج وباطنها زنا، اختمرت الفكرة في ذهنه، بدأ في الاستعداد لها نفسيًا في أي وقت، بل وتصبير نفسه لحين حدوثها.

شاهين مهندس في أحد المصانع التي يشرف عليها راغب، نشأت صداقة بينهما نظرًا لتقارب الأفكار وكذا المستوى المادي، وجد في شاهين صديقًا يخفف عنه وحشة الغربة وتوتر الأوضاع بسبب الحرب، جمعهما إتقان اللغة الإنجليزية وبعض من الكلمات العربية والفارسية وحب الهندسة و... والإعجاب بآن، الاثنان كانا متزوجين، أما شاهين فهناك رقيب يقف فوق رأسه طَوال الوقت، والآخر طائر هائج يبحث عن الفريسة، تاركًا شريكته في أرض المحروسة تلهو بنادي الصيد..

في إحدى زيارات راغب لزميله شاهين، شاهد آن للمرة الأولى من بعيد، فجأة تحرك طوفان من هرمون التستوستيرون المصري ناحية بشرتها الصافية، سحَرَهُ جمالُها بالطبع، بدأ الإكثار من زياراته كي تسنح له فرصة للحديث معها.

حدث المراد، وتقابل راغب مع حورية بلاد فارس عند مدخل الفيلا وجهًا لوجه..

- كيف الحال؟

- بخير.

- هل أنتِ معلّمة اللغة الإنجليزية؟

- نعم.

قالتها ثم تركته واقفًا في انبهار.

صوتها كان خفيضًا ينتظر سحقه في أي وقت، نظر إلى يدها في سرعة فعرف حالتها الاجتماعية، فتاة تحاول كسب بعض الريالات عن طريق التدريس، هكذا خمن، عرف أنها في سن الخامسة والعشرين وغير متزوجة، بدا من هيئتها البساطة مع الذوق في الاختيار، والدها يعمل في أحد محلات الكباب ووالدتها ربة منزل، كانت نموذجًا واضحًا للبروليتاريا (الطبقة العاملة الكادحة).. طلب من صديقه عرض فكرة الزواج عليها لكنها صدّته، لم ييأس وطلب من زوجة شاهين إعادة العرض كمحاولة أخيرة، وافقت لكنها كررت سؤال زوجها قائلة: هل لديكِ ميل عاطفي نحو شاب ما هذه الأيام؟

تعجّبتْ آن من السؤال لكنها أجابت في خجل: لا يا سيدتي، لدى ظروف خاصة تجعلني لا أفكر في هذه الأمور، وقلت هذا من قبل للسيد شاهين.

قالت جملتها الأخيرة في نفاد صبر وعدم رغبة في إكمال النقاش، فقالت السيدة: هناك من يرغب في الزواج بك يا آن، مهما كانت ظروفك...

ثم دفعت بجملة «سيدفع الكثير» في آخر الكلام، فقامت آن من مجلسها غاضبة واستأذنت السيدة في الانصراف، حاولت السيدة الاعتذار لكن دون جدوى.

كانت جالسة في أحد الأركان المفتوحة في بهو الفيلا، لمحها راغب تهمّ بالخروج، فتوجّه ناحيتها على الفور، وقف أمامها مبتسمًا قائلًا بالفارسية: «شب خير» (مساء الخير)، ثم أكمل بالإنجليزية لعدم وجود حصيلة كلمات تسعفه: هل من الممكن الحديث معك لخمس دقائق؟

عادت أدراجها مرة أخرى، ولحق بها راغب حتى جلس على مقعد مواجه لها مباشرة، تنحنح قليلًا باحثًا عن صوت نظرًا لحساسية الموقف حتى بدأ بالكلام قائلًا: أريد الزواج بك، أنا مصريّ مقيم في إيران، لا أعلم متى أعود إلى بلادي لكنني في نفس الوقت معجب بك.

- سيد ...

- راغب، اسمي راغب النطاط.

- سيد راغب (قالتها في بطء، محاولة نطقها باللغة العربية مثله).. أنا لا أريد الزواج بسبب ظروف خاصة.

- أتفهم أيّ ظروف مهما كانت.

- سيد راغب، أنت لا تعلم شيئًا عن حياتي ولا...

قاطعها في سرعة: آنسة آن، كل ما أريد منك معرفته أنك ستحصلين على حياة كريمة ورائعة لكنها ليست دائمة، لن أحدّد المدة معك إن كان هذا يغضبك، لكنني في نفس الوقت لا أعلم إلى متى سيستمرّ بقائي هنا، هل توافقين على هذا الوضع؟

- أريد وقتًا للتفكير.

- الوقت كله لكِ.

قامت بحركة خفيفة دليلًا على الرغبة في الخروج، فقام من مجلسه وشكرها على الاستماع إلى طلبه والتفكير به.

هذا الرجل خبير في معاملة المرأة مهما كانت جنسيتها، الرجل القادر على مداعبة مشاعر المرأة المصرية لهو قادر على مداعبة مشاعر نساء الإسكيمو والغابات الإفريقية. خرجت آن من الفيلا فأشار لشاهين وزوجته إشارة بمعنى أنها ستوافق، ثم توجّه ثلاثتهم إلى غرفة الطعام.

كان راغب مثارًا لأقصى درجة، حتى إنه نسي الطعام وأخذ في مداعبة ملك بحركات مضحكة. الزوجة كانت سعيدة بهذه الزيجة خوفًا على زوجها من الفتنة، أما شاهين فكان سعيدًا بها لأنها ستمنع صديقه من الانزلاق تدريجيًا نحو خطيئة الزنا، ويرى أن الفتاة تستحق السنوات التي ستعيشها مع راغب حتى وإن كانت قليلة.

***

تزوجتُ من المصري راغب النطاط، لا أعلم إن كانت الجملة السابقة صحيحة أم لا، أعتقد أن الصحيح هو زواج «مع إيقاف التنفيذ». المصريون ليسوا غريبي الشكل عن فارس، العِرق القوقازي يسيطر على الثعبان بشكل كبير، لم أتخيل يومًا أن أرتبط رسميًا أو حتى عاطفيًا بجنس آخر غير أهل وطني، لكنه حدث. تحمّس والداي جدًا لهذا العرض، استمرا في إقناعي عدة ليالٍ بالساعات حتى وافقتُ تحت ضغط.

- المهم أن تتزوجي يا آن ويصبح لك رجل تفتخرين به ولو وقت بسيط.

في البداية اقترح راغب أن يكون زواج صيغة (لفظة عربية تطلق على زواج المتعة في إيران مشتقة من قراءة "صيغة" عقد زواج عند الشيعة، إذ إنّ الزواج لا يحتاج إلى شيخ دين، يكفي أن يقرأ الزوجان صيغة العقد ليصبح لهما الحق في ممارسة الجنس)، رفضتُ بالطبع، وصممتُ على طلب الزواج غير المشروط بمدة على سُنّة الله ورسوله، توقعتُ هروبه بعد رفضي القاطع، لكنه طلب مهلة للتفكير ثم عاد مرة ثانية وطلب مقابلة أبي.

بعدما قابل راغب والدي طلب منه إتمام مراسم الزواج بقريتنا آبيانة، كان ذلك نوعًا من ردّ الاعتبار لنا، أمام أنفسنا، كان يجب التخلص من تلك المرحلة الكئيبة في حياتنا ولو بالكذب.

طلب مني أبي عدم إخباره بأيّ تفاصيل تخصّ اغتصاب عمّي، استنكرتُ ذلك بالطبع وأخبرته أن هذا غِشّ. وصلنا إلى حلّ وسط، وهو الاعتراف بواقعة الاغتصاب دون تحديد هُوِيّة المغتصِب. لم أكن خائفة من ردّ فعل راغب في حالة عندما لا يجد زوجته عذراء، كنت غير مهتمّة بالزواج من الأساس، لهذا فضّلت الوضوح المطلق من البداية، وشجعني أكثر على ذلك مصارحته لي بوجود زوجة له تعيش في القاهرة وكذا أطفال، وحديثه عن زوجته بشكل لائق، فحكيت له عن الواقعة في خجل..

بعد كشف السرّ وجدتُ تفهُّمًا كبيرًا من راغب النطاط، لم يكترث لمعرفة المغتصِب، لم يسألني حتى عن أيّ تفاصيل بعدها حتى يومنا هذا، كان يبحث عن الأنثى وليس عن تحقيق المبدأ الذكوري الشرقي بأن يكون الرجل الأول في غزو الأنثى، على الأقل معه.

في البداية، توقعت أن راغب لا يعيش في وفاق مع زوجته الأولى، لكنني تدريجيًا اكتشفت أنه باحث خطير عن جمال المرأة، أينما وُجِدَت المرأة الفاتنة ستجد راغب غالبًا. أخبرني أنه عندما رآني للمرة الأولى اتخذ قراره بالزواج بي زواج «صيغة»، وبعد شعوره بأنه على وشك خسارتي للأبد وافق على شرطي سريعًا. احترمته نوعًا ما على صراحته، أي نعم كانت الصراحة جارحة لكنها أفضل من الكذب.

سافرنا جميعًا إلى قريتنا، وجد راغب ترحيبًا من الأهل والأصدقاء وشغفًا بالتعرف على العضو الجديد للعائلة. لم يحضر عمّي كامران حفل زفافي الضيّق في آبيانة، تحجّج بضغط العمل في أصفهان.

صارت آبيانة مملة، كئيبة، لا أعلم هل بسبب موت الخالة أم بسبب التغيرات السياسية. أعتقد أنه السبب الأول؛ آبيانة بعيدة تمامًا عن أي تغير سياسي.. بتنا ليلة هناك، ثم سافرنا صباحًا إلى طهران، في تلك الليلة انطلقت بلدا بشكل غريب، ظلت الجميلة ذات الأعوام التسعة تجري على شط النهر مع الأطفال، لا يخافون منها ولا تعتبرهم غرباء.

تزوجتُ راغب النطاط، الجملة السابقة صارت حقيقة لا مفرّ منها، تغافلتُ عن عيوبه وتعاملتُ مع مميزاته

لكنني لم أفرح بها يومًا، الدنيا تبتسم لي لكنها كمن كسر عظامك بسيارته الفيراري ثم اعتذر، عارضًا عليك الاستمتاع برفاهيتها في الطريق إلى المستشفى. الحياة قاسية بالفعل، لكنها عبارة عن مجموعة من الأقدار المتسلسلة التي تمهد لأقدار بشر آخرين، وناتجة من أقدار بشر سبقوك، تلك الأقدار لا تهمّ صانعها لكنها في النهاية تخلق صورة مرضية له، لا تهمّ ذاتك الشخصية، المهم ذات الكون الكبرى.

ليلة العرس لم تكن هي ليلة الدخلة، سافرنا طهران في الليلة التالية، أصرّ راغب على أن تعيش يلدا مع أجدادها، رفض وجودها معنا لكنه سمح لي بزيارتها أسبوعيًا. كان ذلك مفهومًا بالطبع، صراحة كنت ميالة إلى هذا القرار وساعدتني أمّي عليه، كانت هي المسؤولة عنها بشكل كامل نظرًا لعدم وجود والدي أغلب اليوم، ما زالت يلدا غريبة عني، تنتمي إلى والدتي رسميًا وزوجيًا أكثر مني.

آخر شروط راغب كان التفرغ الكامل له، العمل ممنوع. في البداية حاول إقناعي بأنه لن يسمح بعمل زوجته عند أحد أصدقائه حتى لو كان هذا العمل هو التدريس، حينما عرضتْ عليه العمل بالتدريس عند أسَر أخرى أو مدارس رفض أيضًا، كان يريدني معه طَوال الوقت، كتب لي مبلغًا ضخمًا -وقتها- مقابل عدم العمل.

أقمنا بالجناح المحجوز لراغب في فندق الاستقلال مِن قِبَل شركة «إيران خودرو». الحياة مرفهة داخل الفنادق لكنها لا تقارَن بشقة الزوجية على الإطلاق، الدفء الذي تجده بعد غلق باب شقة الزوجية، ومشاهدة التلفاز مع شريكك، لا يُقارَن بأي حال مع فندق ترى الغرباء يتجولون بطرقاته بمجرد فتح باب غرفتك.

نعود إلى ليلة الدخلة، كان راغب لطيفًا جدًا، إلى أقصى درجة، كنت أتوقّع منه معاملة جنسية وحشية أو شرهة، لكنه على العكس، كان راغبًا في السماع إليّ، كان يريد تجاوُز حالة خوفي من الجنس.

- اهدئي واحكي لي.

قالها في هدوء حاول بثه داخلي.. حكيت له كل شيء عني، حتى الاغتصاب حكيت عنه لكن بالتفصيل مع تبديل الجار بالعمّ. بكيتُ بالطبع، فاحتضنني. أُقسِم أنني لمحتُ دموعه، لم أتخيل ذلك مطلقًا، اعتذرتُ له عن جعل ليلة الدخلة تتحوّل إلى دموع.. تلك الليلة قبّلني فقط، قبّلني على كل جسدي، خلع ملابسي تمامًا ثم أخذ يقبّلني ويدلّك عضلاتي في مهارة، نِمتُ واستيقظت لأجده نائمًا بجواري، وبعد دقائق استيقظ ثم قال: ما كل هذا الجمال؟ رؤيتك عند الاستيقاظ تجعل من النوم إثمًا.

طلب الفطور، كانت عيناه تتبعانني حتى في أثناء تناول الطعام، جلسنا في «التراس» ثم تبادلنا أطراف الحديث في كل شيء، الطفولة، الأسرة، التعليم، الزواج، حتى الحب.. الحب هو أسوأ نقطة التقينا عندها، كلانا ينظر إلى الحب بشكل سيئ، هو يراه فعلًا متجددًا، غير مرتبط بشخص واحد، عندما يهتز قلبك يجب أن تستمع إلى رجفته وتنفذ طلبه، أما أنا فرأيي عنه كان مبهمًا، الحب غير موجود، أو موجود لبعض الناس، وآخرون لا يعرفون عنه شيئًا، مثل الحظ قد يأتي وقد يهرب منك. في ما بعد عرفت أن الحب ليس كذلك، كلانا رأيه خطأ.

بعد العصر مارسنا الجنس، في العادة -كما سمعت أيام الجامعة- تشعر الأنثى بنوع من الارتياح عندما تسلم نفسها إلى شخص يتفوق عليها في الحسم، نعم أنت قرأتها بشكل صحيح، «الحسم» وليس «الجسم»، كان راغب يعرف ماذا يريد، أتذكّر أنني لم أستطع أن أطارحه الغرام، كنت فزعة، وحيدة، كنت كبيرة نوعًا ما في السنّ لكن ليست لدي أي خبرة في إقامة عملية جنسية، لم أستطع تحديد إن كان ذلك بسبب الخبرة الوحيدة القاسية أم بسبب أن ذلك هو المعتاد من فتيات بلاد الشرق. كنت أريد الذهاب إلى منزلنا، ليس منزلنا في طهران إنما منزلنا هناك في آبيانة، أريد العودة بالزمن إلى الوراء ومنع كل هذا السخف.. استمر راغب في المعاملة بوداعة، لم يكن خشنًا أو فظًا على الإطلاق، كان يريد ما يحسّ به، ببعض التبرير. أذكر فقط هيئته أمامي، يرتدي زيًا رياضيًا ويقف مستغرقًا في التفكير يدخن سيجارته في البلكون، ينظر إلى اللاشيء، أراهن نفسي أنه كان نادمًا يومها على تلك الخطوة، الجمال ليس كل شيء في الجنس، لن ترغب في ممارسة الجنس

مع فتاة جميلة ملقاة أمامك كالجثة إلا لو كنت مصابًا بالنيكروفيليا (ممارسة الجنس مع الموتى).

في الليلة الثانية بينما كنا نتناول العشاء وسط جوّ من الرومانسية المتوترة، رنّ جرس الهاتف الداخلي للغرفة، كانت أمي، كانت لطيفة جدًا في الحديث: ماذا حدث؟ هل تم الأمر على خير؟

لم أردّ..

قالت بطريقة الناصحة: فقط أغمضي عينيك واصرفي عن ذهنك كل شيء، تخيّلي نفسك في مكان آخر، تخيّلي شيئًا مهما كان، تخيّلي أنك تأكلين البوظة بالزعفران التي تحبينها مثلًا.

لم أردّ..

بعد ثوانٍ همهمتُ واستأذنتُ منها في إنهاء تلك المكالمة المفيدة، ثم فعلتُ ما نصحتني به، تظاهرتُ أنني في مكان آخر، الغريب أن يلدا كانت معي في هذا التخيّل، كنت ألهو معها في إحدى الحدائق، لا أحسب أنني نجحت تمامًا في أن أكون في موضع آخر، في الماضي عندما كانت أمي تقول أو تفعل شيئًا يسبب لي الأذى كنت قادرة على الانفصال التام.. أما مع راغب فقد غيّبت ذاتي عن جسدي لكنني لم أنجح في الانفصال التام، منذ ذلك الحين وصاعدًا طوال عقد ونصف تقريبًا.

لم أكن سعيدة، لكنني شعرت بلذة غريبة في الاستسلام للحياة الجديدة، آرائي لم تكن ثابتة عن الزواج مثله، قوانيني غير مبنية على تجارب، أما هو فكان لديه قواعد خاصة بالزواج.. في ما بعد مسحتُ كل ذكرياتي المتعلقة بأول أيام الزواج، كان الجنس بالنسبة إليّ شيئًا أفعله لأنه متوقّع مني، لأنني لا أستطيع رفضه، لا أستطيع الاهتمام به، لم تجعلني تجربة الإيذاء الجسدي التي كابدتها في مراهقتي أشعر إنني قذرة ومذنبة مثلما فعلت تجربة النوم مع زوجي في فراش واحد.

عندما قررتُ الزواج براغب كنت قد كذبت على نفسي، بمعنى آخر خدعت ثقافتي ومُثلي العليا، كنت أتمنى أن أصبح مثل أستاذتي الجامعية آذر نفيسي فصرت بين ليلة وضحاها طامحة أن أكون مثل أمي.. في أول زيارة قمت بها لأبي وأمي بعد شهر العسل وضعتُ نظارة شمسية داكنة ورفضت أن أرفعها عن عيني، على مدى زمن طويل كنت أرتديها حتى في أثناء وجودي بمكان مغلق، كنت أشعر بخجل عميق، وظل هذا الخجل يلازمني زمنًا طويلًا.. طويلًا جدًا.

***

حكى لي راغب عن مصر كثيرًا، تمنّيت السفر إلى دول كشمال إفريقيا، كنت قد قرأت عن مصر كثيرًا وتمنّيت السفر إليها، شوق جارف كان يشدّني إلى هذه البلاد وما زال، الغريب في هذا الحنين أنه كان مختلفًا، لم يكن اهتمامًا بالآثار مثل الأهرامات والمعابد أو حتى المدن السياحية هناك، كنت أرغب في الاطلاع على ثقافة هذه البلاد، طبقاتهم الاجتماعية المختلفة، الفلاحين، أهل المدن الساحلية. كان معتادًا الهجوم وقتها على مصر في وسائل الإعلام لدينا، لكن كلما ازداد الهجوم شراسة ازداد تعلقي بها.. الخلاف على ما أذكر كان بسبب استقبال الرئيس أنور السادات للشاه عندما رفض العالم كله، استضافته بعد الثورة الإسلامية.

هناك فترة في زواجي لا أنكر أنها كانت سعيدة، لا أريد ظلم راغب، تلك الفترة لا أريد التحدث عنها بشكل قد يبدو خارجًا عن الأخلاق، لكن هذه مذكراتي أنا، أنا من سيقرؤها ويبكي ويضحك ويلوم.. تبدأ تلك الفترة عندما خرجت من ذلك العالم الذي عشت فيه وتربيت عليه، لا أقصد آبيانة، إنما إيران بأكملها، استضافني بلدان لهما أثر بالغ في نفسي، بلدان يحملان تاريخًا يصطدم بوجهك بمجرد دخولهما، فرنسا ومصر، أو كما قال راغب: فرنسا وأم الدنيا.

سافرت مع راغب إلى فرنسا أولًا، استغلّ زوجي الحرب الدائرة بيننا وبين العراق، وطلب من والده إعادته إلى فرنسا ولو مؤقتًا، كان تلك الشفرة بمثابة هديّة من الله لمعرفة شخصيته الحقيقية، راغب كان يحفظ

فرنسا عن ظهر قلب، أعتقد أكثر من شوارع وطنه مصر. بلاد النور التي تُعدّ مركزًا عالميًا للموضة والثقافة والحرية كانت المناخ الخصب لشخصية مثل راغب تحب الحياة ومتعها، برج إيفل، الشانزليزيه، متحف اللوفر... إلخ، والده كان مسيطرًا تمامًا على مناطق مهمة في باريس، تجمعات رجال الأعمال، نوادٍ للفن، التجمعات العربية. لم تقع عيناي عليه، حاول راغب إخفاء وجودي تمامًا عن أعين أصدقائه أو أصدقاء والده، ساعد على ذلك وجود والده في مصر في تلك الأوقات.

كل شيء فعلته في باريس، كل شيء، دون الدخول في تفاصيل، عالم من الحرّيات أمام شابة شرقية مع رجل لا يهاب المحرمات، بل يبحث عنها، كان راغب يلعب القمار مرتين في الأسبوع على الأقل وأحيانًا يلعب حتى الفجر، كان يرغمني على أن أصبغ شعري وأن أذهب إلى مصففات الشعر، كان يقول: «يجب على كل امرأة أن تظهر دومًا بأحلى مظهر». خلعت الحجاب بالطبع، وعلّمني شرب السجائر والكحول، كان يعشق رائحة السجائر والكحول وهي تفوح مني (على عكس باقي الرجال) لم يكن غيورًا لكنه لم يطلب مني شيئًا مخجلًا، شربت السجائر، الخمر، رقصت، لعبت القمار، جربت كل الأمور التي كنت أنظر إليها نظرة خوف، شهر أو يزيد قليلًا فعلت فيه ما لم أفعله أو حتى أشاهده من قبل. لعب راغب دور المرشد السياحي، كان سعيدًا بحق عندما يرى الدهشة على وجهي، يحاول تقبيلي في الشارع فأهرب منه، يغضبه ذلك ولا أفهم سبب ما يفعله.

في فرنسا تحوّل راغب إلى وحش جنسي مفترس، يريد التمتع بجسدي طوال الوقت، في الليل يزول الوجه اللطيف الذي يضعه نهارًا، لم يكن فظًا كما قلت من قبلُ لكنه كان همجيًا، بمجرد رؤية جسدي في مكان مغلق يهجم دون مناقشة، وعلى الرغم من ذلك حاولت التفاعل معه، لم أستطع أن أكون العشيقة التي كان يرغب أن أكونها، لكنني حاولت وحاولت حتى صِرت أتفنّن في تلك الممارسات. قديمًا كنت مؤمنة أن البقاء في زواج خالٍ من الحب هو خطيئة، الآن عرفت أن المادة هي التي تتحكم في كل شيء حتى الحب، لا تستطيع شراءه لكنها تهيئ كل الظروف لجعلك تحت ضغط مستمرّ.. في فرنسا قمنا بالتقاط الصور المشتركة أمام برج إيفل، وأرسلت الصورة لأمي مع كارت بطاقة عليه صورة بانورامية لباريس، وكتبت بها: «قضيت وقتًا ممتعًا بصحبة راغب هنا في مدينة الجنّ والملائكة، تحياتي لكِ ولأبي وليلدا.. ابنتكم آن».

قبل مغادرة باريس طلبت منه السفر إلى القاهرة، واجهتنا مشكلة دخولي إلى مصر، الخلاف السياسي بين مصر وإيران لم يكن قد انتهى بعد، اضطر راغب إلى توثيق عقد زواجنا في السفارة المصرية بباريس حتى يتسنى لي الذهاب إلى مصر برفقته رسميًا، في البداية طلب مني راغب الذهاب إلى الإسكندرية، أخبرته أنني أتمنى زيارة القاهرة لكنه اختار الإسكندرية حتى لا تحدث مشكلة في حال رؤيتي معه هناك.. قال محاولًا إقناعي: نحن في الصيف عزيزتي، الإسكندرية أفضل من القاهرة كثيرًا في هذا الوقت من العام.

لم أجادله، توقّعت كذبه خوفًا من زوجته الأولى، لكنني لم أهتمّ بتلك الأمور.

وصلنا إلى الإسكندرية، مدينة جميلة جدًا، مدينة ساحلية وتُعدّ العاصمة الثانية لمصر، وقرأت أنها كانت عاصمتها قديمًا، لها تاريخ، كل موطن قدم هناك له قصة، شعرت أن الجوّ العام يناسبني جدًا، حتى الهواء هناك له رائحة وطابع خاص بالنسبة إليّ.. بعد الرحلة الطويلة حجز راغب أسبوعًا بفندق «هلنان فلسطين»، لم يخبر أيّ جهة بمكان إقامته في مصر سوى شركة «إيران خودرو» حفاظًا على السرّية، كان زواجه الثاني سرًا رهيبًا يحاول الحفاظ عليه طوال الوقت.

فندق «هلنان فلسطين» رائع بحق، موقعه تحفة، هو عبارة عن قصر من قصور فترة الحكم الملكي في مصر، وهي تشبه حكم الشاه هنا في إيران. يقف الفندق مواجهًا لكوبري الجزيرة وفنار الإسكندرية، عرفتُ أنه مقرّ لإقامة رؤساء وملوك العالم عندما تستضيفهم مصر.. حجز راغب أحد الأجنحة الفاخرة، كان باهرًا في كل تصرفاته، لا يفعل ذلك عن ادعاء لكنها تصرفات تصدر منه بشكل طبيعي، راغب جذوره أرستقراطية فعلًا، أرستقراطية لدرجة نقص المشاعر.

كل شيء في الإسكندرية كان جميلًا، راغب كان قليل الحركة هناك، لا يرغب في الحركة أو الخروج كثيرًا،

تفهمت هذا، وطبيعة الفندق كانت مغرية بشكل يجعلك أيضًا غير مهتمّ بالخروج في شوارع المدينة.. في اليوم الثالث جاءنا اتصال من إيران، في البداية انزعجتُ خوفًا من أي خبر سيئ عن والديّ. كانت شركة «إيران خودرو» هي المتصلة، الاتصال لراغب إذًا. أمسك الهاتف ثم ظهر على ملامحه انزعاج لم أرَه مِن قبل، ثم سكت تمامًا واضعًا سماعة الهاتف، وقال بصوت مبحوح: والدي مريض جدًا يا آن، طلب رؤيتي في أسرع وقت!

قالها بالعربية لكنني فهمتها.. حمدتُ الله أنهم لم يبلغوا شركة «رينو» بمكانه، أخبرني بضرورة سفره إلى القاهرة كي يستطيع العودة قبل انتهاء إجازته، أوصاني بالبقاء في الفندق حتى العودة، ثم سافر دون اصطحاب أي أغراض.

ما إن خرج حتى قررتُ التنزّه في المدينة الحبيبة، حفظت اسم الفندق وكان معي ما يكفي من المال، كذلك أنا على دراية بسيطة بعادات المصريين وأسعار السلع هناك، إذًا لا توجد مشكلة.

وجدت الإسكندرية مليئة بالحياة، أول مَعلَم حاولتُ زيارته كان مكتبة الإسكندرية بالطبع، قرأتُ أنّ بها 8 ملايين عنوان كتاب، لم أصدق تجمّع هذا الكمّ من الثقافة في مكان واحد، للأسف وجدتها ما زالت تحت التجديد، اتجهت إلى متحف الإسكندرية اليوناني الروماني وقلعة قايتباي وأخذت الصورة الشهيرة لكل من يذهب إلى هناك، لم تحدث لي ظاهرة ديجافو (شُوهد مِن قَبل) لكنه كان شعورًا مختلفًا، كأن أجدادي عاشوا هناك، كأن رُوحي ترتوي عندما تكون هناك، تشغلني دائمًا تلك الفكرة، أصل الأشياء، أين كنا من قبل الحياة؟ أين ذواتنا؟ الذات الحقيقية بداخلي تشعرنا باغتراب هنا في طهران، كأن ذاتي صُنعت من الطبيعة، من أصل الأشياء، جبال آبيانة، الهواء في مصر..

نشعر أحيانًا بحديث الأجداد لنا، هناك شعور لا يدوم طويلًا، فقط يومض داخلي بقوة ويتلاشى في جزء من الثانية مخلفًا وراءه شحنًا من الإبهام والغموض تعيقك عن اللحاق به وفهمه بشكل أعمق، بعد انقشاع تلك السحب تكون قد نسيت الأمر بزمّته. في الإسكندرية هذا الشعور كان متكررًا، لم أنسَ، يقولون إنك لا تستطيع الوصول إلى ماهية ذاتك أبدًا، هي من رُوح الله الذي ليس كمثله شيء، لكن هناك بعض الأحداث التي تكشف لك خواصّ ذاتك، وجدتُ ذاتي في الإسكندرية، نظرة الآخرين لك تقرب معنى الذات، شعرت أن نظرة الأجداد لي هي التي تشكل ذاتي، قد يكون ذلك بسبب جملة والدي أن أجدادي كانوا من العرب. في الإسكندرية عشرات الأديان والأفكار والجنسيات، لربما كان أحدهم فارسيًا أو مصريًا وعاش في بلاد فارس، لا أعلم، كل الذي أعلمه أنني أرغب في العيش والموت هناك.

كعادة السائحين في ذلك الوقت قررت إرسال صورتي مع المسرح الروماني في الخلف وكذا كارت يخص الإسكندرية إلى والدتي في إيران، سألت أحدهم عن مكتب بريد لكنه لم يفهمني، بعد دقائق لمحت علامة عبارة مكتوبة بالإنجليزية، مكتب بريد المندرة، وجدت طابورًا طويلًا من المواطنين، في مصر تكدّس وبيروقراطية مثل إيران تمامًا، أخيرًا وصلت إلى شبّاك الموظف المختص، حاولت التواصل معه لكنه لم يفهمني هو الآخر، أخذ يكلّمني باللغة العربية لكن لم أستطع فهمه، حاول بعض الموجودين من خلفي فَهم كلامي.. لا فائدة، هنا ظهر شابّ في نهاية العشرينيات تقريبًا، وسيم الطلة، أسمر البشرة قليلًا، صاحب عينين فاتحتي اللون، متوسط القامة، لعب دور المنقذ عندما بدأ في التحدث بالعربية مع موظف البريد، هو يشير إليّ إشارة ذات معنى، أشار إليّ كي أناوله المظروف ثم قال مؤكدًا طلبي: هل تريدين إرسال هذا الطرد لإيران؟

هززتُ رأسي بالموافقة وتمتمت بكلمة «نعم، نعم» بسرعةٍ ولهفة، فخرَ ضاحكًا ومعه جميع الوقوف. شعرت بالخجل قليلًا وابتسمت رغمًا عني، دفع المبلغ المطلوب ورفض أخذه مني، شكرته بامتنان حقيقي قائلة: شكرًا يا سيد.. ما اسمك؟

قال بالإنجليزية وهو يسحبني خارجًا: عادل.. عادل داوود. وانت يا خانوم؟

قالها بالتركية، عرفت أنه واسع الثقافة بالفعل.

- آن.

- اسم رائع حقًا.

بادرني بسؤال شعرت بغرابته في البداية كأنه يسأل أحدًا غيري.

- ما الذي أتى بإيرانية هنا في الإسكندرية؟ أول مرة تقع عيناي على هذه الجنسية.

قلت في بساطة: زوجي من هذه الأرض، لا ذنب لي في قصة عينيك هذه.

قال دون اهتمام بسخريتي: لقد عشت في الولايات المتحدة الأمريكية عشر سنوات تقريبًا، قابلت كل جنسيات العالم، أعتقد ذلك، إلا إيران.

- نحن لا نحب الولايات، بيننا عداوة.

- اعذريني آن خانوم، أنا لا أحبّ السياسة ولا أفهمها.

لم أرُدّ عليه في تلك الجزئية، تفحصته بشكل هادئ هذه المرة، لم يبدُ لي أنه لصّ أو نصّاب مثلًا، كان بسيطًا لكن ثقافته الأجنبية منحته سحرًا خاصًا، يرتدي كنزة صوفية من نوع «هاي كول» أسفل جاكت من الجلد الأسود، وبنطالًا من الجينز وحذاءً رياضيًا.. لمح نظرتي المتشككة فاستطرد: أنا مصري عشت جزءًا من طفولتي ومراهقتي في الولايات، أؤدي الآن الخدمة العسكرية لجيش بلدي حسب رغبة والدي. يبدو أنكِ سائحة، أو بمعنى أدق لا تعيشين مع زوجك هنا.

أجبت في تردد: بالفعل، زوجي ينهي بعض الأوراق بالقاهرة واضطررت إلى إرسال هذا الطرد لوالدتي في إيران، أنت تعلم عادة إرسال البطاقات.

ابتسم في ودّ ولم يعلّق، شعرت بالذنب للحظات نظرًا لنظراتي المتشككة.. تمشّينا قليلًا ثم سألني عن الأماكن التي زُرتها في الإسكندرية، عرض عليّ التجوّل في المناطق الشعبية التي تُظهر عبق التاريخ الحقيقي للمدينة، اعتذرتُ له في أدب فتفهّم ذلك، قلت في صوت خفيض: أنا مدينة لك، تستطيع الحضور إلينا في فندق «هلنان فلسطين»، تعرفه بالتأكيد.

- نعم. هذا رقم هاتفي، تشرفتُ بمعرفتك كثيرًا.

وسكت لبرهة ثم أتبع: سأنتظر اتصالك.

قالها واستأذن في الانصراف.. غدت إلى الفندق، سألتهم في الاستقبال عن أي اتصال من القاهرة فأجابوني بالنفي، شعرت ببعض القلق، بدأت هواجس كثيرة تجتاحني، مفادها أن راغب قد أنهى الزواج بالهروب، لا توجد سفارة إيرانية هناك ولا حتى بالقاهرة، لم أشعر بالخوف في حالة هروب راغب، بالعكس، كان توترًا مقبولًا كأنني تائهة، شعور بالوحدة غير مبرر، لم يأتِ الليل بعد، نمت في أثناء تلك الهواجس العابرة، لم يأتِ راغب أو يتصل، بدأت في ترتيب سيناريو داخل عقلي، الاتصال بالشرطة، إرسال برقية إلى والدتي، حجز تذكرة طيران إلى أي دولة أستطيع السفر منها إلى الوطن.

في العاشرة والنصف جاءني صوت راغب من القاهرة، حزينًا لأقصى درجة، صوته يرتجف، يحاول أن يكون متماسكًا: آن، أنا آسف، لقد تُوفي منذ ساعات، للأسف لم أقد...

لم يستطع إكمال جملته، قلت بالإيرانية: أووه! لا تحزن، البقاء لله يا راغب، البقاء لله يا عزيزي، أنا آسفة.

قلتها في أسى حاولت أن يكون طبيعيًا، كان يريد إنهاء المكالمة في سرعة فقال: سأحجز مقعدًا لك على طائرة باريس الخميس القادم، أنتِ تعرفين مكان شقّتي هناك، انتظريني لحين اللحاق بك، إلى اللقاء يا آن.

أنهى المكالمة، غدت للتفكير في نظرية المؤامرة لكن هذه المرة طردت تلك الأفكار سريعًا، مفتاح الشقة

باريس موجود بحقيبة السفر، لا خوف إذًا.. تناولت دواءً منوّمًا وكوبًا من الينسون للتخلص من الأرق، هناك شعور بالاحتقار مسيطر عليّ، أشعر أنني سلعة رخيصة، شعوري أنني مهدّدة طوال الوقت وفي نفس الوقت الرغبة في الخلاص من ذلك الارتباط، لا يوجد حلّ لوقف هذا الشعور المتدفق الذي يمنعني من النوم، شعور احتقار الذات لا بد من مجابهته بالأصدقاء، زملاء العمل، الأهل، هؤلاء من يدعمونك نفسيًا، يحبّونك فتحبّهم أو العكس، من أين ستأتي ثقة الإنسان بنفسه دون إنجازات أو حتى أرض صلبة ممن يحيطون بك؟ من أين ستأتي الثقة في علاقة أساسها البيع والشراء؟ الثقة في الحبيب تأتي من صدق العواطف، أما العواطف المزيفة فغالبًا ستنتهي باحتقار الذات، ويليها الخوف من الذات، وأخيرًا محاولة القضاء على تلك الذات.

عندما وصلت إلى تلك المرحلة من التفكير بدأت الدموع تملأ عينيّ وهممت بالبكاء، أمسكت الهاتف وطلبت رقم الاستقبال، قلت: «أريد الاتصال بهذا الرقم». بعد دقائق، سمعت صوته قادمًا من الطرف الآخر يقول: هاللو.

قلت في فرح ممزوج بخجل: سيد عادل، أهلًا بك. هل ما زلت ترغب في التنزه في شوارع الإسكندرية القديمة؟

شوارع وأماكن ذات طابع يوناني، مبانٍ ذات تصميم إيطالي وفرنسي، أسماء عرفت أنّ أغلبها غير عربي، كل ذلك جعلني أشعر أنني في إحدى العواصم الأوروبية وليس العربية. الإسكندرية تشبه أوروبا الشرقية كثيرًا.. تقابلت مع عادل ثلاثة أيام متتالية، كانت عيناه تلمعان في سعادة، وأظن أن عينيّ حملتا نفس اللهفة، نتبادل التحية كأننا أصدقاء منذ أعوام، في الصباح كنا ننطلق نحو مطعم شهير للأكلة الشعبية المصرية، الفلافل مع خلطة الباذنجان بالطحينة، بناء على رغبتي، ثم ندخل إلى عمق المدينة، نسير في الشوارع بلا هدف، أول يوم اختار هو البقاء فترة أطول في شارع النبي دانيال. يا الله! ما هذا المزيج الرائع للأديان؟! معبد يسمى الياهو، الكنيسة المرقسية، أقدم كنائس إفريقيا، مسجد النبي دانيال. اشتريت بعض الكتب الأجنبية من فوق أحد الأرصفة لمجرد الشراء من هذا الشارع رغم عدم أهميتها بالنسبة إليّ، في اليوم التالي اشتريت بعض الهدايا التذكارية من شارع سوريا.

اقترح عادل الذهاب إلى المتحف اليوناني الروماني، أخبرته أنني كنت زُرته مِن قَبل لكنه كان مُصِرًا. بعد وصولنا هناك حمدت الله على تصميمه؛ شعرت هناك أن جميع فجوات روحي قد اكتملت، كل مكروه حدث لي في الماضي شعرت أنه تحوّل إلى قشرة جرح ملتئم تنتظر السقوط. إن كان إنزيم الهيبارين الذي يفرزه الكبد يداوي الجروح الجسدية سريعًا، فإن آثار المتحف الروماني قد داوت جروحي النفسية. الغريب أننا زُرناه ثلاث مرات وفي كل مرة نكتشف شيئًا جديدًا، عرفت من عادل أنه يزور المتحف بشكل دوري، شدتني هناك جرّة من السيراميك تعود إلى القرن السابع الميلادي، نُقش على تلك الجرّة رسم لرجلين وفتاة مطأطئة رأسها إلى الأمام، حاملة بيدها مسبحة طويلة وحول وسطها زنار من شعر الماعز، أحد أطرافه يصل إلى الأرض، الثلاثة كان الحزن باديًا على وجوههم، ناظرين إلى أسفل كأنهم يعانون من شيء ما، نظرة غريبة جدًا، وقفنا أمامها دقائق طويلة صامتين حتى كَسَرَ عادل ذلك الصمت قائلًا: الغريب في الصورة هما الرجلان وليس المرأة. قد أتخيّل مثلًا رجلًا وزوجته فقدا ابنهما، وهذه الجرّة تُصوّر ما حدث، لكنْ رجلان وامرأة! أليست غريبة؟!

أجبت في ثقة كأنني أعرف قصّتهم مِن قبل: قد يكونون إخوة فقدوا الأب أو الصديق مثلًا.

ضحك لكنه لم يكُن مقتنعًا.

مشينا معًا لساعات دون إحساس بالإرهاق، لم نستخدم المواصلات العامة مطلقًا، تناولنا طعام الغداء بأحد مطاعم السمك قبل الغروب بدقائق قليلة، حيث بقي من الشمس ضوء خافت جعل الجوّ لطيفًا. حاول عادل إقناعي بخلع حذائي ومداعبة ماء البحر لكنني رفضت في خجل، أخبرته أنني مصابة بالهيدروفوبيا، قلت له إنها ستصيبني بالجنون يومًا ما. أعطينا ظهرنا للبحر وطلب لنا ذرة مشوية على الحطب، وفريسكا، وحمّص الشام، كانت أفضل أيام حياتي على الإطلاق.

- هل تزوجتِ عن حُبّ يا آن؟

فتح سؤاله المجال لي كي أتكلّم معه في كل شيء، حكيت له عن حياتي وأسرارها، حتى سِرّ شخصية المغتصِب قلته. كان أكبر مني بثلاث أو أربع سنوات فقط، لكنني لم أشعر معه بذلك، لديه تقبّل للآخر بشكل رائع، أعتقد بسبب معيشته في الولايات المتحدة، عرفت منه الكثير عن ثقافات الشعوب، لديه العديد من الصداقات، والدته تُوفيت وهو في التاسعة تقريبًا وعاش مع والده وإخوته في أمريكا.. أعتقد أنه يداري سِرًّا، لم يُرِد البوح به رغم بَوْحي له بكل شيء. تكلّمَ عن قضاء الخدمة العسكرية وكيف أنه لا أحد يفهمه من زملائه المجندين. سألني عن زوجي فأخبرته بوفاة والده، وأنه سمح لي بالخروج، لم أرِد أن أظهر في صورة الخائنة لزوجي، لم يعلّق، كان خجولًا للغاية، لا ينظر ناحيتي مهما حدث.

سألني عن سِرّ الهيدروفوبيا، فقلت له: لا أعلم، لم يحدث شيء في طفولتي على ما أعتقد يسبب هذا الخوف.

استمتعت جدًا بالحديث معه، لا أستطيع تسميته صديقًا وفي نفس الوقت ليس شخصًا عابرًا، الراحة النفسية لها تسميات كثيرة، لا أعلم اسمًا لها في هذه الحالة، كنت راغبة في استمرار الحديث معه، أن أحكي له أكثر عن حياتي منذ الميلاد، أن أحتضنه، لم يكن حبًا بالطبع، لي آراء ذكرتها عن الحب، ربما هي عَلاقة أخوّة، ربما كان هذا الشخص متنفسًا لي من ضغط عشت فيه سنين طويلة. أنا سعيدة أنني قابلت عادل وحزينة لأنني لم أرَه بعد ذلك، أتمنى مقابلته مرة ثانية لأشكره على كل شيء.. تعاهدنا أن نتراسل، سألته عن عنوانه فأعطاني عنوان وحدته العسكرية، قال إنّ الشقة التي يسكن بها تخصّ أحد أصدقائه، تمنّيت له السعادة ووعدته بإرسال أول خطاب من إيران بعد العودة مع بعض الصور لأسرتي التي حكيت له عنها، قلت في تأثر: سنتقابل مرة أخرى يا عادل.

- بالتأكيد، هناك حكايات أخرى كثيرة أتمنى سماعها منك، إلى اللقاء.

تزكته مبتسمة. يقول فولتير: «الابتسامة تذيب الجليد وتنشر الارتياح، وهي مفتاح العلاقات الإنسانية الصافية»، تذكرت تلك المقاولة وأنا أشير إليه مودعة وباكية دون سبب، وجدتني أعود إليه واحتضنته، شعرت كأنّ روحي تفارقني وأدركت أن للحبّ أشكالًا أخرى.

***

لم يغد راغب مِن مصر، أرسل إليّ خطابًا مقتضبًا عن مباشرة أعماله بين مصر وفرنسا وعن احتمالية عودته شرط انتهاء الحرب.. لم أهتمّ بخطابه كثيرًا، تمنيت للحظات أن يكون مرسلًا من عادل.

في إيران غدت إلى عملي من جديد، لم أستخدم المال الذي تركه لي راغب في البنك، كنت أشعر بدنسه، لهذا ابتعدت عنه تمامًا، عملت في الدروس الخصوصية لفترة جعلتني أعيش حياة لا بأس بها، في تلك الفترة بعدما عدت لتدريس اللغة الإنجليزية للأطفال فكرت في يلدا، صارت في الرابعة عشرة تقريبًا، بحثت كثيرًا عن طريقة مجدية لتعليمها فنصحني أحد الأطباء بطريقة سمع عنها في أوروبا تسمى التحليلية الكلية، وهي طريقة تسير في الاتجاه المعاكس للطرق العادية، إذ تبدأ بتعليم المريض الكلّ ثم الجزء، مثل تعليم الكلمة ثم الحرف، أو الجملة ثم الكلمة. اخترت أسلوبًا أشمل في تلك الطريقة وهي حفظ قصة كاملة ثم تحليلها إلى جمل وكلمات، اخترت القصة لأنها كلّ مشوّق وجذّاب، كنا نجلس على الأرض في غرفة ذات إضاءة خافتة، وحوائط دون معلقات، ونحكي بصوت هادئ، هذه الطريقة كانت تساعدها على التركيز وعدم تشتت انتباهها.

حكيت لها قصص طفولتي من بين قصص الشاهنامة أو كتاب الملوك (ملحمة إيرانية عن تاريخ البلاد) مثل قصة رودبة الجميلة وحبيبها زال ذي الشعر الأبيض، وقصة فريدون وأبنائه الثلاثة (قصص من التراث الإيراني)، كنت أشعر أنني أذكّر نفسي بأحلى سنين العمر، بعد الدرس الذي كان يستمر نحو ساعة أو يزيد قليلًا كنت أحاول مكافأتها.

- ما رأيك في أن نتناول آيس كريم؟

هنا تغضب وتثور حتى أتراجع عن عرضي وأجعلها تقوم بتجميع الصور الفنية المفضلة لديها. في إحدى المرات زادت عصبيتها بشكل جنوني، فكدت أضربها ثم وجدت بعض قطرات الدم تسيل من فخذها، لقد كبرت يلدا وصارت مراهقة بالغة بعقل طفل في الخامسة، وقتها انقبضَت عضلات فخذي ومهبلي انقباضات مجنونة، انتهت بهرش خثلتي للمرة المليون.

***

انتهت الحرب عام 1988، بعد ثماني سنوات وافق العراق على الشروط الإيرانية وسحب قواته من أراضينا المحتلة، قُسمَت السيادة على قناة شط العرب وتبادلوا الأسرى، هكذا انتهت الحرب بالتعادل، آلاف الوفيات والمصابين والمشردين من الطرفين خلّفتهم الحرب دون أي جدوى، حتى الشعور بالنصر لم يصل إلى كلا البلدين، انتهت الحرب وفي العام التالي توفي آية الله الخميني لتبدأ فترة التسعينيات وتبدأ معها طموحات وأحلام الإيرانيين ومنهم أنا.. كنا واهمين جميعًا كالعادة.

رغم الانفتاح السياسي للبلاد، على سبيل المثال شهدت العلاقات الإيرانية-المصرية (اخترت مصر لكوني زرتها من قبل ومتابعة جيدة لأخبارها أولًا بأول) ازدهازا نوعيًا ضخمًا مقارنة بالثمانينيات، إذ ارتفع مستوى التمثيل الدبلوماسي للبلدين وتبادل الرسائل بين الرئيس رافسنجاني والرئيس المصري مبارك، تبادل اقتصادي، رفض مصر للحظر الأمريكي التجاري على إيران... إلخ، لكن على المستوى الداخلي كانت هناك مضايقات مستمرة للمثقفين العلمانيين، الكتّاب، الشعراء، وحتي المترجمين، كانوا يُقتلون دائمًا في أثناء ذهابهم إلى عملهم أو تبضّعهم أو زياراتهم لأصدقائهم، الكثير من مظاهر الدولة البوليسية ما زالت موجودة إلى الآن.

على المستوى الشخصي لأسرتي كان الوضع يزداد سوءًا، أبي بدأ معاناته مع سرطان الرئة، أعتقد بسبب التدخين والعمل لفترات طويلة في أماكن رديئة التهوية، صار شديد النحول، الأمر الذي جعله أكثر جمالًا. استمرّ في العمل رغم مرضه حتى رفض صاحب العمل استمراره في تلك الحالة.. بعد أن كان أبي يلعب دور الوسيط بين أمّي والعالم، وإيجاد الحلول لأي مشكلات تتعلق بالأسرة، وبعد أن كانت تتوقع منه أن يوفر كل احتياجات المنزل (أنابيب الغاز- الكهرباء- الأجهزة... إلخ)، صارت هي تلعب دور الأب والأمّ معًا، ما زلت أساعدها بالمال، لكن هي مَن ترتب لكل شيء، شعرت أنها تزداد جمالًا مع التقدّم في السنّ، حتى يلدا كانت تكبر وتزداد جمالًا هي الأخرى.

رأيت الجمال في والديّ ويلدا، لكنني لم أستشعره بداخلي سوى لحظات قصيرة، سألت نفسي ذات مرة: ما الجمال؟ كيف يُرضينا الجمال ويجعلنا سعداء؟ وما مقاييسه؟ أعتقد أننا لا يمكننا فهم سِرّ الجمال لكننا نستطيع الاقتراب منه، مجرد الاقتراب منه يملأ أنفسنا بالراحة واللذة، تمامًا مثل الذات الإلهية، لا يمكننا فَهم كُنهها لكن قلوبنا تمتلئ طمأنينة عند القرب منها. الجمال يهرب دومًا من كل تفسيرات الفلاسفة والحكماء، يقف قريبًا منا وعلى وجهه ابتسامة جميلة، وتحول كل الفنون مثل الأدب والرسم والكتابة والسينما... إلخ، بيننا وبينه.

استشعرت الجمال في الإسكندرية، كنت أنظر إلى وجه عادل المليح فتدفأ رُوحي، وأدرك معنى طِيب الحياة، ما زلت أذكر كلمات خطابي الأول والأخير له، بعد مغادرتي الإسكندرية:

صديقي العزيز جدًا/ عادل

أرسل إليك خطابي الأول، لعلّه يصل إليك في نفس توقيت لقائنا الأول، منذ أن تركتك وأنا أعرف أنني سأكتب لك. صدّقني إن قلتُ لك إنّ إحساسي بلقائنا القادم يكاد يصل إلى مرتبة اليقين. كنتَ شابًا شجاعًا وأخًا لطيفًا وصديقًا مخلصًا، لديك قدرة عظيمة على جذب المشاعر الإنسانية إليك، أتمنى أن تكون بخير كل وقت. أجمع شتات صورك في ذاكرة للأسف يأكلها الصدأ، وأرى ملامحك ضبابية أمامي، بقايا كلماتك الأخيرة يرددها

صدى فراقنا، كل ما أذكره عنك -رغم قِلّته- يغمرني بالبهجة، صوتك الدافئ وضحكتك الرقيقة البريئة حدّ الذوبان في الأحلام لهما وقع يملأ شوارع إيران ضجة، لربما تلك الضحكة قادرة على إحياء نفسي لكن في لقاء قادم. هذا الكلام ترجمته لك إلى الإنجليزية لكنها ترجمة لن تضعف الإحساس الأفلاطوني بداخلي: أتمنى أن تقدّر مشاعري غير المفهومة تجاهك، دمت بخير يا عزيزي.

ملحوظة: مرفق بهذا الخطاب بعض الصور لوالديّ ويلدا، فرق السنّ بيننا ليس كبيرًا، أظنك صدقتني الآن.. أتمنى أن ترسل لي على العنوان المدون بالأسفل.

صديقتك الفارسية/ آن سيف الملك.

العنوان: 32 شارع مولوي، طهران.

***

لم يَرُدّ عادل بأيّ خطابات، لم يرسل إليّ حتى خطابًا واحدًا حتى وقت كتابة هذه المذكّرات، لا أعلم السبب بصراحة، أظنه قد انغمس في قصة عشق جعلته ينسى صداقة الترانزيت هذه. تمنّيت له حياة كريمة وسعيدة من كل وجداني، كنت أشعر بسعادة غامرة لمجرد وجود هذه العاطفة غير المفهومة بداخلي، عاطفة غير مرتبطة بشهوة أو ممارسة جنسية، عاطفة أنثى في نهاية العشرينيات -وقتها- تحاول صدّ أنياب الماضي وهي تنهش حاضرها طَوَال الوقت. أحسب أن عادل كان رمزًا للفضيلة دون أيّ سبب منطقيّ، قد يكون ذئبًا مخادعًا يهوى خداع النساء، أو زاهدًا وقت مقابلته في مصر، لكنّ شابًا في نهاية العشرينيات يقابل أنثى جميلة ويزهد فيها لهي العذرية الصافية، قد تكون هناك شابّة أخرى في حياته تسيطر على تفكيره، أشعر بالغيرة للحظات عندما أفكّر هكذا. الخلاصة أن عادل رفض التجاوب في عَلاقة صداقة عابرة للقارات، لكنه ما زال يجول بخاطري بشكل دوريّ كلما مررت بتجربة سيئة.. وما أكثرهم.

في عام 1992 ظهر راغب مرة ثانية في حياتي، غدت إلى شقة والدي من إحدى حصص التدريس المنزلية فوجدته يفتح لي الباب، ابتسم وقال في نبرة مازحة: مفاجأة أليس كذلك؟

لا أستطيع وصف حالتي وقتها، إحساس بالدهشة ممزوج بالغيظ وبعض الرضا برجوعه، إن كان باستطاعتي إغماض عيني وتخيُّل نفسي في حياة زوجية مستقرة مع أحد فإنني سأختار -ويا للعجب-راغب النطاط، الشخص الوحيد الذي رآني عارية بشكل شرعيّ، لم أعرف أحدًا غيره، لم أستخدم حتى حقي في طلب الطلاق منه، كانت هناك محاولات من عشرات الرجال لجذب انتباه وتحريك عواطف الجميلة آن لكنني لم أكن مؤهلة للحب، الأمر أشبه بعرض أفخم الملاجئ عليك تعويضًا عن والدتك التي هجرتك رضيعًا، الملاجئ لا تصلح لإيوائك شابًا، وتلك الأمّ لا تستحق عناء البحث عنها.

جلسنا لتناول الطعام، فأخذت يلدا تلفّ حول نفسها وحول راغب وهي تردد «ذئب.. ذئب».

طلبت الانفراد بزوجي فتركني الجميع معه، صارحته بأن مراوغاته كانت جذابة في البداية، لكنها أصبحت مضجرة.

- تزدادين جمالًا وأنوثة يا آن. لم أنسَ لحظة قضيتها معكِ.

قالها وعيناه تلمعان، ثم أكمل: أريد الرجوع إليك يا آن.. أنا أحبّك.

قلت في صرامة: تريد العودة، لك هذا لكن بشروط: سيارة موديل العام، شقة خاصّة بي، توثيق عقد الزواج هنا في إيران بعد أن أصبح لمصر سفارة. ها، ما رأيك؟

للأسف وافق، شعرت بالغيظ لكوني لا أعرف كيفية إهانته، طلب مني التفكير في إنجاب طفل منه فقلت في غضب: على جثتي، لن أحمل مرة ثانية بعد يلدا.

نظر إلي في حنق وقال: ألا ترغبين في الحمل مني يا آن؟

- نعم، لا أرغب.

قلتها في تحدٍ وقسوة.. فقال في انكسار منصاعًا لقراري: حسنًا.

بعد تنفيذه لشروطي عدنا للعيش معًا، عرفت منه أنه استقر في مصر بعد تصفية أعمال والده -رحمه الله- في فرنسا والاهتمام بالسوق المصري، عرفت كذلك أنه جاء ضمن وفد مصري للتمهيد لبدء اتصالات بين غرف التجارة والصناعة، في محاولة لتدعيم العلاقات الاقتصادية للبلدين. هذا الرجل حالة غريبة من النفعية المتطوّرة، حتى الشياطين كانت لديهم مشاعر كراهية وغرور ناحية الإنسان، تمزدهم نفسه هو نوع من الحياة وإن كانت مشاعر كريهة، لكن طمس كل انفعالاتك وتحويلها إلى نفعية تلبي شهواتك هي مرحلة متأخرة من الشطط العقلي والنفسي.

في ما بعد سوف ألقي باللوم على كل من دفعني إلى الزواج براغب النطاط، بشكل مباشر أو غيره، أمي، أبي، عمّي كامران، المهندس شاهين وأسرته، سألقي باللوم على القدر، ذلك القدر الذي مدحتْ جماله منذ قليل، يستحقّ اللوم، ليس لأنه اكتفى بالمشاهدة، لكن بسبب أنه لم يصهرني داخله بالموت ولا ألهمني طريقًا للتصحيح في الحياة... آه يا زهراء.. اكفلي قلبي يا زهراء.

عاد راغب إلى مصر بعد نحو شهر، لكنه داوم على البقاء معي بشكل ثابت نوعًا ما في السنوات التالية، استمرّ الحال هكذا نحو ثلاث أو أربع سنوات تقريبًا.

كبرت يلدا واقتربت نحو مرحلة الشباب، أمّا أمّها فكانت تخطو خطوات مذهلة نحو الأربعين، كانت تمارس هوايتها في القراءة والموسيقى بشكل يومي، روتين حياتها ثابت لا تغيره يلدا أبدًا (جزء من علاج مرضى التوحد هو تثبيت روتين يومي لهم، إذ إنهم ينزعجون بشدة من أي تغيير بسيط).

في خريف 1996 مرض أبي مرضًا شديدًا، اتصلت بي أمّي لتخبرني أنه قد حُجِزَ بالمستشفى، تعاملت مع الأمر ببرود غريب، ظلّال سنوات حياتي كنت أخاف من فقدانه وأسخط عليه في نفس الوقت، شعرت أن قلقي عليه سيحميه، ووجوده كخصم في مخيّلتي سينقذه من الموت الأكيد، رغبتي في أن يبقى حيًا إلى الأبد سوف تغلفه بالسحر.. اتصلت به هاتفيًا عندما كان راقدًا في أيامه الأخيرة، خاطبته قائلة: «مرحبًا، بابا»، ردّ عليّ قائلًا: هل هذا أنت؟ مارية؟

- لا، هذه أنا، آن. مَن مارية؟

لم يَرُدّ.. أعتقد أن هذا كان هذيان ما قبل الموت مباشرة، أراجع تلك الساعات، تلك الأيام، وأحاول تخيّل كيف كان يحس خلالها، هل كان خائفًا من الموت؟ هل تمسّكه بالبقاء على قيد الحياة خفّف من سكراته؟

في الفجر مات والدي، كانت أمي وأخوه الأكبر بجواره وقتها، وصلتُ إلى هناك فوجدت يلدا نائمة جوار جثته غير مكترثة لما حولها، وتردد: سأنام بجوارك أيها الدبّ، لم أعُد أريد اللعب.

بعد وفاة أبي عُدنا إلى آبيانة لدفنه وإقامة المأتم والطقوس الأخرى، حضر عمّي كامران، رأيته بعد سنوات طويلة، لم ينجب من زوجته بسبب علّة لديها، يقال إنها طلبت منه الزواج بأخرى لكنه رفض، يبدو أن الحب قد طرق بابه بعد كل هذه الأعوام.. علّمني الاغتصاب ألا أجد العزاء في مآسي الناس الآخرين وألا أشعر بالامتنان لأن أناسًا يتعذبون أكثر مني، الوجع والخسارة كالحب، فريدان وشخصيّان لأقصى حدّ، لا يمكن تخفيفهما من خلال المقارنة بالآخرين.

عامان ولم يعُد راغب إلى إيران، عامان كاملان عشت فيهما أشبه بالوحيدة، العمل كان الحائل الوحيد دون الوصول إلى الاكتئاب. لاحظت أنني لم أكن سعيدة بغياب راغب، راغب طاقة إيجابية لها صور عديدة، صحيح أنها طاقة نفعية له فقط، لكن مَن قال إن النفعية ليست مسلّية؟ هذا المذهب قائم في الأساس على إسعاد أكبر

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

عدد من الناس، وما دامت هناك محاولات لإسعاد الذات فستعيش في إثارة طوال الوقت.

أقترب من الأربعين أيها السادة، الناس تنزعج بشدة في نهاية كل عقد من أعمارهم، يرفضون تصديق مرحلة الاقتراب من الموت، محاولين التشبث بالحياة الطبيعية في السنوات الأولى من عقودهم.. شرعت في كتابة مذكراتي نهاية عقدي الرابع، لعل ذلك ينير لي سنوات عقدي الخامس أو يحرق أحداثها بشكل أسرع.

لا زوج، لا أبناء طبيعيين، لا عمل يحتاج إلى حكمة في التعامل معه، في آخر زيارة لأمي نشب خلاف ضخم بيننا، تريد زواجي برجل وتكوين أسرة حقيقية، قالت إنْ راغب يمتلك شيئًا لا أمتلكه، ألا وهو أسرة مستقرة في مصر، أسرة مكونة من زوج وزوجة وأبناء، يجتمعون في منزل واحد، يمضون عطلاتهم معًا، يضحكون أو حتى يغضبون معًا، لهذا قررت ألا أظلم نفسي مع رجل مادي يكبرني بعشر سنوات.. بدأت تدريب نفسي على العيش هكذا، على النفعية مثل راغب، الباقي من العمر سيكون لي أنا، حتى المال الذي كنت محتفظة به سأنفقه على أهوائي وملذاتي، سأختار رجلًا يعجبني وليس رجلًا يتأوه من الأمراض في شيخوخته بعد أعوام قليلة، هذا الرحم لن ينجب أطفالًا مرة أخرى، لن يحمل حياة مشوهة بين جنباته مرة ثانية ولو بالقوة.. قمت بشراء ملابس جديدة، علب ماكياج، حضور ندوات نسائية، جربت كل ما هو مثير ومختلف.

الآن، تمنيت ذات يوم أن أكون امرأة من خشب، تمثالًا لامرأة لا أعرفها يوضع في ساحة لا أعرفها، امرأة بلا إحساس، كم كنت غبية بإهمالي لمشاعري، فالإحساس نعمة لا ينالها إلا المعذبون مثلي، الآن وبعد تحقيق كثير من الأمنيات، بقي قلبي من خشب باهت اللون يقوم بوظائف القلب العادية دون أي مشاعر، لم أحافظ على إحساس المعذبين ولا نلت سعادة المحظوظين.

اتخذت قرار السفر لبلاد أحببتها كثيرًا، وأرغب في زيارتها بشدة، مصر، لعل هذه الرحلة تعيد لي إحساسي وتهديني لين القلب، وتحقق ما يجيش في النفس منذ عالم الأرواح.

طهران.. أكتوبر 1999.

* ملحوظة: بعض أوراق الدفتر لم يُعثر عليها لكنها لم تؤثر على سير الأحداث.

***

ثارت القطة الشيرازي عندما قرأت تلك الفقرة من الأوراق وأخذت تدور حول نفسها، حاولت الجهيزة التحدث معها بهدوء دون فائدة، بدأت في قراءة آيات قصيرة من القرآن ومناداة الزهراء (المقصود هنا فاطمة الزهراء كعادة الشيعة)، لكن يلدا أخذت في قطع الأوراق وإلقائها من النافذة في غضب.. اقتربت منها الجهيزة في سرعة وبدأت في تهدئتها..

- اهدئي يا جوون (تعبير بالعامية الإيرانية يعني "عزيزتي").

أسلمت الحفيدة وهدأت بين أحضان أنثى الدبّ وقالت: النمرة خائفة يا جدّتي.. خائفة جدًا.

***

الإسكندرية، ديسمبر 1999..

اقتربت امرأة في الأربعين من إحدى الوحدات العسكرية في تردُّد، امرأة إيرانية تتجه نحو مبنى قيادة المنطقة الشمالية العسكرية، أمر يثير الشكوك والتساؤل بالتأكيد. تردُّدها كان نابعًا من درايتها باضطراب الأمور السياسية نوعًا ما بين مصر وإيران.. قابلَت جنديًا فارع الطول أسمر البشرة يرتدي الزيّ العسكري، ابتسمت له في تردد فبادلها الابتسامة في ثقة، حمله السلاح أمام سيدة جميلة جعله راضيًا عن نفسه بشكل ملحوظ.

- لو سمحت، هل لي بمقابلة قائد الوحدة؟

قالتها بإنجليزية بطيئة كي يفهمها.. تبيّن من سؤالها كلمة «general» فشعر بأهمية السؤال، تفحص

عدد من الناس، وما دامت هناك محاولات لإسعاد الذات فستعيش في إثارة طوال الوقت.

أقترب من الأربعين أيها السادة، الناس تنزعج بشدة في نهاية كل عقد من أعمارهم، يرفضون تصديق مرحلة الاقتراب من الموت، محاولين التشبث بالحياة الطبيعية في السنوات الأولى من عقودهم.. شرعت في كتابة مذكراتي نهاية عقدي الرابع، لعل ذلك ينير لي سنوات عقدي الخامس أو يحرق أحداثها بشكل أسرع.

لا زوج، لا أبناء طبيعيين، لا عمل يحتاج إلى حكمة في التعامل معه، في آخر زيارة لأمي نشب خلاف ضخم بيننا، تريد زواجي برجل وتكوين أسرة حقيقية، قالت إنّ راغب يمتلك شيئًا لا أمتلكه، ألا وهو أسرة مستقرة في مصر، أسرة مكونة من زوج وزوجة وأبناء، يجتمعون في منزل واحد، يمضون عطلاتهم معًا، يضحكون أو حتى يغضبون معًا، لهذا قررت ألا أظلم نفسي مع رجل مادي يكبرني بعشر سنوات.. بدأت تدريب نفسي على العيش هكذا، على النفعية مثل راغب، الباقي من العمر سيكون لي أنا، حتى المال الذي كنت محتفظة به سأنفقه على أهوائي وملذاتي، سأختار رجلًا يعجبني وليس رجلًا يتأوه من الأمراض في شيخوخته بعد أعوام قليلة، هذا الرحم لن ينجب أطفالًا مرة أخرى، لن يحمل حياة مشوهة بين جنباته مرة ثانية ولو بالقوة.. قمت بشراء ملابس جديدة، علب ماكياج، حضور ندوات نسائية، جربت كل ما هو مثير ومختلف.

الآن، تمنيت ذات يوم أن أكون امرأة من خشب، تمثالًا لامرأة لا أعرفها يوضع في ساحة لا أعرفها، امرأة بلا إحساس، كم كنت غبية بإهمالي لمشاعري، فالإحساس نعمة لا ينالها إلا المعذبون مثلي، الآن وبعد تحقيق كثير من الأمنيات، بقي قلبي من خشب باهت اللون يقوم بوظائف القلب العادية دون أي مشاعر، لم أحافظ على إحساس المعذبين ولا نلت سعادة المحظوظين.

اتخذت قرار السفر لبلاد أحببتها كثيرًا، وأرغب في زيارتها بشدة، مصر، لعل هذه الرحلة تعيد لي إحساسي وتهديني لين القلب، وتحقق ما يجيش في النفس منذ عالم الأرواح.

طهران.. أكتوبر 1999.

* ملحوظة: بعض أوراق الدفتر لم يُعثر عليها لكنها لم تؤثر على سير الأحداث.

***

ثارت القطة الشيرازي عندما قرأت تلك الفقرة من الأوراق وأخذت تدور حول نفسها، حاولت الجهيزة التحدث معها بهدوء دون فائدة، بدأت في قراءة آيات قصيرة من القرآن ومناداة الزهراء (المقصود هنا فاطمة الزهراء كعادة الشيعة)، لكن يلدا أخذت في قطع الأوراق وإلقائها من النافذة في غضب.. اقتربت منها الجهيزة في سرعة وبدأت في تهدئتها..

- اهدئي يا جوون (تعبير بالعامية الإيرانية يعني "عزيزتي").

أسلمت الحفيدة وهدأت بين أحضان أنثى الدب وقالت: النمرة خائفة يا جدّتي.. خائفة جدًا.

***

الإسكندرية، ديسمبر 1999..

اقتربت امرأة في الأربعين من إحدى الوحدات العسكرية في تردُّد، امرأة إيرانية تتجه نحو مبنى قيادة المنطقة الشمالية العسكرية، أمر يثير الشكوك والتساؤل بالتأكيد. تردُّدها كان نابعًا من درايتها باضطراب الأمور السياسية نوعًا ما بين مصر وإيران.. قابلَتْ جنديًا فارع الطول أسمر البشرة يرتدي الزيّ العسكري، ابتسمت له في تردد فبادلها الابتسامة في ثقة، حمله السلاح أمام سيدة جميلة جعله راضيًا عن نفسه بشكل ملحوظ.

- لو سمحت، هل لي بمقابلة قائد الوحدة؟

قالتها بإنجليزية بطيئة كي يفهمها.. تبيّن من سؤالها كلمة «general» فشعر بأهمية السؤال، تفحّص

ملامحها الشرقية فزادت حيرته، كان لسانها ينطق بلغة غربية لكن هيئتها لا توحي بذلك.

- No.

قالها في صرامة دون داعٍ.

كررت الطلب مرة ثانية، فنظر يمينًا ويسارًا بحثًا عن نجدة تخرجه من هذا المأزق، وجد أحد زملائه خارجًا من المبنى فطلب منه مناداة ضابط الأمن، بعد دقائق خرج الضابط وبدأ في التفاهم مع السيدة، كانت تريد عنوانًا لأحد العساكر الذين خدموا بهذا المكان منذ نحو خمسة عشر عامًا، عرف جنسيتها فتحسس سلاحه على الفور، لا أمان لليهود والفرس، بل إنّ الإيرانيين ألعن من اليهود بكثير، هكذا تعلّم دومًا. هدأ من روعه قليلًا كونها أنثى، وأمر بتفتيشها وتفتيش حقيبتها الشخصية، تفهّمت الأمر، ثم صعدا إلى قائد المنطقة.

- صديق قديم أبحث عنه.

كانت هذه إجابتها عن السؤال المنطقي من قائد الوحدة.

- صديق؟! لماذا تسألين عن عنوان إقامته؟ لا أحد يبحث عن عناوين الأصدقاء بوحداتهم العسكرية القديمة.

حاولت تفسير الأمر له إلا أن الشك كان مسيطرًا عليه، ورغم هذا طلب البحث في الأرشيف.. بعد نحو نصف ساعة من الضيافة والأسئلة التحقيقية البسيطة، حضر أحد الضباط وانحنى محدثًا قائده في همس، وأدركت من ملامح وجهه أن الأمور معقدة نوعًا ما. سألها في شك: مدام آن، أنتِ متزوجة من مصري، أليس كذلك؟

- بلى، جئت للبحث عنه هو الآخر.

- هذا تصرف غريب نوعًا ما، تسألين عن الصديق قبل الزوج.. المهم.. صديقك هذا لم نستطع الحصول على معلومات تخصه، أما زوجك فاسألي عنه قسم الشرطة الذي يتبعه.

- شكرًا، آسفة على الإزعاج.

قالتها آن على استحياء ثم خرجت في حالة تشوّش قليلًا، بعدها نظر القائد إلى ضابط الأمن ثم ابتسم في جذل قائلًا: يا للنساء.

***

بعد نهار بائس في الإسكندرية، حاولتْ إعادة رُوح لياليها السعيدة مع عادل لكنني فشلت أيضًا.. لم يتغير شيء في عروس البحر الأبيض، البحر كما هو، فندق «هلنان فلسطين» ما زال قائمًا، القلعة، شارع النبي دانيال كما هو، الإسكندرية ما زالت موجودة لكنها لم تعُد تنبض بالحياة، كل شيء صار مشوهًا بعيدًا عن الماضي، صار لونها باهتًا، تجمّدت بفعل العواصف الباردة حتى صار بحرها بلون زرقة الجثث.. الإسكندرية من دون عادل أيها العالم، وهذا لعمري ضربة موجعة أيها السادة، هنا قررت الذهاب إلى العاصمة، قاهرة المُعِزّ.

عندما وصلتُ إلى محطة رمسيس، كان الضيق قد بلغ مُنتهاه، حدثت مشادّة كلامية بيني وبين أحد ركاب القطار، كما بصقتُ على أحد سائقي الأجرة قام بملاحقتي باعتباري سائحة يريد استغلالها، ركبت سيارة أخرى انطلقت في شوارع المحروسة تنهب الأرض نهبًا، حاولت إشباع عيني بكل ما تقع عليه عيناي لتناسي البداية الفاشلة، الناس، الشوارع، البيوت... إلخ، الوضع في القاهرة لا يختلف كثيرًا عن طهران، نساء محجبات، رجال أنهكهم الفقر، أطفال تتحسس السعادة في هذه البيئة القاسية.

- الزمالك من فضلك.

لم يحلُ لي راغب عن المنطقة التي نشأ بها أيّ شيء، قال إنّ فيلا والده فهمي النطاط تقع في شارع الزمالك فقط. لكن ذاكرتي كانت تحمل حصيلة قراءات كثيرة عن مصر ومعالمها، فكنت أشاهد بعيني كل ما

قرأته وأنا داخل السيارة وأمرّ على كل مَعلَم وشارع قرأت عنه، فاكتشفت مئة عام من الحياة الأرستقراطية ذائبة في جدران البيوت هناك.. برج القاهرة، دار الأوبرا، فندق «ماريوت» وهو في الأساس قصر بناه الخديوي إسماعيل لاستضافة ضيوف حفل افتتاح قناة السويس. تابعته في انبهار (لو علمت آن أن القصر أُمّمَ عام 1962 وتحوّل إلى فندق باسم عمر الخيّام، الشاعر الفارسي الأشهر، لَزادَ انبهارها).. توقفت السيارة فجأة ووجدت السائق يلتفت إليّ قائلًا: أيّ شارع تريدين الذهاب إليه تحديدًا في حيّ الزمالك يا سيدتي؟

لم أكن أعرف رقم بيت راغب، كنت معتقدة أن الزمالك شارع وليس جزيرة ضخمة في النيل بهذا الحجم.

- لا أعلم، خُذني في جولة سياحية.

قُلتها بالعربية الركيكة.

طلب السائق الأجرة بالدولار، فوافقت، لم يختلف هذا السائق كثيرًا عن سابقيه.. سألته عن مكان للإقامة بالزمالك، فأشار علي بالـ«ماريوت» أو «هيلتون» أو فندق «سوفتيل»، استنتجت من أسماء الفنادق غلوّ أسعارها، شعر الرجل بإحباطي عندما نظر إلى وجهي بالمرآة، فآثر عدم إحراجي وقال بإنجليزية مهلهلة: هذه الفنادق غالية جدًا جدًا، أعرف فندقًا متوسط المستوى لكنك ستشعرين هناك بجمال مصر الحقيقي، لا أحد يقيم في الـ«هيلتون» إلا في حالة اتجاره بالمخدرات.

قالها ضاحكًا بالإنجليزية وأخذ يكرر كلمة مخدرات بشكل كوميدي كأنه يتعاطاها.

- drug.. drugs.

في الطريق، مررنا بكوبري قصر النيل، عقّبت على جمال الأسدين المصنوعين من البرونز في مدخله، فابتسم متجهًا ناحية حي جاردن سيتي.. شارع إبراهيم نجيب تحديدًا.

***

أحببت بنسيون «فلوباتير» كثيرًا، أحببته أكثر من فندق «هلنان» وفندق «نابليون دي كريون» بباريس، هل تتخيلون هذا؟ وجدت راحة نفسية غير طبيعية بذاك المكان الهادئ، فتحت لي صاحبته الباب فشدّتني طِيبتها بشكل سريع، مسيحية هي تُدعى مدام فادية، مسيحية مهذبة لا تحمل ضغينة لأي ديانة أو جنسية، أعتقد بسبب كثرة الجنسيات والديانات والأفكار التي مرت عليها، بالإضافة إلى طابع شخصي متأصل فيها، طلبت مني جواز السفر وملأت البيانات.. قالت في دهشة: إيرانية؟! هذا غريب بعض الشيء، لا يوجد إيرانيون في مصر على ما أتوقع.

كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة شديدة.. كنت أحتاج رأي أيّ مصري في تلك الورطة.

- مصر بلد جميل، تجذب جميع الجنسيات إليها، لكنني لست هنا للسياحة للأسف.

نظرتْ إليّ في شك فاستطردتُ كي لا تشطح بظنها بعيدًا: تزوّجتُ مصريًا يعمل مهندسًا في إيران، وجئت للبحث عنه.

سمعتني باهتمام لكنها لم تعلّق، أشارت إلى إحدى العاملات فجاءت بمشروب الضيافة.. بعد دقائق قالت في طِيبة: نتحدث في أمر زوجك بعد الاستحمام والراحة من عناء السفر.

وافقتها، كانت من أسرع الشخصيات دخولًا إلى قلبي.

بعد النوم فوجئت بأحدهم يطرق باب غرفتي حاملًا صينية من الطعام، ملوخية، عرفتها على الفور، أكلت في نهم، ثم بدأت السمر مع مدام فادية من المغرب حتى منتصف الليل تقريبًا، سألتها بشكل مباشر: هل أستطيع استئجار أحد الأشخاص للسؤال عن زوجي يا سيدتي؟

- لِمَ لا تسألين عنه بنفسك يا سيدة آن؟

- لا أرغب أن يكون السؤال من خلالي بسبب جنسيتي.

ترددتُ كثيرًا قبل أن أخبرها بالسبب الأهمّ: صراحة.. ستفهمينني بالتأكيد يا مدام فادية، في الحقيقة.. أممم، أنا الزوجة الثانية لراغب، ولا أريد التسبب له في أي مشكلات مع أسرته هنا في مصر.

حكيت لها قصّتي مع راغب، دون الخوض في أسباب قبولي لهذه الزيجة، كذلك لم أتطرق إلى بحثي عن عادل، لم أرد تشويه صورتي أمامها، الشعوب الإسلامية كلها لا تعترف بالصداقة بين المرأة والرجل، فما بالك بسيدة متزوجة؟

سألتها في اهتمام بعد أن انتهيت: هل توجد مكاتب للسؤال عن المفقودين ومحاولة التواصل معهم؟

لم تهتمّ بسؤالي وهتفت في تعجّب، محاولة خفض صوتها: الزوجة الثانية؟! أنت فاتنة يا آن خانوم، فاتنة إلى حدّ مخيف، لا أريد الدخول في حياتك الشخصية لكن لِمَ قَبِلْتِ بهذا الوضع؟ هل هو وزير؟

قالتها وضحكت حتى القهقهة، ذكّرتني هذه السيدة بنزهت خانوم. بعد تفكير عميق قالت: لدي فكرة.. يوجد هنا طبيب مقيم في البنسيون منذ فترة، اسمه هادي، لا يعمل حاليًا، من الظهيرة حتى وقت النوم لا يبارح الأريكة، خلفك هناك.

التفتُّ إلى حيث تشير، وجدته شابًا نحيلًا، يرتدي النظارات الطبية، شاردًا بعض الشيء. أكملَت مدام فادية: إنه طيّب القلب ولن يتأخر عمّن يطلب مساعدته، ثم إنك فاتنة يا خانوم.

قالتها ثم ضحكت مرة ثانية.. هذه المرة ذكّرني ضحكها بالخالة كأنّ زوجها حلّت في هذه السيدة بعد موتها.

صعد إلى غرفته بعد دقائق، يبدو أنه لاحظ حديثنا عنه، أخبرتها أنني سأتحدث إليه في الصباح، لا بديل آخر.. شكرتها على اهتمامها وعلى الملوخية ثم تمنيت لها أحلامًا سعيدة.

في غرفتي، هاجمني شعور بالاغتراب: مَن أنا؟ مَن هؤلاء؟ أين نحن؟ ولماذا أنا هنا؟ ثوانٍ معدودات ثم انتهى كأن لم يكن، لكنه خلّف وراءه تساؤلات مهمة: لماذا أبحث عن راغب الآن؟ هل أنا مهتمة بالفعل أم فقط لإراحة ضميري؟ الأمر بعيد تمامًا عن كل هذا، صراحة أنا لا أبحث عن راغب، أنا أبحث عن نفسي وسأجدها، كل ما في الأمر أنني أريد إنهاء هذا الفصل من القصة ما دمت جئت إلى القاهرة، هناك فصول ما زالت قادمة سيكون تأثيرها أفضل علي بالتأكيد. وقفت أمام المرآة ثم تدربت كثيرًا لمواجهة الدكتور هادي في الصباح، يبدو شابًا لطيفًا، توقعت ألا يرفض طلبي السخيف.

في الصباح حدث ما توقعت، لم يرفض، في البداية تردد لكنه وافق بعد محايلة، كان غاضبًا بعض الشيء من تلميح مدام فادية بكونه عاطلًا عن العمل، وشرح لي أنه مهاجر إلى كندا في القريب.. كان في أول العقد الرابع، له صوت رقيق أغلب الوقت ودائمًا ما تشعر أنه يخجل من قول شيء ما، كأنه يريد البوح بشيء ثم يتراجع في اللحظة الأخيرة، يرتدي منامة شتوية طوال الوقت، شعره طويل منسدل على عينيه ولا ينظر ناحيتك عند الكلام، مسيحي، يبدو أن أغلب الحضور هنا مسيحيون، عرفت كذلك من المدام أنه يمرّ بأزمة عاطفية قاسية.

بعد أسبوع كامل أبلغني هادي أن زوجي العزيز قد هاجر إلى أستراليا مع زوجته وأبنائه. أصدقكم القول، لم أشعر بخيبة الأمل أو الغضب على الإطلاق، مرّ أمامي شريط طويل من الذكريات مع زوجي، نقّبت فيه عن ذكرى لها أثر إيجابي فلم أجد، حتى الإحساس الغامر بالألفة صار نسيًا منسيًا مجهول المصير.. صحيح أن الفراق له قواعده، وحياتي من دونه مجهولة المعالم، لكنها بالتأكيد ستكون سعيدة، مغتصبة ومتزوجة مع وقف التنفيذ ولديها ابنة مريضة بالتوحد وأب متوفّى، أعتقد أن القادم سيكون أفضل ما لم أصب بالإيدز أو تنفجر الطائرة في رحلة عودتي إلى طهران، تخيّلت انفجار الطائرة فانتابتني نوبة من الضحك، رمقني هادي في دهشة على غير عادته، ثم ربت على كتفي في أسف، نظرتُ إليه في امتنان ثم أجهشت بالبكاء داخل

أحضانه كالأطفال.. اعتذرتُ عمّا بدر مني وصعدتُ إلى غرفتي.

تمنّيت لراغب من داخلي حياة سعيدة وعدم العودة إليّ في نفس الوقت، راغب مرحلة وانتهت، يجب أن أفهم هذا جيدًا، وأحاول الدخول في مرحلة جديدة، تأكدت الآن من سِرّ بحثي عنه، الأكيد أيضًا أنني لو كنت قابلت راغب لكنت طلبت منه الانفصال، أو هددته بفضح أمره إن لم يفعل، كنت صارمة بعدم حبي وأعتقد أنه عرف ذلك، أيًا كان ما حدث فالقصة انتهت مع راغب، وأعدكم إلا أعود للتفكير فيه مرة ثانية.

في المساء خرجت للتجوّل في الشوارع دون هدف، حفظت عنوان البنسيون، ورفضت استقلال سيارة أجرة، كنت أحتاج إلى السير في الشوارع.. هناك تحديات كثيرة داخل نفسي لا أعرف كيفية التغلب عليها، ما أجمل التحديات الخارجية، ذلك العدوّ الواضح الذي تشير ناحيته قائلًا: «سأنتصر عليك»، أمّا وساوس العقل فهي شياطين تعبث بنقاط ضعفك كالخرقة البالية في يد عاملة نظافة نشيطة.. مصر التي تعشّمت أن تكون بداية جديدة لم تكُن سوى فصل النهاية، فصل بائس آخر من فصول قصّتي الكئيبة..

كان الوقت متأخرًا، بعد أن تمشيت قليلًا وجدت ميدانًا ضخمًا على مرمى البصر، يشبه ميدان ساحة الحرية بطهران.. في طريقي إلى هناك قابلني اثنان من الأشكال الغريبة التي تواجه النساء ليلًا.

- هذه الجميلة جعلت جسدي هائجًا.

لم أفهم ما قالاه لكنها أمور لا تحتاج إلى شرح.

-لِمَ لا نأخذها إلى الجراج؟

لم أنتظر سماع المزيد، في الغالب كانوا يتفقون على اغتصابي أو على الأقل التحرش بي، عمومًا العواقب النفسية كارثية في الحالتين. بدأت في الصراخ والجري في اتجاه الميدان، حاولا اعتراضي لكنني كنت عنصر المفاجأة، بدأ الزمن في الوقوف، المارّة القليلون توقفوا وأنا الشيء الوحيد المتحرك بها، أعرف أنهما لن يعدوا خلفي، حذائي من النوع الكعب العالي لكنني أستمرّ في الجري دون توقُّف، وصلت إلى الميدان وكل من فيه يحملق فيّ حتى تواريت في شارع جانبي.

اللعنة على كل الذكور، اللعنة على الغرائز، اللعنة على الأعضاء التناسلية الحمقاء التي تشوّه كل ما هو جميل، اللعنة على هذا العالم وهذه الأرض، اللعنة على ذاتي، وعلى هذا الرحم الملعون الذي لا يجذب سوى الأوغاد والحقراء، سأنتهي منك أيها السافل، لن أستسلم، لن أعود لإخفاقات الماضي والبحث عن شماعة لاستكمال حياتي.

لحسن حظي أن الله منّ عليّ بهذا البلد المبارك برأس الحسين، قررت التبرك بزيارة ضريح الحسين والعودة إلى طهران نظيفة تمامًا (الشيعة يقدّسون الحسين بشكل خاص لأنهم يعتقدون بزواجه بأميرة فارسية ابنة آخر أكاسرة الفرس وتُدعى شهربانو، أي ملكة النساء باللغة العربية، وأنه أنجب منها عليًا زينُ العابدين وأن جميع الأئمة الاثني عشر من نسلها)، سأعود طفلة صغيرة لا يشغلها المجتمع والتحرش ودم الدورة الشهرية والبحث عن الأزواج الخائنين.

«حُسين منّي وأنا مِن حُسين».. كان حديث الرسول محمد المكتوب على جدار المسجد من الخارج هو أوّل ما وقعت عليه عيناي هناك. دلفتُ إلى المسجد الذي يشعّ رُوحانيات، وجدت حلقات ذِكر رغم الوقت المتأخر، وقفتُ ما يقارب ربع ساعة حتى ألقيت السلام على سِبط رسول الله. كانت صيحات المستنجدين تملأ جنبات المقام الشريف، مختلطة مع أصوات عديدة، أنين، ابتهال، توسّل ورجاء، ارتجاف ودعاء، الكل يَنشُد القُربَ حبًا في آل بيت رسول الله. يبدو أنه المسجد الأقرب إلى قلوب المصريين مثلنا تمامًا، جميع المصريين مريدون ومحبون للصوفية، مَن منّا لا يرجو مِن الله أن يحشره مع الحسين؟!.. اقتربتُ من الضريح ووقفت بجوار بابه، قلت منادية الحسين: يا حسين، يا سيّد شباب الجنة، الموت لم يغد يشغلني قدر عفوك، والأسى يرفرف بأجنحته مِن فوقي ينتظر ابتسامة رضاك ليبتعد. هل زيارتي في مرقدك ستذيب سخط الدنيا أم أن حزني

غايتك؟ لا أطيق العيش، فأخرجني من ظلمات جسدي، حُبُك باطني ومستقبلي، وخطني أني لم أعِش طفلة في حاضرك تفرح برؤياك، سامح الأمة الفقيرة إن كانت قد أذنبت ولا تردّني خائبة في بلد غريب وكل البلاد موطنك، ونور جذك لا تردّني خائبة، لا تردّني خائبة.

كان صوتي عاليًا، خصوصًا في طلبي الأخير، فمال عليّ أحد المريدين ممن أفنوا عمرهم هنا، كان يشبه المجاذيب قليلًا، قال: سيدنا يقول لك: «لا أحد يأمن مكره إلا بالعمل الصالح».

ارتجف جسدي وغمرتني الكرامات، توضأت وصليت في مصلى للسيدات، بعدها شعرت بشوق شديد إلى آبيانة وفكرة بلهاء تنمو بداخلي حتى نضجت سريعًا واحتضنت أسوأ مخاوفي و.. اتخذت القرار.

***

- أريد استئصال الرحم.

قلتها لصديقي الجديد ورفيق البنسيون في أثناء تناولنا طعام العشاء مع مدام فادية..

اعترضا على طلبي بشدة، فلم أجد مفرًا بديلًا من مصارحتهما بشأن واقعة اغتصابي، لن يفهم أحد هذا القرار سوى صاحبه، ليس عن قلة إحساس منها -لا سمح الله- ولكن لأنه قرار شخصي جدًا، أعرف جيدًا أن رحمي سليم كرحم طفلة، لكن السلامة العضوية لا تعني أبدًا أنك معافى بالكامل، هناك جمرة من النار بداخلي كأنني أحمل شيطانًا به، عقلي يرفض فكرة الحمل مرة ثانية، ويكفيني ظلمي لراغب حتى وإن لم يشك مِن هذا.. لن أنتظر خمس سنوات كاملة حتى أصِل إلى سِنّ اليأس، اتخذتُ قراري ولن أعود فيه.. توقعتُ استمرار رفض هادي بالطبع لكنه لم يخذلني كعادته، كان طيّب القلب يريد مساعدتي فعلًا، خصوصًا بعد فشلنا في العثور على زوجي.

بدأ في التواصل مع أحد زملائه المتخصصين في «النساء والتوليد»، رتّب معه الأمر، وذهبنا فجر اليوم التالي إلى المستشفى الذي يعمل به. كنت خائفة للغاية، أراد هادي أن أمثّل دور المريضة وصديقه في المستشفى سيكمل باقي التمثيلية. وصل بي الرعب مبلغه عندما وجدتُ طبيب التخدير معنا في الغرفة، كان معه حقنة بها سائل أبيض، ابتسم ثم حقنني بها في الوريد.. أفقت بعد نصف ساعة فقط، فوجدت هادي وصديقه أمامي يبشّراني بنجاح العملية، ثم قال صديقه -الذي لم أعرف اسمه- في صوت تسرّب إليه الخوف: يجب أن تخرجا من هنا سريعًا قبل نوبتجية الصباح.

غدت مع هادي إلى البنسيون، كنت أشعر ببعض الوهن والنوم يداعبني بشدة، وفي بطني ألم بسيط. قامت مدام فادية بالسهر معي ليلتها.. في الصباح قام هادي بالتغيير على مكان الجرح. ودّعته وشكرته على كل شيء.

اقترب ميعاد سفري، بدأت في تجهيز حقيبتي، كنت أشعر بالنشاط، والتفاؤل يملؤني بعد الخلاص من كابوس الرحم، فجأة وجدتُ مدام فادية تقف حزينة في منتصف الحجرة.

- هل سنراك مرة ثانية؟

قالتها مدام فادية وهي تحاول كبح دموعها.

- سأعود إلى القاهرة مرة أخرى بالتأكيد، صدقيني، أرغب في البقاء هنا بقية حياتي، لكنني أحتاج إلى يلدا، أن أنسيها كل السنوات الكئيبة الماضية، كنت أمًا قاسية يا صديقتي، لن أعود لحياة اليأس مرة أخرى.

قالت في رقة وهي تنظر إليّ وعيناها مغرورقتان بالدموع: يعلم الله أنني لم أتعلّق بنزيل مثلما تعلّقتُ بك منذ أول لحظة رأيتك فيها.

احتضنتها بقوة وهمست في أذنها قائلة: شكرًا لك أيتها السيدة الرائعة أنك صدّقتِ حكايتي، أمور كثيرة

سأحكيها لأمي وصغيرتي يلدا عنك، سأكتب لك عنواني ورقم هاتفي في إيران لنتواصل.

تذكرتُ عادل وقتها وتساءلت بيني وبين نفسي: تُرى أين هو؟

بعد وداع مدام فادية، خرجت من البنسيون لأجد سيارة أجرة في انتظاري، أجرتها مدفوعة مسبقًا.. في إيران لم يكن لي أصدقاء مقرّبون، هنا في مصر أصبح لي أخوان طيّبان، أشرتُ لمدام فادية بيدي مودعة، ثم هدر محرك السيارة لتنطلق بي إلى مطار القاهرة، طلبت من السائق الذهاب أولًا إلى أقرب سنترال لإبلاغ أمّي بميعاد وصولي.

- تليفون.. تليفون.

فَهِمَ مقصدي وتوجّه إلى سنترال الفوالة.

***

---

(1) في ما بعد سيقرر الشيخ علي جمعة مفتي مصر الأسبق، جواز إضافة لقب العائلة الكافل للطفل المكفول قياسًا بالولاء، الذي هو جائز شرعًا، وانتفاء التبني المحرّم شرعًا بحيث يحفظ له حقوقه المدنية، ويتساوى في هذا الجنين الناتج من اغتصاب أجنبي أو أحد المحارم، مع اعتبار أن الاغتصاب من قِبَل أحد المحارم أشدّ جرمًا وأكبر إثمًا، عند الله ثم عند الناس، وبالتالي يحق للمرأة التخلّص من ناتج الاغتصاب.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

هادي ميخائيل عزيز

(طريد وبتول)

سفارة كندا بالقاهرة- جاردن سيتي

31 ديسمبر 1999

الثانية عشرة ظهرًا

كانت هذه المرة الأولى التي أرى ملامحه بوضوح تام، لمحته مِن قَبل عدة مرات داخل السفارة لكنني لم أدقق النظر فيه، الجسم النحيل والذقن المدبب، النظارات الصغيرة والشعر البُني المصفف بعناية، كان يرتدي جاكيت بُني اللون ومن أسفله هاي كول أبيض وبنطال من الجينز الأزرق، ملابسه كانت مكرمشة وعليها آثار دماء وتراب كأنه انتهى للتو من جريمة قتل، كان ثائرًا بشدة، أخذ يصرخ في موظفة السفارة بشكل غريب حتى تدخّل رجال الأمن وسيطروا على الوضع بسرعة، أسند ظهره على الحائط ثم أخذ يبكي في يأس حتى غادر المكان، هنا تملّكني الفضول وهممت بسؤال الموظفة قبل أن تشير هي لي وتناديني: مستر سامح غبريال، تفضل هنا.

كدت أسألها عن سبب صراخ الرجل في وجهها لكنها بادرتني قائلة: أنت من المحظوظين يا سيد سامح، بعد رفضنا هذا الهمجي وقع الاختيار عليك كأفضل الموجودين بقائمة الانتظار للهجرة إلى دولتنا العظمى.

صراحة نسيت الرجل تمامًا وبدأت الفرحة تغزو جسدي بشكل سريع، تلك الفرحة التي تحيطك من كل الجوانب فتغوص فيها ويصبح كل ما حولك -مهما كان بسيطًا- له طابع سعيد، لم أنفعل بالطبع، الهدوء طبع متأصل داخلي.. حدّدت الموظفة ميعاد السفر، كان كل شيء يسير بشكل أكثر من رائع، إلغاء تصريح الهجرة لأحدهم لتأتي لك الفرصة على طبق من فضة وتحلّ محلّه، مفاجأة لن تتكرر كثيرًا.

خرجتُ من باب السفارة بعد نحو نصف ساعة، أدندن أغنية شهيرة في تلك الفترة، كنت غائصًا في فرحتي، ألقيت التحية على فرد الأمن المعيّن للحراسة من الخارج وأخرجت ورقة فئة العشرين جنيهًا تحية له فرفض على غير عادة أفراد الأمن البسطاء، يبدو أن هناك تعليمات صارمة بذلك لكل أفراد الأمن بهذا الحي الملقب بحي السفارات (الولايات المتحدة، السعودية... إلخ)، فجأة لمحت الرجل إياه جالسًا على الرصيف بعيدًا عن مبنى السفارة بنحو عشرة أمتار أو يزيد، اتجهت إليه دون تفكير وربتُ على كتفه من الخلف، توقعت ثورة أخرى منه، لكنه التفت نحوي بابتسامة خفيفة وآثار الدموع ما زالت بعينيه، خلع نظاراته في بطء ومسحها بطرف قميصه، توقعت فهمه أنني أواسيه لكنه وضع النظارات ونظر إليّ في تساؤل، استجمعت شجاعتي وقلت محاولًا التخفيف عنه: هذه ليست الفرصة الأخيرة، صدّقني، عدم التوفيق في محاولة لا يعني نهاية العالم.

أشار لي إشارة بمعنى أنه لم يعُد يهتمّ، فجلست بجواره فوق مجموعة من الأوراق التي أحملها بصفة مستمرة كلما قدمت للسفارة، أذكر أنني أحاول مواساته فسألني عن اسمي.

- سامح غبريال، مهندس خز.

شعرت أن قلبه اطمأن لما سيحكيه أو أنه سيتكلّم بأريحية أكثر، قلت متسائلًا: ما سبب ثورتك؟

رد سؤالي بآخر قاله في هدوء: هل أنت مَن اختاروه للسفر مكاني؟

أومأتُ برأسي بالإيجاب ونظرتُ إليه آسفًا، الغريب أنه لم ينتظر سؤالي، وبدأ في الكلام مباشرة، حكى الكثير عن حياته وسبب تفكيره في الهجرة.

استقرّت قصته داخل ذاكرتي حتى الآن، قصة هادي ميخائيل عزيز، ذلك الشاب الذي جعل مني واحدًا من

كبار رجال الأعمال في كندا.

نهار آخر أيام عام 1999 كان له مذاق خاص، مذاق مثير، يجعلك تفكر في قاعدة ننساها كثيرًا: لا شيء يحدث صدفة.

***

قال هادي: هل تريد الثراء السريع يا سامح أم ستكون هاني عازر جديد؟ أيًا كانت إجابتك، سأخبرك بالميزة الأهم في الهجرة، أنت تهاجر لتكون سامح غابريال، سامح غابريال لا أكثر ولا أقل، أن تبحث عن ذاتك وذات أولادك من بعدك، تريد أن تكون عاديًا، تريد أن تكون من الأغلبية وليس الأقلية، الأغلبية تجعلك مطمئنًا، تجعلك مرتاح البال، لا يوجد من ينتظر خطأك، لن يعاملك أحد باشمئزاز أو في ؤدٍ مصطنع، أنت تريد الصلح مع الذات وأن تنسى أنك مواطن من الدرجة الثانية، يجب أن تنسى تلك الندوب المحفورة داخل روحك بسبب تلك الحالة، هل تفهمني؟ يجب أن ننسى جميعًا يا سامح.

نشأتُ في محافظة المنيا، عروس الصعيد، مدينة مَلَوي تحديدًا، تلك المدينة صاحبة التاريخ العريق، لا أعرف الكثير عن أجدادي وتاريخهم في ملوي ولكني أعرف تاريخ الأقباط في مصر جيدًا وكيف كان دورهم في تغيير الحياة التي نعيشها الآن، والدي يقول دائمًا إنّ أجدادي كانوا ممن غيروا التاريخ بشكل كبير، في البداية لم أفهم ما يقوله، بعد فترة بحثت كثيرًا في التاريخ لكنني لم أجد شيئًا عن عائلتي، بعدها أدركت أن والدي إما كاذب وإما لم يعُد يعرف الفرق بين الحاضر والتاريخ.

كنت شاعرًا بالوحدة في طفولتي أغلب الوقت رغم أنّ لي أختًا تكبرني بخمسة أعوام، حاليًا هي متزوجة من قريب لنا وتعيش مع أسرتها في المنيا.. أعتقد أن السبب هو وفاة أمي في الصغر، صراحة لا أذكر ملامحها سوى من بعض الصور في المنزل، لكن ماذا تفعل الصور حين تعود من المدرسة وبداخلك تساؤلات عدة: لماذا أنا مختلف يا أمي؟ لماذا أنا وحيد يا أمي؟ لماذا أنا صرت أنا؟ تجد عينيها في الصورة تنظر إليك في حنان وتبلغك أن ليس لديها الإجابة لأنها ببساطة ماتت قبل أن تعرف.. أضع حقيبتي المدرسية في حجرتي الصغيرة وأخرج من البيت الصغير الكائن بالشارع الصغير حتى أصل إلى النيل.

كنت في المدرسة الابتدائية أقرب إلى الشرود المستمر، أستذكر دروسي جيدًا وأعرف الحلول مسبقًا لكني غير راغب في المشاركة بهذا العبث الذي يسمّونه الدراسة، كان كابوسًا بالنسبة إليّ بسبب تلك التناقضات الموجودة به، والتي تقلل من شأن ديني، على سبيل المثال أنا أحفظ سيرة الإسلام وتاريخه منذ النبي محمد مرورًا بكل ما خاضه من غزوات، بل حتى نشيد «طلع البدر علينا» كان مكتوبًا أول أربع أبيات منه، ما زلت أذكر ذلك، الأمر تعدى دراسة الخلفية التاريخية إلى دراسة دينية بحتة، المشكلة لم تكمن قَطّ في تلك التفاصيل، لكنها كانت في التلخيص المبالغ فيه للدين المسيحي والذي يصل إلى حد الحذف (ستة قرون كاملة تبدأ من دخول المسيحية مصر وحتى دخول عمرو بن العاص لمصر) مليئة بالبطولات التاريخية... إلخ، الطابور الصباحي يبدأ بخطبة من القرآن وغير مسموح بآيات من الإنجيل.. أعتقد أننا تعرضنا للظلم.

أبي كان لغزًا بالنسبة إليّ منذ الصغر، لم أرَ له أصدقاء، لم يسهر يومًا على القهوة، لا توجد له ذكريات عن رحلة إلى القاهرة أو حتى موقف في أثناء سيره على كورنيش المنيا الشهير.. أبي موظف حكومي مذعور داخل أروقة الإدارة التعليمية لملوي، ينهي أوراق ترقية هذا ويساعد ذاك في معرفة حقوقه بعد المعاش، يعرف الفارق بين كل الأوراق التعليمية وهي تمنح هذا المعلم لقب خبير وهذا مدرس أول، أما هو نفسه فشهادته (دبلوم تجارة) لا تمنحه سوى الاكتفاء بمباركة هؤلاء على ترقّيهم الوظيفي، لا أنكر أنها حمتني من مضايقات كثيرة في سنين الدراسة نتيجة غلاقته بأغلب مدرسي المدرسة.

أرغب في الحكي لك يا سامح عن عمّتي كاميليا، الجميلة التي أذكرها بين الحين والآخر ولا أعلم عنها شيئًا حتى الآن، قد تكون ماتت أو قُتلت أو حتى انتحرت، لكنها تركت لنا إرثًا سخيفًا من المضايقات على مدار

حياتنا، بسبب أنها فعلت ما لا يجب فعله أبدًا في مركز أو قرية من قرى مصر، لقد أحبّت يا سامح، لا لم يكن مسلمًا، لم تكن ضعيفة إلى هذه الدرجة، لقد أحبّت شابًا مسيحيًا من قرية مجاورة لملوي وأقنعها بالهروب معه إلى القاهرة غالبًا، كان فقيرًا معدمًا، تشتهر عائلته بالعوز والفقر، أذكر أنها قررت الهروب في ليلة شتوية عندما كنا بمرحلة الطفولة، ذلك اليوم صرخت فيه أمي من قلبها خوفًا علينا من بطش القدر لطفولتنا البريئة.

صرت أواجه السؤال الأسخف في حياتي طَوال الوقت وفي كل مكان: «أين ذهبت عمتك يا هادي؟»، ذهبت عمّتي إلى حيثما ذهبت أيها الأوغاد، فلتذهب إلى الجحيم ذاته ما شأنكم بنا؟ لكن الأوغاد لا يكتفون بالسؤال والانسحاب في حالة عدم الردّ، الأوغاد يجب أن يتركوا بصمتهم الكريهة وإلا ما أطلقنا عليهم لقب «أوغاد». الأوغاد غلاظ القلوب وغلاظ الملامح، حتى الأطفال منهم، كان يقترب مني بعد السؤال ويتصرف مثل الحيوانات بمبدأ الغابة، البقاء للأقوى، والموت لمن يمتلك عاهة اجتماعية، أما أنا فكنت أمتلك عاهتين، الذين وهروب عمّتي. يقف أمامي أحدهم ثم يهوي بقبضته على وجهي، النشوة تعتلي وجوه الصبية من حولنا في انتظار المزيد.. ركلات.. بصقات.. ثم تنتهي المأساة بتدخّل أحد المدرسين ووقفها، قبل أن تأتي أختي الكبرى لتدافع عني، قليلة الحيلة، ترتجف وهي تخفي أنها ترتجف قائلة: «سأقول لوالدي». تدرك أن جملتها السابقة عديمة الجدوى فتتبعها بأخرى قائلة: «سأقول للمدير».

هناك يدرك الأوغاد أن الأمر سيتصاعد. ثم إنني لا أبكي، لم أبكِ يومًا بسبب تلك الأفعال، هذه ميزة قلّما يتحفلها أحد.

في سنّ المراهقة لم يُعرف لي أصدقاء على الإطلاق، فقط زميلي مايكل يذهب معي إلى الدروس ولا أتذكر عنه شيئًا، لم يكن يعاني مثلما كنت أعاني، كان مسيحيًا جبانًا، يقدم الخدمات دون أن يُطلب منه، يشاركك اللحظات ولا يطلب منك مقابلًا لها، غير راغب في الدخول في تفاصيل صراع لن يصل معه إلى نتيجة، لكن دوره ألا أنسى أنني موجود، الوحيد المنبهر بي وبشجاعتي، الوحيد الذي يهمس لي بأنني «قويّ جدًا»، هل تصدّق هذا؟ كنت طفلًا قويًا يا سامح، أو الأقرب أن نقول إنني كنت كهلًا يحاول طَوال الوقت أن يعود طفلًا.

كنت شغوفًا بالفضة طَوال عمري، أحبّها أكثر من أي شيء، قد يعود ذلك الشغف بعمّ شحاتة ابن عمّ والدي، وصاحب محل الفضة الأشهر بملوي، في طريق العودة من المدرسة كنت أقف بالساعات أمام المشغولات الفضية، الفضة نادرة الوجود في مصر، وأنفس -لعلمك- من الذهب، الناس تحبّ الذهب وأغلب محلات الذهب في عموم مصر تمتلكها رؤوس أموال مسيحية، لكنني أحببت الفضة.. زاد عشقي للفضة عندما أهدتني عمّتي كاميليا صليبًا صغيرًا، كان معلقًا برقبتي طَوال الوقت.

أفضل قطع الفضة بالنسبة إليّ كانت تلك التي رأيتها بمتحف ملوي، رأيتها عندما ذهبنا إلى هناك في رحلة مدرسية، قطعة فنية صغيرة موضوعة داخل صندوق زجاجي في منطقة منزوية من المتحف، قنديل روماني يشبه مصباح علاء الدين، مكوّن من خزان عميق ممتلئ بالقارّ ومزوّد بفتحة علوية صغيرة ومقبض رأسيّ، يقال إنه كان يُستخدم في الريف المصري القديم. كنت أشعر بأن الفتيل الذي يخرج منه ما زالت ناره مشتعلة، أو أن المصباح ضنع لهدايتي، لعمري هناك سِرّ في تلك القطعة لا أعلمه، لكنني شعرت به، لا أعلم لماذا أحكي لك الآن عن تلك القطعة، أعتقد أنني مشوّش قليلًا.

حتى وقت قريب كنت أزور المتحف وأسير ببطء داخل طرقاته، فأجد تماثيل هنا وهناك، فاترينات زجاجية تعرض لك حضارات قامت وحضارات اندثرت.. أسأل نفسي، مَن صانع الحضارة؟ الإنسان أم الأديان؟ الإنسان هو صانع الحضارة، والأديان تعطيك إشارة لزمنها ليس إلا، كيف الحال إذا ما وقفنا أمام الأجداد وفهمنا مغزى الإشارة؟ كل فنان صنع قطعة فنية كان يبقي بها شيئًا ساميًا، مَن صنعها هدية لزوجته، مَن صنعها ليعرف أنه موجود، مَن أجبر على صناعتها من أجل قائد أو ملك... إلخ، احترام تاريخ بلادك يا سامح لن يجعلك تفكر في الهروب أبدًا إلى بلاد تغطيها الثلوج.

حدّثتك عن والدتي وأختي وعمّتي كاميليا، أما عني فلا يوجد ما أقصّه عليك، ذاتي مشتعلة ولا أعرف عنها

شيئًا، هي مثل كشك الكهرباء الرماديّ اللون المنتشر على الطرقات السريعة، يبدو هادئًا وبسيطًا، لا تستطيع فتحه لكنك تعرف أن الاقتراب منه قد يودي بك في أي لحظة، وهذا ما حدث لكل من اقتربت منهم.

هل أحكي لك عن مغامراتي مع الصبية في ملاعب ملوي لكرة القدم؟ لم أحب كرة القدم مطلقًا، هل أحكي لك عن نظرات الإعجاب المتبادلة مع المراهقات في الكنيسة؟ لم تكن هناك مراهقات معجبة بي، هل أحكي لك عن شغفي بدراسة تاريخ وطني؟ لم يكن هناك وطن بداخلي يا سامح، لذا اتجهت إلى الحبيبة التي لا تمانع حضنها ليلًا في بيت مراهق مسيحيّ بصعيد مصر، الكتب.. قرأت الكثير منها وتعلّمت أكثر، سافرت من خلالها وتكونت لدي رؤية لكثير من الأفكار، وحلول لكثير من الأسئلة، صحيح أنها كانت ثقافة غير مفعلة، لكنها جعلت مني طالبًا متفوقًا دراسيًا، لم أكن عبقريًا بالطبع، لكنني كنت على الأقل ضمن المتفوقين، لم أحلم يومًا بدراسة الطبّ لكنني وجدت نفسي في طبّ المنيا، دون ترتيب لذلك، كنت أستذكر دروسي فقط بلا هدف، صاحب ثقافة مميزة لكن ذو ذكاء عادي.

التحقت بكلية الطبّ لأنه من غير المسموح للطلبة الفائقين أن يدخلوا كليات غير هذه، هذه أمور بديهية. درست الطبّ، سبع سنوات عشتها كالآلة، الكثير معجب بها، والقليل يشجعها، ولا أحد يرغب في إطفائها قليلًا للراحة. الأناتومي، البيولوجي، الميثولوجي، مصطلحات لا أرغب في إقحامك بداخلها لكنها شكّلت عقلي المهني. درجاتي في الكلية لم تكن خارقة لكنها أهّلتني لقسم الجراحة. لا تسألني عن الحبّ في الجامعة، قلت لك إنّ قصص الغرام لا تأتي إلا لأصحاب القدرات الخاصة، قدرات جسدية أو عقلية أو حتى مادية، لا تحدثني عن حب الفتيات المهمشة للشباب المهمش، أو ما يطلقون عليه الحب الأفلاطوني، هذا حب مهمش سينتهي به الأمر إلى النسيان أو الزواج الذي ينتج عنه ممارسات مهمشة، هل ترى أي متعة في انتظار زوجة سمراء بدينة لا تعرف الفارق بين البيبي دول واللانجري لزوجها المطحون الغارق في عرقه، وتناول وجبة غداء من الأرز والعدس؟ هذا هو الحب المهمش الذي ينتهي غالبًا بموته البطيء أو صراخ الزوجين في وجه الجيران عند تدخلهم للصلح.

***

1997

فندق شهير على كورنيش النيل

وقف راغب النطاط في أحد أركان البهو، كان يرتدي قميصًا مشجرًا واسعًا قليلًا ومفتوحًا حتى أول البطن، يضعه داخل بنطال من الجينز ماركة «إيدون» الشهيرة في التسعينيات، ويلبس حذاءً خفيفًا من الكاوتشوك. هناك سلسلة ضخمة من الفضّة أشبه بالجنزير تزين صدره المكشوف، أخذ يمزح مع رجال أمن الفندق الذين يعرفونه جيدًا.. أنتم كذلك صرتم تعرفونه بالطبع، المهندس المتزوّج بآن في إيران ويعود لزوجته المصرية في الإجازات السنوية محاولًا إظهار اشتياقه إليها، تعرفون كذلك فلسفته جيدًا، البحث عن المنفعة طوال الوقت، التفاني في العمل والهلس على السواء، كل شيء يجب أن يكون قائمًا على الحب، حتى الدين يجب أن يُمارَس بحب، غير ذلك لا يصحّ، فلسفة تحمل طابعًا صوفيًا في شقها الأخير بالطبع لكنه اختزلها في متعة واحدة فقط، متعة الجنس.

بعد أن انتهى من مزاحه مع رجال الأمن اتجه ناحية موظفة الاستقبال وداعبها أيضًا، ضحكت بصوت عالٍ فوضعت منديلًا ورقيًا على فمها، في محاولة منها للاحتفاظ بوقارها قدر المستطاع لكن دون فائدة، سألها عن حفل عشاء صديقه الممثل (...) فأشارت ناحية المصعد الكهربائي للخلاص من حالة الضحك الهيستيري التي انتابتها.

الممثل (...) قام بدور متوسط المستوى في فيلم (...) الذي اكتسح إيرادات الشباك، لهذا قرر إقامة حفل للمنتج والمخرج والممثلين وبعض الأصدقاء ذوي الطلة اللائقة، كان يعرف بالطبع أن النجاح داخل هذا الوسط

له أبعاد أخرى غير قدراتك التمثيلية مهما كانت قوية، فردّ المبلغ المالي الذي حصل عليه من المنتج مرة أخرى في صورة مقبّلات ولحوم وبعض من صديقاته المقربات، قام كذلك بإرسال دعوة إلى صديق طفولته راغب النطاط في أثناء وجوده في إجازة، النطاط رجل «مُسَلٍّ»، وبالإضافة إلى ذلك فهو اسم مميز في عالم تجارة السيارات، لا بأس من بعض العلاقات من خارج الوسط تعود على المنتج بالنفع.

دخل النطاط فاردًا ذراعيه ليسلم عليه وبدأت عاصفة السلامات المبالغ في حرارتها، موسيقى هادئة تعمّ المكان، الفتيات الحسناوات في كل ركن يلعبن دورهن جيدًا، لن أصف لك الشخصيات الغريبة الموجودة هنا، يجب أن تسرح بخيالك قليلًا وترى تاجر المخدرات الشهير (...) يجلس مع أصدقائه، هناك رئيس هيئة الرقابة السينمائية يجلس مع والدته، أما هاتان السيدتان المتصابيتان فأنت تعرفهما جيدًا، وتعرف العلاقة الشاذة التي تجمعهما فلا داعي للحملقة ناحيتهما أكثر من ذلك.

بدأ التعارف، فتحولت الحفلة إلى خلّاط يجمع كل النفوس البشرية التي قد تصادفها في حياتك، هذا الخلاط لا يعترف بأي شيء مثل الدين والمواثيق الشرعية، وسينتِج لنا سائلَ المنفعة ذا المذاق الجميل.

النطاط مهندس ميكانيكا سيارات كما قلنا، لن تعود عليه مصلحة مباشرة من تلك الحفلات، هي مجرد عوائد معنوية لتنشيط فلسفته لا أكثر، ابن حيّ الزمالك الراقي لا يجد في رؤية الممثلين أيّ جديد بالطبع، لكنه يبحث عن فريسة جديدة، وها هي قد ظهرت أخيرًا، ممثلة مغمورة تبحث عن فرصتها الحقيقية وسط هؤلاء المنتجين، حاول معها لكنها صدّته، أخبرها أنه صاحب علاقات واسعة، لكنّ عينيها كانتا تتابعان المنتج ولا تحيدان عنه، حاول إضحاكها لكنها كانت تعرف هدفها جيدًا، هذا الصنف يعرف ما يريده تمامًا، راغب لن ينفعها بشيء، قد يكون مضحكًا أو حتى غنيًا، لكنها تبحث عن شيء آخر غير الكوميديا، اعتذرت له ثم مضت في اتجاهها، كان قد يئس من استمالتها لرغباته الجنسية فتركها لخططها الميكافيلية بالنهاية.

للأسف لم يستطِع إطفاء شهوته بعد اشتعالها مطلقًا، هذا ما يسمّونه هوَس الجنس، في ما بعد سيُدرَج هذا الهوَس ضمن الأمراض النفسية، وهذا ما سنعامله عليه مِن الآن. ما الحل في تلك الورطة؟.. قطع أفكاره صوت منظم الحفلة وهو يدعو الحضور لمأدبة الطعام «open buffet»، رجل في السابعة والأربعين من عمره، يريد الطعام ثم كؤوس الخمر الفاخرة ومن بعدها تأتي الأنثى الجميلة، هكذا تكون الحفلات.. رأى اللحم والحلوى بالناحية الأخرى فاشتهاه، الحلوى في فنادق الخمس نجوم ليست كالحلوى التي تعرفها، المكان مختلف، وجه من يأكلها بجوارك مختلف... اتخذ القرار واتجه ناحية مائدة الطير وغير الطير مبتعدًا عن طابور السلاطات (لا أعلم لماذا يعتبر هؤلاء القوم أن سلاطة الزبادي طعام!). الطابور عبارة عن شابّتين فقط! طابور صغير ومُغرٍ للتعارف وإلقاء الدعابات. وقف خلف شابة منهما ذات شعر أصفر وعيون -ربما عدسات- زرقاء، وقوام مثل السيف يستطيع الفتك بمشاعر رجل مثل صاحبنا. كانت ترتدي جوربًا خفيفًا طويلًا يصل إلى فخذها.. لحظة، لم أعطِك وصفًا دقيقًا لملابس الفتاة، أليس كذلك؟ صراحة لا شيء مكتمل في ملابسها غير الجورب، فلا تستطيع القول بنفس راضية إنّ هذه جيب أو بلوزة كاملة، هي لا ترتدي شيئًا كاملًا إلا الجورب.. بالطبع لم يَضِع راغب مثل هذه الفرصة، خصوصًا بعد الاصطدام منذ دقائق بنوع يميل إلى الشهرة أكثر من المال.

الأفضل أن نتلصص على حوارهما القصير، لأنه -على ما نعتقد- من أغرب طرق مداعبة عقول النساء أو «الشقط» كما سيطلق عليه في الألفية الجديدة.

بدأ راغب حديثه قائلًا: مساء الخير.

اكتفت بنظرة ترحيب حذرة فسألها في براءة: ألا تعرفينني؟

.No -

قالتها بالإنجليزية. هي مصرية لكنها تحب التحدث بلغات أجنبية مع الغرباء في البداية لمنحها طابعًا خاصًا.

- غريبة! أنت تدعين لي في صلاتك بشكل دائم.

- لكنني لا أصلّي.

هذه المرة كانت باللغة العربية، يبدو أن مفاجأتها جعلتها تتحدث لغتها الأمّ دون وعي، قالتها في بساطة شديدة كأنها تخبره مثلًا ضيقها من التسوّق نهارًا.. ثم أكملت مستفسرة: لكن pourquoi (لماذا)؟ لماذا في الصلاة بالذات؟

ردّ راغب في بطء وعلى شفتيه ابتسامة هادئة كأنه يخبرها بسرّ من أسرار الكون: قبل أن ننهي صلواتنا، نقول في التشهد: «اللهم صلّ على سيدنا محمد» وعلى مَن؟ «على آل سيدنا محمد». أنا من نسل أهل بيته الشريف، أنا من الأشراف.

علت وجهها ابتسامة دهشة حقيقية تشبه ابتسامة سائح يشاهد حمارًا يسير أمامه على كورنيش النيل، وهتفت في انبهار: بجد؟

- أقسم لك، أستطيع أن أريكِ شهادة النسب أيضًا لو تحبّين.

- Sure (أكيد)، هل هي معك الآن؟

- صراحةً لا، لكنها في غرفتي هنا بالأعلى. بعد انتهاء الحفل أستطيع أن أريك إياها.

ختم الجملة ثم اقترب منها وهمس بجوار أذنيها مباشرة: لديّ meeting (مقابلة) عمل هنا غدًا وسأبيت ليلتي هنا، هل ترغبين في تعلُّم الصلاة يا صغيرتي أم ستقضين بقية حياتك تعيشين في الضلال؟

ضحكت حتى دمعت عيناها، هذه أغرب طريقة تعرضت لها للحصول على خدمات جسدها أو التلذذ بليلة معها، شعرَتْ معه بألفة وحماس، هذه ميزة يجب ألا نغفلها في مواليد الأبراج النارية مثل راغب النطاط، أنت لا تستطيع التوقف عن الاستمتاع بالحياة معهم دون وضع أي اعتبارات أخرى -مثل الدين- في الحسبان، كان يتعامل مع حياته بالقطعة، اليوم مخصص للحظ والفرفشة فلا داعي للتفكير في شيء آخر.

انتهت الحفلة وصعدا معًا إلى الطابق الحادي عشر ليعلّمها كل ما هو جديد، اكتشف النطاط أن فتاته لديها خبرات لا يُستهان بها في الركوع والسجود لكنهما من نوع مختلف تمامًا، الأهمّ مِن ذلك أنها كانت حركات قائمة على الحبّ.. فقط الحبّ.

***

تخرجتُ في كلية الطبّ يا سامح، تقديري كان جيدًا جدًا، صحيح أنه لم يؤهلني للعمل بالتدريس الجامعي، لكن مَن قال إنني كنت راغبًا في ذلك من الأساس؟ العمل الأكاديمي لا يناسبني، لن أشرح ما أعرفه كل يوم بقية حياتي أمام نفس الطلبة، أريد العمل مع الناس، إثبات أنني موجود طَوال الوقت.

فترة الامتياز كانت في المستشفى الطبي الجامعي، تلتها فترة «التكليف» في قرية صغيرة تُدعى حجازة تابعة لمركز قوص بمحافظة قنا، تعلّمت هناك الكثير، كلما بعدت عن العالم الذي وُلدت فيه أشعر أنني موجود. في حجازة رأيت صعيد مصر الجوّاني كما يحب أن يكون، مركز قوص بسيط في كل شيء، المظهر الحضاري الوحيد به هو قضبان السكة الحديد، التي تشقّ المدينة من المنتصف. فما بالك بقرية حجازة؟ المنيا شواهد التمدن فيها أكثر نوعًا ما لكنني ارتحت كثيرًا في قنا، رأيت الأمراض وقت التكليف كما تقول كُتب الطبّ تمامًا، تعلّمت هناك العمليات الجراحية البسيطة مثل الزائدة الدودية والمرارة، في أثناء التكليف تعرفت على صديقي الوحيد تقريبًا في المجال الطبي، كرم المحمدي، من مواليد الفيوم، الطبيب البدين الذي لا يتوقف عن إلقاء الدعابات، لا يعرف الكره أو الحقد لأحد، ليست له آراء متطرفة، ليست له آراء عن أي شيء من الأساس.

كرم يعيش الحياة البسيطة الهادئة، كان وقتها خطيبًا لابنة خاله في الفيوم، ومن شوقه إليها فعّل خاصية الاتصال المباشر على تليفون الوحدة الأرضي. أذكر أنه جاملني كثيرًا، استطاع الوصول إلى قلبي بشكل خارق

دون أي مجهود.. كانت المؤتمرات شيئًا خارقًا بالنسبة إلينا في ذلك الوقت، تجلس وسط كبار الأطباء الآتين من أكبر مستشفيات مصر، ثم تبيت ليلتك في فندق، وتتناول طعامًا شهيًا ثم لا شيء، لا أحد يطلب منك شيئًا بعد ذلك، كانت تلك هي السعادة الكاملة، وقتها عرضت الأمر على رئيس الوحدة، فقال لي بالحرف: ما بك يا هادي؟ أرجو أن تعيش كما يعيش أهلك في ملوي يا بُنَي.

هنا ظهرت مروءة كرم، ضحى بوقته، وإجازته، وخبّ حياته تلك الفترة، وجلس نوبتجيًا مكاني ثلاثة أيام متواصلة، هذا هو كرم المحمدي باختصار، إنسان طيّب القلب باختصار شديد.

بعد انتهاء التكليف، قدم كل منا نيابته، أنا نيابة الجراحة، أما كرم فتخصص في النساء والتوليد، قوّته الجسمانية وحبّه للأطفال رغّباه في هذا المجال.

مِن المنطقي القول إنني تخصصت في الجراحة كي أرى الإنسان من الداخل وأن شفاءه من الداخل قد يجعله إنسانًا من الخارج لا يفكر في اللون أو العرق أو الدين، لكن الحقيقة أنني تخصصت في الجراحة لأنها تعود بعائد ماديّ قويّ نوعًا ما عن باقي التخصصات، بالتأكيد عملية جراحية لا يزيد مجهودها عن ساعة أو اثنتين مقابل ألف جنيه (متوسط الأسعار في ذلك الوقت) أفضل كثيرًا من الجلوس أمام أمٍّ تشكو من إسهال ولدها ووجع أسنانها وطلاق جارتها، وربما تشبّ مشاجرة بينك وبينها في النهاية مقابل تذكرة بنصف جنيه.. الجراحة تمنحك تفوُّقًا داخل عقول الناس البسيطة، هذه آخر مرحلة يصل إليها المريض ولا شيء بعدها سوى الحانوتي، إذًا لا مفرّ من دفع الأموال مهما بالغ الطبيب في تقدير نفسه، هكذا اخترت نيابة الجراحة.

أين قضيتها؟ هذا سؤال يجب إلا تسأله يا سامح، قضيتها في القاهرة بالطبع، مستشفى «المنيرة» بوسط البلد تحديدًا، القاهرة تصنع من سكان الأقاليم أبطالًا إذا تخطّوا مرحلة الانبهار بها سريعًا، القاهرة مفرمة الأطباء، وسوق للمرضى بكل أشكالهم، بداية من غلاسة مرضى التأمين الصحي، مرورًا بمرضى الكبد الذين يرفضون العلاج لابتزازهم طلبة الامتياز، وصولًا إلى مرضى المستشفيات الاستثمارية التي تقيم اتفاقية تعاون مع المستشفيات الأجنبية.. قاهرة التسعينيات تحكمها الأموال، والعمل الخاص بها تحكمه الكفاءة، أو هذا ما حسبته.

بدأت نيابتنا -أنا وكرم- في مستشفى «المنيرة» الحكومي ومعها توطدت غلاقتي بكرم، كنا نتقابل مرتين أسبوعيًا وقت تبديل النوبتجيات، ولا تنقطع الاتصالات الهاتفية بيننا. في أحد الأيام اتصل بي في استراحة الأطباء عارضًا عليّ عملًا خاصًا بمستشفى «تبارك»، هل تعرفه؟ هناك في البساتين، وافقت بالطبع، المقابل المادي للنوبتجية الواحدة كان مغريًا.. كان مستشفى «تبارك» من المستشفيات التي افتُتحت مؤخرًا ويحتاج إلى كوادر قوية، جهزتُ أوراقي وتحركت إلى هناك على الفور.. المستشفى كان ضخمًا بالفعل، آية قرآنية ضخمة فوق اسم المستشفى «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»، هناك حالة من الالتزام والودّ في نفس الوقت، سألت عن مدير القطاع الطبي الذي أبلغني كرم باسمه، فأرشدني أحدهم إلى مكتبه، انتظرت نحو نصف ساعة قبل مقابلته، وجدته رجلًا في الأربعينيات، هادئًا، ودودًا، مبتسمًا طَوال الوقت، لحية خفيفة وعينان مريحتان، أصلع الرأس قليلًا، حيّيته فطلب مني الجلوس، وبدأ يسألني عن كل شيء.

- هادي عزيز، 28 سنة، أعمل بمستشفى «المنيرة»، أستطيع إجراء العمليات الخفيفة مثل الزائدة والمرارة، كما أنني مساعد للاستشاري (...) في بعض العمليات...

أخبرته بكل شيء عن خبرتي تقريبًا، ظهر الحماس جليًا على وجهه وقال: المستشفى يفتخر بوجودك معنا يا دكتور هادي.

ثم قال معلنًا انتهاء المقابلة وعيناه تلمعان: الله المستعان، سنهاتفك قريبًا، ولا تنسَ إحضار أوراقك كاملة.

توقعت قبولي بالوظيفة بعدما لمحتُ لمعة عينيه، لكنني خرجت من عنده غير مرتاح البال، دارت أسئلة كثيرة في ذهني لكني لم أعِرها اهتمامًا وقتها.

بعد ثلاثة أسابيع تقريبًا فوجئت بكرم أمامي وعيناه مليئتان بالحماس، لقد قُبِلْتُ في الوظيفة كما توقعت.

بعد العمل هناك لمدة عشرة أيام تقريبًا، أبلغوني أن المدير الإداري يرغب في استكمال أوراقي، لا يوجد عقود بالطبع، لسنا في أوروبا أو أمريكا هنا، كان يجهز ملفات خاصة بمرتبات وإجازات الأطباء الجدد ليس أكثر. في النهاية أحضرت الأوراق وأرسلتها إليه.

صباح اليوم التالي وجدتُ حركة غريبة داخل المستشفى، الكل كان يتحاشى النظر إليّ.

- دكتور هادي، حضرتك مطلوب عند مكتب الأستاذ رياض، المدير الإداري.

تمتمت لنفسي: المدير الإداري وليس الطبي؟ غريبة!

دلفت إلى مكتبه فوجدته غارقًا في كمّ غريب من الأوراق ومنهمك بالعمل عليها، بدا أنها حيلة كي لا أطيل الحديث معه. تغيّر لونه عندما رآني، نظر إليّ من أسفل إلى أعلى، وعندما صارت عيناه مقابل عينيّ مباشرة قال في ثبات مصطنع وهو يمدّ يده ليعطيني إيصالًا مدوّنًا به مبلغ لم أهتمّ بمعرفته: دكتور هادي، يجب أن نشكرك على الفترة القصيرة التي قضيتها معنا لكن مع الأسف أسلوبك في العمل لا يناسب طبيعة المكان، هناك بعض الشكاوى من العاملين معك.

- مَن هم؟

- لا أستطيع إخبارك، لكنها شكوى جماعية.

جماعية بعد عشرة أيام فقط؟! لقد صدقت هواجسي، لو كنا في زمن تنتشر فيه الهواتف المحمولة لأخبروني بطردي من المكان دون كل هذا التوتر.. في البداية كنت هادي عزيز ثم صار اسمي هادي ميخائيل عزيز، كيف لم أربط اسم المستشفى بتوجهات إدارتها؟!

لقد انتهى عملي تمامًا في المكان، لا داعي للخروج منه مقطوع الكرامة إذًا، لا بدّ من الردّ على هذا الوغد، هكذا قلت لنفسي وأنفاسي تتلاحق في سرعة، وقلبي يخفق مثل الطبول الإفريقية المجنونة، كنت راغبًا في الصراخ في وجهه لكن هذا لم يكن كافيًا، ستحدث أمور عنيفة هنا أيها الأوغاد.. هنا فعلت أغرب رد فعل قد يحدث في مثل هذه المواقف، عدوت حتى وصلت إلى باب مكتبه وخرجت مسرعًا، ربما جريت كذلك، لم أكن أريد منه اللحاق بي ومواساتي، وقفت بالخارج وتقيأت على قارعة الطريق. نظر إليّ المارّة في تعجب ونظرت إليهم في عتاب، بالتأكيد مرّت ألف فكرة وفكرة ببالهم في ما عدا فكرة واحدة لم تخطر ببال أحد، أنّ هذا القيء هو أعظم دليل على وجود الإنسانية، ورفض العنصرية، لم يكن قَطّ عن ضعف أو خجل أو عجز.

أرجوك لا تشمئز بسبب حديثي عن القيء يا سامح، فله معي قصة أخرى غيّرت كثيرًا في ترتيب أحداث حياتي، تحديدًا القيء الدموي.

***

بعد منتصف الليل، سبتمبر 1998

مستشفى «السلامة» الدولي

فترة ما بعد منتصف الليل لها وقع خاصّ داخل نفوس البشر، تشعر بزوحانيات تغلفك طَوال الوقت، يأمل البعض بغدٍ مريح وتحقيق الأماني، والبعض الآخر يرجو التوبة والعودة إلى الله، أما في العمل فالليل له طابع مختلف، الجميع يحلم بغفوة قبل شروق الشمس ليوم جديد.

الليل في مستشفى «السلامة» الدولي يختلف بعض الشيء.. الجميع هناك دائم اليقظة، يتابع عمله وينفذ واجباته في نشاط، المستشفى الاستثماري الكبير لن تسمح بغير ذلك، أصحابها من ذوي رؤوس الأموال الضخمة داخل مصر، لا يسألون عن ميولك العقائدية واتجاهاتك الدينية أبدًا، هذه ساقية لجلب المال، القوة

التي تحركها هي الكفاءة.

هل تراني يا سامح؟ أنا الشاب ذو النظارات الجالس هناك، كنت ممتلئ الجسم نوعًا ما عن الآن وعيناي مليئتان بالتحدي بشكل أكبر.

طاقم العمل هناك هو ما جعلني أنظر إلى نصف الكوب الممتلئ، في ذلك المستشفى لا أحد يجرح أحدًا، لا أحد يحاول تخطي أحد، لن تجرؤ من الأساس على هذه الأفعال البدائية، هناك نظام للعمل (system) والأهمّ أن لا أحد يفكر هنا في الدين.. ليس كل اسم إسلامي مخيف بالنسبة إليّ بالتأكيد، لكنّ طردي من مستشفى «تبارك» بسبب الدين هو ما أزعجني.

ذات ليلة في إحدى نوبتجيات السهر، شرعت في التهام بعض الشطائر بتلذذ، عندما رأيت فتاة تقتحم المكان وتصرخ في هيستريا: أنقذوا زوجي! زوجي يموت بالخارج! أريد طبيبًا!

أيتها الفتاة، أكره الهيستريا، أكره النساء اللاتي يبالغن في ردود أفعالهن، إن كنتِ تحبّين زوجك فالصراخ سيزيد من خوفه، وإن كنتِ تكرهينه فلا داعي لهذا الكذب الضوضائي.

خرج طبيب الاستقبال إليها بسرعة نوعًا ما، ومعه عاملان لحمل المريض على الناقل، كانت الحالة لرجل في الخمسين من عمره، يرتدي بنطالًا فقط تم ارتداؤه على عجل ونصفه العلوي عارٍ. لماذا ترتدي زوجتك جوارب شفافة سوداء طويلة ورداء سهرة قصيرًا للغاية؟ حفل؟! ربما لكنّ المصريين لا يحضرون الحفلات غراة الصدور على قدر علمي. هي ليست زوجتك بالتأكيد أيها اللعوب. أفكار كثيرة دارت بمخيلتي أمام ذلك المشهد، الذي انتهى بقيء دموي يخرج من فم الرجل على سيراميك المستشفى النظيف.

- هل هذا زوجك؟

صرخت في غضب: إنسان مريض، هل يجب أن يكون زوجي لتنقذوه؟

ردّ طبيب الطوارئ في برود ينمّ عن اعتياده على مثل هذه المواقف: نريد أن نعرف تاريخه المرضي يا آنسة، لا نسأل عن علاقته بك للتسلية، نحن ننقذه بالفعل.

لم تعترض على لقب آنسة فأدرك الجميع أنها صديقته على الأرجح. قالت إنه شرب كثيرًا من الخمر، ثم بدأ يشكو من مغص شديد بالبطن، «سكاكين» كما يقولون دائمًا. فجأة تقيأ على جسدها الجميل قيئًا دمويًا، فمسحت آثاره في جزع، ثم أحضرته إلينا.. كان يعاني من هبوط في الضغط بسبب كثرة النزيف.. هذا مدمن كحول كما تقول كتب الطبّ.

قام دكتور الاستقبال بطلب أشعة عادية على البطن، وجد قرحتين مثقوبتين بالاثنى عشر، هذا الرجل مدمن كحول منذ مرحلة رياض الأطفال غالبًا، حالة «perforated duodenal ulcer».. تحوّل المستشفى إلى خلية نحل في لحظات، هذه الأشياء هي التي تفرق بين مستشفى حكومي وآخر استثماري.

- الاستشاري قادم، الاستشاري قادم.

كان الاستشاري (...) من الرجال ذوي الرؤوس الكبيرة والشعر الأبيض، هؤلاء يكون لديهم سمات العبقرية غالبًا مثل أينشتاين. الاستشاري (...) لم يشذّ عن القاعدة، أعمل معه منذ عامين، تطوّرتُ فيهم عمليًا لأقصى حدّ، أصبحت مساعدًا في العمليات لكبار أساتذة الجراحة في القاهرة، كان يثق بي، واعتبرته أنا المخلّص من عتامة العمل الحكومي ومستشفى «تبارك». ربما تفضيل الاستشاري (...) لي بسبب مجهودي المتميز في النوبتجيات سبّب بعض الضيق للزملاء، لكنه ضيق حميد، لم يفكروا في استئصاله، على العكس كان دافعهم للتطوّر ومِن ثمّ إحساسي بذاتي.. اختارني من وسط أربعة جراحين، فنظر إليّ الثلاثة الباقون نظرة حسد بعض الشيء، لكنني لم أعِرهم انتباهي.

أنت تعرف غرف العمليات بالطبع يا سامح، الأفلام والمسلسلات التلفزيونية تصوّرها كما هي بالفعل، لكنها

لا تصوّر لك إحساس الطبيب بها، لا أريد أن أقول إن دخولك إليها كل مرة كأنها للمرة الأولى، هذا التعبير يقال كثيرًا، لكن دعني أخبرك بأن غرفة العمليات تشبه الفجوة الزمنية، بمجرد دخولك إليها تشعر أن المقاييس الموجودة بالخارج لم تعُد لها قيمة، الوقت لا يمرّ مثل باقي الأوقات، الدقة في التحرك تختلف، التعقيم، النظافة، حركة العينين، حتى الإحباطات داخلها لا تقارن أبدًا بإحباطات الخارج، نحن هنا أمام رُوح وليس جسدًا كما يظن الجميع، كل ما تفعله ليس له معنى أمام إرادة الله إذا شاء خروج الرُّوح من هذا الجسد.

كان ترقيع القرحتين هو دور الاستشاري، أما العبد لله فكان دوره مساعدته بشكل بسيط وتنفيذ الأمر المعتاد في نهاية كل عملية معه: أغلق العضلات والجلد، أو «off the skin and Muscles».

قمت بعملي بعد تركه المكان.. هنا بدأت أدخل في تفكير لم يخطر ببالي من قبل ، تذكرت عمّتي كاميليا ، تُرى أين هي الآن في القاهرة؟ لماذا لم تحاول الاتصال بنا بعد هروبها ولو لمرة؟ هل سنتقابل مرة أخرى؟ هل ماتت لا قدر الله؟ كيف سيكون حال أبنائها؟ لم أعرف سبب تذكّرها وقتها لكنها ظلّت في البال حتى أنهيت عملي بنجاح . نظر إليّ طبيب التخدير والممرضات في سعادة ، كُنّ يحببن العمل معي لأني لا أجرح أحدًا منهن ، لا أس بِ هن مثل باقي الأطباء ، لا خطر مني بالطبع أو حتى شعور بالشهوة تجاهي، هذه أمور يتعاملون معها كالثوابت.

شكا المريض من وجود آلام في البطن لعدة أيام بعد العملية، مريض قام بإجراء عملية جراحية، ترقيع قرحتين في الاثنى عشر ، و يعاني من آلام في البطن ، أمر طبيعي جدًا، بعد خمسة أيام اقتحمت رئيسة الممرضات استراحتي وهتفت في جزع: دكتور هادي! مريض القرحة مات!

المريض مات يا سامح ، هل تصدّق هذا؟ لم أستوعب ما قالته بالطبع، عدوت ناحية غرفته بسرعة شديدة كالمجانين ، فحصت النبض ، الضغط ، العينين ، لقد مات بالفعل . بعد نحو ساعة كانت غرفته أشبه بخلية نحل ، العديد من الأطباء ، الكثير من الممرضات ، وعدد لا نهائي من نظرات اللوم لي . أين الخطأ؟ هناك دقيقة مرّت في غرفة العمليات تذكرتها جيدًا.

بعد فحص الجثة عرفنا سبب وفاته، لقد قطعت الدرنقة في أثناء تركيبها جزءًا من جدار القولون (الدرنقة هي خرطوم من مادة معينة طبية تخرج من بطن المريض للقيام بدور التصريف للدم ومحاليل الملح ، في أثناء التركيب ثم يأتي الغلق بعد تركيبها)، مرّت الدرنقة بهدوء وسرعة شديدين لكنهما قاتلان، بعدها امتلأت البطن بالفضلات والدم ، ونتج عن ذلك آلام البطن ومِن ثَمّ التسمّم.. هذه اللحظات يمرّ بها أي طبيب مهما كان ماهرًا ، القاتل هنا لم تكن الدرنقة إنما إهمالي لشكوى المريض ، كان يجب فتح بطن المريض مرة أخرى ومعرفة ما الذي حدث. هذا شرح بسيط لما حدث يا سامح ، لا داعي لتفصيلات طبية أكثر من ذلك كي لا تتوه مني.

رأيت المشهد بشكل مختلف عن الجميع ، مهارتي الطبية موجودة ، أنا لست مغرورًا لكنه رأي الأطباء المنافسين قبل ال أصدقاء . قَدَر المريض أن يموت في تلك اللحظة ، عندما يتعارض القدر مع السبب المناسب للوفاة يجب أن يحدث خطأ ، هذا ما تحفلته أنا ، أريد الاعتراض ، أريد الصراخ ، أنا لست مسؤولًا ، إنه القدر ، لو تكررت تلك العملية ألف مرة لكُتب لها النجاح ، أنا مسؤول عن الإهمال الطبي لكنني لا أعرف كيف أواجه القدر، كيف أنتصر عليه؟

جمعنا الاستشاري داخل غرفة المريض و صاح في غضب موجهًا حديثه ناحيتي: ليس من العيب أبدًا أن يخطئ الطبيب ، لكن كل العيب أن يهمل شكوى مريض.

بعد ساعات حضرت زوجة المريض ومعها ثلاثة أبناء أكبرهم في آخر سنّ المراهقة ، هيئة الزوجة تبدو أرستقراطية لكن رد فعلها لم يختلف عن الطبقات الكادحة ، الكثير من الصراخ ، الكثير من البكاء ، الكثير من التهديد بمقاضاة المستشفى والطبيب الاستشاري . . هنا ظهر مدير المستشفى في الصورة ، اجتمع بالمدير المالي للمستشفى ثم دار بينه وبين الزوجة الحوار التالي:

- سأحاكمكم جميعًا.

- هل تعرفين يا سيدتي مَن أتى بالسيد راغب النطاط -رحمه الله- إلى هنا؟ فتاة قامت بالتوقيع على موافقة صريحة بإجراء العملية لزوجك رغم احتمال الوفاة ، أين كنتِ وقتها؟ زوجك سكّير يا سيدتي ، هل تفهمين؟ زوجك سكّير وأتى إلينا مع عاهرة وأنتِ تعلمين ذلك، لكنّ أبناءك في الخارج لا يعلمون ، الأقارب لا يعلمون ، الجيران ، زملاء العمل ، ارفعي قضية في المحاكم وسيعلم الجميع بعدها مباشرة.

- هل تهذدني؟

- بالطبع أهدّدك ، أنت تحمّلتِ الكثير من تصرّفات زوجك القذرة في حياته، لماذا تحاولين تشويه سمعة هذه المؤسسة بعد وفاته؟ لن أسمح لك بالطبع.

- أريد 200 ألف جنيه كتعويض.

- سآمر الخزينة بمنحك 50.000 جنيه بعد أن توقّعي هنا.

أعطاها ورقة تنصّ على إسقاط أي مسؤولية عن المستشفى، فذيّل توقيعها الكلام المكتوب.. هذه زوجة تعرف من أين تؤكل الكتف ، زوجها ترك لها إرثًا ضخمًا وهي ما زالت صغيرة نوعًا ما، غالبًا ستتزوج غيره إن لم تكن تخونه بالفعل مِن قبلها.

أما أنا فقد طلب المدير مقابلتي أيضًا، وكان مشهدًا سريعًا انتهى بالرفد من العمل.

خرجتُ من المستشفى لا ألوي على شيء ، قررت العودة سريعًا إلى المنيا ، حتى أستعيد توازني من جديد.

في طريق العودة شعرت بمرارة كل ما حدث في حلقي ، انتهى كل شيء، أنت تبدأ في استيعاب الكوارث بعد حدوثها بفترة ، في البداية تشعر أن الأمر لم يحدث أو أنك داخل كابوس سينتهي بمجرد استيقاظك من النوم ، ثم تدريجيًا تعرف أنك تسقط في الهاوية بالفعل، سأرتطم بالقاع بمجرد وصولي والحكي لوالدي.

كان بجواري في مقعد القطار رجل لا أذكر ملامحه ، في الخمسينيات تقريبًا، ينظر إليّ من آن لآخر، ثم تشجّع وبدأ في الحديث معي قائلًا: هل أنت ابن الأستاذ ميخائيل عزيز؟

قلت ب عدم اكتراث: أنا هو .

- والدك رجل طيّب جدًا جدًا، من أكثر موظفي وزارة التربية والتعليم طيبة . أنت الطبيب، أليس كذلك؟ أنت تشبهه كثيرًا.

وجدت نفسي أنظر ناحية زجاج القطار وأتابع أعمدة الإنارة وحركة الفلاحين في الأراضي الزراعية ، لم أستمع لباقي حديثه، لم أهتم حتى بالاعتذار له . . نمت في شبات عميق حتى أيقظني الجار بابتسامة رقيقة عند الوصول إلى محطة ملوي، فشعرت بالخجل من نفسي.

***

شعور عميق بالحزن و الفراغ ، عصبية وتوتر دون أسباب مقنعة ، مزاج سيئ لا تمحوه أي دعابة أو فكاهة ، عدم الإحساس بالطعام ، زيادة على ذلك بعض المؤشرات الجسدية له، آلام في الظهر ، صداع ، النوم بشكل مستمر، أتكلم هنا عن الاكتئاب ، المرض الذي يستمرّ لشهور طويلة، ولا نستطيع الإمساك به سوى بمحاصرته بالعلاج الدوائي والسلوكي.. بدأت في تناول مضادات الاكتئاب بعد واقعة وفاة راغب النطاط ، وأبلغت مستشفى «المنيرة» بإجازة مَرَضية طويلة. ما زالت الحكومة هي الملاذ الأخير ومن الحماقة خسارته، رفضت البحث عن عمل بمستشفى خاص آخر ، العثور على العمل سهل، لكنه لن يكون بنفس قوة العمل السابق ، فكرة البدء من جديد لم تكن تروق لي ، لقد فشلت ، هذا وارد ، لكن اقتران الفشل بوفاة إنسان هذا ما لم أستطِع تخطيه وقتها ، وأعتقد إلى الآن بعض الشيء . إنسان له حياة كاملة ، زوجة ، وأولاد ، و أقارب ، و زملاء في

العمل، و... نزوات! هل هذا ما تريد قوله عن راغب النطاط؟ مَن منا ليس له نزوات يا سامح؟ النزوة لا ترتبط بالنساء فقط ، إدمان أي شيء يبدأ بنزوة ، صحيح إنني - و إلى الآن- لست شغوفًا بشيء، لكن العمر لم ينتهِ بعد ، مِن السخف أن نقول إنّ هذا الشخص يستحقّ ما حدث له ، لا يوجد رجل طيب و رجل شرير ، يوجد شخص سيموت طيبًا و آخر سيموت شريرًا ، لا تحكم على أحد ما دام بداخله زوح ، الزُوح هي التي ستنتصر في النهاية، هكذا كانت تقول لي إيفون دائمًا . مَن إيفون؟ لا يهمّ الآن مَن إيفون لأنني لم أعُد أعرف مَن هي في الحقيقة ، سأخبرك بقصتها ولك الحكم بعد ذلك ، فلنشعل لفافة تبغ أخرى يا سامح ، أم أنك بخيل؟

كان وزني ينقص بشدّة ، ازددت نحولًا في تلك الفترة ، ثم زاد الطين بلّة قدوم أختي من المنيا ، لقد تعدّى زوجها عليها بالضرب ، دفعة قوية منه أسقطتها أرضًا ، لم يحدث مكروه لها لكنها حزمت حقائبها و تركت لزوجها المنزل . فرحتُ برؤية أختي كثيرًا رغم ما حدث ، الأمّ الثانية رغم كوني أصغر منها إلا أنها تقدّم لي كل ما أحتاج إليه ، السطحية ، الهدوء ، الردود غير المبالغ في فلسفتها ، والسهولة في الوصول إلى قلبها . أحيانًا يحتاج الإنسان إلى البساطة في التفكير من وقت لآخر ، تلك البساطة التي تخبرك دون فلسفة أنك أخطأت ويجب أن تعتذر ، أنك فشلت لكنك ستقوم من جديد ، البساطة التي تنفذ رغبات القدر دون مراجعته فتكتشف أنه كان صائبًا.

كان والدي في صف الزوج ، حاول إقناع ابنته بالعودة إليه سريعًا ، كنت في غرفتي بالداخل أسمع نقاشهما للأمر ، أحيانًا يعلو الصوت و تارة ينخفض عندما كان يلفح إلى اكتئابي غالبًا.. كان صوت أبي الوقور يعلو وهو يتلو على أختي آيات من الإنجيل ، وهي تحاول إقناعه أن زوجها ضربها متعمدًا، لكنه ظل يتكلم بلهجة الرصين.

- «أيها النساء، اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة وهو مخلّص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن».

حلوله جاهزة لكل شيء إلا استخدام البطش ، لن يلجأ إليه أبدًا ، خدّه الأيمن وخدّه الأيسر مِلك لأي شخص، حتى صار يهاجم مَن يقبّله عليهما.

- ستذهبين إلى زوجك غدًا ، هذا قرار لا رجعة فيه.

توترت أختي أكثر ثم اندفعت نحو غرفتي باكية فوقعت عينا والدي عليّ و أنا متقوقع فوق سريري.

- أريدكما دائمًا بخير ، ماذا دهاكما ، في يوم وليلة يسقط كل ما بنيته من أخلاق وصبر بداخلكما؟ انطق يا هادي ، ماذا بك أنت وأختك؟

قالها ب صوت متحشرج وبدأت الدموع تتجمع في مقلتيه، لكنني لم أرحمه ، اندفع الدم إلى رأسي كأنه صاروخ فضائيّ ، فقفزت عدة أمتار ووقفت أمامه مباشرة ، قلت في حدّة غير مبالٍ بدموعه: ماذا بك أنت؟ ابنتك الوحيدة ضربها حقير وأنت تتكلم عن رأس المرأة ، رأس المرأة قد خرب أيها الرجل العجوز وأنت تريدها أن تستمرّ في دفن عقلها في الرمال.

نظر إليّ نظرة غريبة جدًا وقتها يا سامح ، لا أدري هل هي عتاب أم حزن أم حتى فخر ، هذا الرجل كان يريد الصراخ لكن ليس في وجهي ، يصرخ في كل التمرد الذي بداخله لعله يفزع وينتصر له أمام الأقدار ، تأملت ملامحه بشكل مدقق ، عجوز محنط تحت جلباب أبيض اللون متسخ قليلًا ، وجه شاحب يشبه الليمونة مع سمار صعيديّ لا يقترب من الكلمة سوى بمحلّ الإقامة ، قال وهو منفعل ويشير ناحية صورة أمّي دون وعي: لقد عشتُ مستورًا وأرجو أن أموت مستورًا.

لوّحتُ بيدي في استهانة وقلت متهكّمًا: أنت حقًا لا تعي ما تقول ، استمرّ، استمرّ.

لم يجد فائدة من مناقشتي فدخل غرفته وأغلق بابها خلفه.

لم نتكلم بعدها لعدة أيام حتى وجدته يطرق باب غرفتي، ويخبرني برغبته في الحديث معي، قال إنه يتمنى عودتي إلى العمل في أقرب وقت، ومع ذلك لن يضغط عليّ، لكنني حتى ذلك الحين يجب أن أتقرب من الله وأدعوهُ كل يوم.

- ما رأيك في مقابلة القس بطرس غدًا؟

***

فقرة عن الرهبنة أو التصوف المسيحي تستطيع تخطيها :

الرهبنة هي الموت عن العالم، ولهذا يسمّيها البعض «رهبنة الكفن» ، الرهبنة المصرية هي الشكل الأصلي للرهبنة، بدليل أن أقدم أديرة العالم هو دير الأنبا أنطونيوس.. الأب أنطونيوس هو أول راهب مسيحي في العالم، من صعيد مصر، عاش منذ 251م في انفراد تام لمدة عشرين عامًا، دعا إلى حياة الانفراد، واحتقار المال، والعزلة ، و إنكار الذات، والصلاة و التفكير بالله، بعيدًا عن المدن والاضطرابات الدينية . عاش مجاهدًا بالصوم والصلاة، معرضًا ذاته لجميع أنواع الحرمان، ذاع صيته في جميع أنحاء مصر وتوافد المسيحيون لزيارته و رغبوا في العيش بقربه وتحت قيادته.

اتسع نطاق الرهبنة عن طريق أوائل الرهبان الذين استطاعوا جذب آلاف الأتباع فظهرت مجتمعات جديدة من النساك المنعزلين، ومجتمعات تعيش بنظام معيّن تحت رئاسة الأديرة، بعد ذلك انتشرت الرهبنة الجماعية في كل أنحاء مصر ثم الشام وآسيا الصغرى (وُضِعَت أسس الرهبنة الجماعية في ما بعد على يد باخوميوس المولود عام 290م، قسّم فيها جماعة الرهبان إلى أربع و عشرين درجة حسب تقدمهم في الحياة الروحية ووضع هذه الجماعة تحت إدارة رئيس، وكان هو الرئيس بالطبع) .

مع بداية القرن الخامس الميلادي انتشرت الأديرة في الشرق كله وبرز رهبان كثيرون مثل مكاريوس المصري، وسمعان العمودي، ويوحنا فم الذهب . .. إلخ، ثم انتقلت إلى الغرب عن طريق القدّيس إثناسيوس في أثناء نفيه إلى روما حيث بنى ديرًا في جبل باليونان، ويقال إنّ مارتين أسقف ثور هو مؤسس الرهبنة في الغرب، إذ أسس العديد من الأديرة غرب جبال الألب.

نعود إلى مصر التي وضعت شروطًا للرهبنة في العصر الحديث، أهمّها:

1- التردّد: قيام الطالب بالتردّد على الدير و تسجيل اسمه ضمن المتردّدين على الدير، وأن يكون مسيحيًا أرثوذكسيًا، له أب اعتراف، ويكون منتظمًا في ممارسة الأسرار الكنيسية والصلاة والكتاب المقدس، محبًا للطقوس والألحان، ولا يزيد عن 30 سنة ولا يقل عن 23 سنة، ولا يقل مؤهله عن التعليم الجامعي، وأحيانًا يسمح باستثناءات في السنّ والدراسة بعد موافقة الرئيس.

2- ما قبل الرهبنة: يرتدي فيها زيًا خاصًا لمدة تصل إلى 3 سنوات و يتحدد موقفه بعدها.

3- ترسيم الراهب: يوقع الراهب وثيقة المبادئ قبل رسامته ، وهي مليئة بكثير من المبادئ لا يسع الوقت للكتابة عنها هنا، لكن مجملها الطاعة العمياء لرئيس الدير، وعدم ترك أي شيء للأهواء الشخصية، والالتزام بالآداب، ومنع دخول العلمانيين للراهب مثل الأسرة ، وال أصدقاء، والجيران... إلخ.

هناك كذلك قوانين لمعاقبة الراهب في حالة الخلاف أو الخطأ، تبدأ بإنذاره ثم عرضه على لجنة الانضباط الرهباني، وأخيرًا إذا لم يستجب الراهب بعد كل ذلك يُعرَض على لجنة انضباط أعلى قد توصي بنقله إلى دير آخر، أو تجريده من الرهبنة في حالة إصراره على المخالفات الأخلاقية، وتُوزَّع صورته و بياناته على باقي الأديرة لمنع تسلله إلى أي واحد منها كطالب رهبنة جديد.

أخيرًا، هناك فئة أخرى من الراهبات، تُعرف باسم المكرسات ، وهن من يكرسن حياتهن للخدمة العامة، مثل خدمة الفقراء والمساكين و المعوقات و المسنّات.. المكرسة تختلف عن الراهبة في الفكر و الملبس إلا أن

كليهما يشترط فيها العذرية و عدم الزواج.. المكرسة تسخّر حياتها لأعمال مختلفة كما ذكرنا، فتقضي حياتها في الملاجئ و المدارس و المؤسسات التابعة للدير، أما الراهبة فتقضي حياتها بشكل دائم في خدمة الله فقط خلف أسوار الدير.. تقضي المكرسة كذلك فترة التدريب لمدة عام واحد فقط وليس ثلاثة كالراهبة قبل اعتمادها مكرسة، تختبر فيها نفسها، ثم يتخذ الراهب المسؤول عنها قراره بالبقاء أو الرحيل، في حالة البقاء تتخلى عن ملابسها المعتادة وتستبدل باسمها اسم واحدة من السلف الصالح لتبدأ حياة أخرى.

***

أنت تعرف إيفون يا سامح ، بالتأكيد تعرفها، أتوقع من كل شخص له قلب يدق أن يعرف إيفون ، إيفون موجودة في كل شيء، إيفون ليست من لحم و عظم مثلنا ، هي كل كائن له زوج ، إيفون هي الرعشة التي تقتحم خلاياك بعد عمل الخير ، هي جمال الحب الأول وعنفوان أول حب ، إيفون هي أصل الأشياء و عمقها ، هي الرضا و إرادة الخير بداخلك . أنت تعرف إيفون يا سامح ، بالتأكيد تعرفها أو على أقل تقدير ستراها قبل أن تبشرك الملائكة بدخول الجنة مباشرة، ستجدها في استقبالك مثل أي عروس للمسيح.

رأيت إيفون للمرة الأولى داخل ملجأ صغير للأطفال بقرية أبو حنس التي تبعد عن ملوي بنحو خمسة كيلومترات فقط ، قمت بزيارة الدير مع والدي نهارًا ، فعرض علينا الأنبا بطرس زيارة مستشفى الدير والملجأ، كنت أبحث عن بداية جديدة ، مرحلة انتقالية أستعيد فيها الثقة ، هناك أوقات تمرّ على الإنسان لا يجد فيها أرضًا صلبة تحت قدميه ، هنا يجب أن تطير حرفيًا ، تسبح في الفضاء و تعلو بروحك عاليًا مع الدين ، هذه طبيعة الإنسان منذ ميلاده ، وذكرتها كل الكتب السماوية . نحن نتذكّر الربّ عند اليأس ، فلا داعي للخجل من هذه الحقيقة السخيفة ، هناك قلة تحمل ظلّ الله بداخلها طَوال الوقت ، لكن مَن قال إنني مِن هذه القلة ؟ إيفون منها، لهذا كان الكلّ ينظر إليها بإعجاب دائمًا.

راقبتها من بعيد وهي تطعم هذا و تداعب ذلك ، الأطفال كانوا سعداء بها للغاية، ملاك يمشي على قدمين، كانت ترتدي الزي المخصص للخادمات (المكرسات) ، قميص فضفاض لونه لبني سادة وجيب كحلي وصليب ذهبي كبير معلق في رقبتها، وتقف في شموخ محبب للنفس -ليست عن صلابة- والأنبا بطرس يوضح لي إمكانية اشتراكي في أكثر من عمل خيري ووالدي يقف بجواره . شعرت أنني طفل صغير يدخل المدرسة لأول مرة ، لكن هذه المرة كان إعجاب التلميذ بالمدرسة خرافيًا.. جاءت إيفون وقبّلت يد الأنبا بطرس ثم طلبت منه البركة ، قال لها في ود: سنراك قريبًا في القافلة الطبية يا ابنتي ، هل اندمجت؟

أطرقت برأسها لأسفل ففهم أنها تحاول استيعاب الأمر وما زالت تقاوم نفسها ، نظرت إليّ في خجل كأني كشفت سرًا يخصّها ثم ابتسمت لوالدي وألقت عليه التحية.

طلب منها الأنبا بطرس شرح طبيعة المساعدات الإنسان ية لي مثل القوافل الطبية ، فبدأنا في التحرك داخل الملجأ، تبادلنا أطراف الحديث بسرعة ، هناك أمور لا يمكن شرحها على الورق أو بالحروف ، لو كررت لك الكلام الذي دار بيني وبينها يا سامح ما وجدت فيه حرفًا له علاقة بالإعجاب أو العاطفة، لكنني -رغم ذلك- ما زلت أذكر كل كلمة فيه ، قالت إن الميزة في القوافل الطبية أنك تفحص وتقدم العلاج للفقراء، وعلى أقصى تقدير إجراء جراحات خفيفة جدًا، ولا تتطرق إلى أبعد من ذلك.. سعدت كثيرًا بالوضع ووافقت على تقديم المساعدة على الفور.. لم أكن متحمسًا لإمساك مشرط الجراحة مرة أخرى ، أو على الأقل تأجيل هذه المغامرة بعض الوقت.. ما زلت أذكر عذوبة صوتها وهي تسألني في خجل عن سبب التطوع في تلك الأعمال الخيرية.. قلت إنّ مساعدة أهل ملوي واجب عليّ، لم أخبرها بالطبع أن الاكتئاب هو من جاء بي إلى هنا ، لم أعُد أسميه الاكتئاب الآن، سأطلق عليه اسم «القدر».. عرفت منها الكثير عن فعل الخير ، أنت تساعد بما تستطيع فعله ، كيف ولماذا و أين، هذه أمور تأتي في المرتبة الثانية ، يكفيك المساعدة . تكلمت معها عن أفضل ما في حياتي البسيطة ، الكتب، قلت لها في حماس: أتمنى أن يحب هؤلاء الصغار الكتب مثلما أحببتها . قرأت روايات مصرية للجيب ، «عبير» ، «ميكي» ، «سمير» . كنت أنتظر بشغف بالساعات حتى تأتي عربة اللوري بالجرائد

والكتب من القاهرة ، الرائحة التي طالما أحببتها و أحبتني.

قالت إنها تعشق القراءة عن التصوف في الإسلام مثلما تعشق الرهبنة في المسيحية.

وجدتني أسألها بأريحية كأنها صديقة قديمة: لو سمحت لي أختاه ، ما اسمك الحقيقي؟

- إيفون .

قالتها ضاحكة حتى بانت نواغزها من وجنتيها فطرب قلبي.

عدنا إلى الأنبا بطرس، تمنيت إطالة الحديث يومها مع إيفون أكثر من ذلك ، شعور غريب أنك تميل إلى فتاة في طريقها إلى الرهبنة . للوهلة الأولى عندما تسمع ذلك، ستأتي الغلاقة الحميمية في بالك، هذه أمور لم تخطر ببالي مع إيفون قطّ يا سامح ، كنت أميل إلى إيفون الإنسان ة ولا شيء غير ذلك.

اتفقت مع الأنبا بطرس على موعد القافلة الطبية في الأسبوع التالي و شكرته على اهتمامه ، رجل الدين حينما يلعب دور الطبيب النفسي يكون الأمر بديعًا ، إحساسك أن الله يرضى عنك يجعلك تسير بخطوات ثابتة حتى وإن كانت لا تفيدك عمليًا.. هل تصدقني يا سامح ؟ لقد مررت على متحف ملوي ووقفت أمام القنديل الفضي ساعة كاملة دون أن أعرف سببًا لذلك، كنت سعيدًا للغاية.

بنفس راضية ذهبت إلى القافلة في بداية الأسبوع التالي.. استيقظت في السادسة صباحًا و انتظرت أوتوبيس الكنيسة أمام بيتي ، الوجهة كانت إلى أفقر قرى مركز أبو قرقاص، وإحدى أفقر قرى مصر كلها إن أردت الدقة ، لم نجد وسيلة نستطيع بها الوصول إلى ال قرية سوى سيارة من السيارات التي تدعى «كبّوت».. سيارة ربع نقل و لها جانبان، مغلقة من الخلف ، قسمنا القافلة على ثلاث دفعات ، فوجدتني جالسًا وجهًا لوجه أمام إيفون داخل صندوق السيارة، تبادلنا التحية والنظرات . نزار قباني يقول: «دعيني ألغي المسافة بين الخيال و بين اليقين». كانت إيفون خيالًا أمامي ، تكلمتْ وضحكتْ و شكوتْ وبكيتْ معها دون كلمة واحدة.

في القرية شاهدتُ العَجَب ، الحارات ضيّقة تمنع أي سيارة من النفاذ إلى داخل ها، البيوت هناك تشبه الناس، يتساند بعضها على بعض لتقاوم عوامل الزمن ، تتعرض هذه البيوت الطينية يوميًا للاهتزازات بسبب مجاورتها لشريط سكك الحديد، ورغم التصدعات في المنازل فإ نك تلاحظ الزينات المصنوعة من أكياس الشاي و الحلوى و الصابون تزين البيوت.. نقص الخدمات التعليمية والصحية حتى البدائية منها أدى إلى تفشي الأمراض ، لا توجد مدارس في القرية بالطبع ، كل قرى الخط تشترك في مدرسة واحدة.. هناك خبز وملح كما يقول العامة، لكنّ هذين لا يجعلان الإنسان صحيحًا ، الفول لا يغني عن اللحم مثلما يشيع البعض ، ستزدهر بعد ذلك موضة النباتيين، لكن هذه أكذوبة كبيرة صنعها بغل آدمي اكتفى من أكل اللحوم، ثم قرر العلاج من زيادة الكوليسترول في جسده . لجأ الأنبا بطرس إلى غرفة بسيطة في بيت أحد مسيحيي القرية ، يُدعى زكي رستم ، بالطبع هو بعيد كل البعد عن زكي رستم الممثل الشهير ، إلا أنه يشبهه في نهاية فيلم «امرأة على الطريق».

قال زكي: «الدجاج مرتان في العام واللحمة الصليبة في المواسم»، عندما تحدّث عن كيفية قضاء الشهر بمعاشه الذي لا يتعدى 140 جنيهًا. أين أعضاء مجلس الشعب؟ أين الوحدات المحلية؟ هذه وعود وتنتهي، انتخابات 2000 اقتربت، لعلها خاتمة هذا العبث.

بعد حديث الرجل تجمّعت الدموع في عين إيفون لكنها استعادت رباطة جأشها سريعًا.

هل تعرف معنى الفقر في الصعيد؟ أنت هارب من الفقر وليس الاضطهاد الديني يا سامح، ألمح ذلك في نظراتك وتفاعل وجهك مع كلامي، الفقر له رائحة أعرفها جيدًا، لن تهتم لحظة بالاضطهاد الديني إن كنت غنيًا، إذا نقصت المادة يبدأ التركيز مع باقي التفاصيل.

من حين لآخر كنت أنظر ناحية إيفون ، أبتسم فتبتسم ، الأفكار و الخواطر كانت تداعب عقلي ، الحذ

الفاصل بين الخيال و اليقين لم أعد أميزه ، قلت لنفسي: أنت تلعب بالنار يا هادي ، الفتاة على وشك أن تكون مكرسة، ومن يعلم ربما راهبة في ما بعد ، يجب أن تتوقف عن النظر إليها وخلق أي فرصة للحديث معها، والأهمّ من ذلك التوقف عن اعتبارها فرصة للحب أو حتى للصداقة . عندما نقتحم حياة إحداهن في مرحلة اضطراب هي كارثة، لكن اقتحام حياة مشروع راهبة هي لعنة ستطاردك ليوم الدين.

فحصت' أكثر من ثلاثين حالة، ثم حان وقت تناول الطعام ، المفترض أن يُوزَّع الطعام على الجميع ، أهل القرية والقائمين على القافلة، كنوع من المشاركة والوحدة الوطنية . بدأت تظهر الأواني الألمونيوم الضخمة والملاعق الكبيرة والمواقيد المتحركة وكذا أطباق الفلّين ، تجمّع الأهالي في طوابير طويلة ليأخذوا نصيبهم، كانت عيونهم على البروتين بالطبع.. قبل الانتهاء وقفتْ أمامها والكل مشغول بالتهام الطعام ، قلت في وُدّ مشوب بالتوتر: أنتِ ماهرة و متعددة المواهب يا أختاه.

- وأنت طيّب القلب يا دكتور ، أراقبك و أنت على وشك الانفجار في أهل البلدة بسبب كثرة الأسئلة و سطحيتها ، الربّ لا ينسى معروفًا قدّمه العبد.

- لكنه نسي يا أختاه ، لم يقف بجواري في بداية حياتي فانتهت حياتي سريعًا.

- القدَر يأتي إلينا بالسعادة والخير طَوال الوقت، لكننا نأبى أن نستمع إليه، نأبى أن نهدأ قليلًا و نفهم أن الحال يتغير ، ما نظنه شرًا الآن سيكون خيرًا بعد قليل ، و ما نراه خيرًا الآن لن يصير شرًا إلا لو سلمنا بوجوده ، أتفهمني؟

- نوعًا ما ، لكنّ كلامك يناقض حالك الآن، بعد شهور قليلة من اختبار نفسك والعمل بالملجأ سينتهي بك الحال إلى اعتزال الدنيا، إذًا أين أنت مِن الأقدار التي تتكلمين عنها؟

- انتهِ مِن طعامك و سأردّ على أسئلتك.. قالتها ثم وضعت طبق الطعام أمامي وانصرفَتْ.. للأسف لم نكمل حديثنا يومها ، انتظرت' أن تبدأ الحديث لكنها لم تفعل ، أعتقد أنها خجلت من بقية الأخوات، لقد تكلفتْ معي فقط لكن كان هذا كفيلًا بأن تشعر بنظراتهن الثاقبة ناحيتها ، نظرات من نوع «هل سقطتِ في فخ الحبّ الدنيوي يا إيفون؟».

بعد ثلاثة أسابيع كان لنا لقاء آخر..

***

رغم حديثي القصير مع إيفون، الذي لم يتعدّ كلمات بسيطة ، فإ نه طرح بداخلي أسئلة شتى عن الهدف من الحياة وتلاعب الأقدار بنا.. وبين الشوق والذكريات ، كانت صاحبة الرداء الأزرق تظهر دائمًا بكلماتها الحكيمة التي تدعوني للأمل ثم تبتسم لي من وسط الأفكار فأسألها : هل من لقاء يا عزيزتي لنكمل حديثًا بدأناه؟

بعد سعادتي بالقافلة الطبية الأولى، اجتهدتُ في تعليم مبادئ الإسعافات الأولية والجراحات البسيطة لكشافي الكنائس في المنيا بأكملها، كنت سعيدًا بالطبع لكن لقائي بإيفون لم يكن يعادله شيء.. جاءني اتصال ليلًا من الأنبا بطرس يطلب مني سرعة التوجه إلى ملجأ الأطفال بقرية أبو حنس ؛ هناك طفل مريض بشدة . ارتديت ملابسي الثقيلة على عجل، سحبت كتابًا من درج مكتبي ووضعته بحقيبة الإسعافات خاصّتي، ثم ألقيت نظرة سريعة على صورتي بالمرآة المعلقة بجوار باب شقتنا سريعًا.. كنت منزعجًا بالطبع لمرض الطفل لكنني لم أستطع إخفاء سعادتي وهي تفتح لي باب الملجأ . كانت الكهرباء منقطعة بسبب المطر، والظلام يغلف المكان بينما كشاف صغير داخل العنبر و الكثير من الشموع.

سألتها باهتمام وقلق حقيقي: أين الطفل؟

أشارت إليه وهو مدثّر في ثلاث بطاطين لكنه غارق في عرقه ، أخرجت أدواتي وبدأت بقياس درجة حرارته ، ثم سمعت ضربات قلبه وصوت نفسه ، كان مصابًا بالحمّى ، كتبت أسماء الأدوية فهرع خادم الملجأ

في البحث عن صيدلية تفتح أبوابها في ذلك الوقت المتأخر.

سألتها: لماذا لم تخبري مديرة الملجأ؟

أجابت بسرعة: نائمة بالداخل ، لم أشأ إزعاجها في هذا التوقيت، واتصلت بالأنبا بطرس.

طلبت منها كمادات فأحضرتها على الفور ، أشرت إلى أماكن وضعها الصحيحة وهي الفخذ والبطن، فبدأ جسد سمير (الطفل) في الاستجابة . . بدأت تتكلم دون النظر ناحيتي: أنا آسفة يا دكتور هادي ، لم تأتِ فرصة لاستكمال الكلام . قل لي، ما الذي جعلك تصل إلى هذه الدرجة من الحزن؟

أخبرتها بالسبب الحقيقي لعودتي إلى المنيا، وحكيت لها عن الاضطهاد الذي تعرضت له، وما حدث في مستشفى «السلامة»... إلخ. تعاطفت معي بشدة وأخذت تدعو لي كثيرًا ثم ختمت مواساتها قائلة: ذات مرة سمعت شيخًا صوفيًا في التلفاز يتكلّم عن مرحلة تأتي على الإنسان بعد التوبة، يشعر بها أنه يريد ترك الحياة والتفرغ للعبادة، هو وربه فقط، الذكر والصلاة والتعبد، أتدري يا هادي أن هذه وساوس من الشيطان وليست أفكارًا صحيحة، هل كنت تعلم هذا؟ الله لا يضع لك طريقًا لتسلك غيره، إن كان يريدك ضمن تروس الحياة فلا بد أن تثبت، يرغب في قربك منه لكن بالشكل الذي اختاره لك، ييسر لك الزواج ويرزقك بالذرية لتزرع الخير بهذه الأسرة، لا لتتركها باحثًا عنه في البرية.. أنت مثلًا، وهبك الله العقل النابغ لتدرس الطب وتكون سببًا في شفاء سمير واطمئنان قلوب الأهالي في القرى وغيرهم.. الطريق تتضح معالمه بما عرفته وتعلمته، هل ترك مستشفاك ومهنتك من العقل أو الدين في شيء؟ اعبد الله في إزالة الغبار عن الأرواح الشقية، في محو الأسى عن القلوب المحتارة، أما أنا وغيري من الرهبان أو المتصوفين في الإسلام، فهذا كان طريقهم من البداية، لم يختاروه، قادهم الرب إليه كي تصير هناك زوح للدين.

لم أجد ردًا مناسبًا على كلامها الرائع، أخرجت الكتاب وأعطيته لها، سألتني عن محتواه لكنني قلت معترضًا بلطف: سأنتظر رأيك أفضل.

كانت رواية عن قصة حب إبان الحرب العالمية الثانية، بين شاب ياباني وحبيبته، تشوّه وجهاهما وفرقتهما الأقدار بسبب القنبلة الذرية، وبعد أن عولجوا ضمن برنامج تحسين صورة الولايات المتحدة الأمريكية وعودتهما إلى اليابان يتقابلان في آخر العمر ولم يعرف أيٌ منهما الآخر، هكذا تنتهي القصة نهاية حزينة.

وعدتني بالقراءة ثم تجرأت وطلبت مني كتابة إهداء على الرواية ، أنا لست الكاتب، فشعرت كأن هذا خطاب موجّه إليها ، أمسكت بالكتاب وكتبت بسرعة كأنني حفظت هذا الكلام مسبقًا: حُب الله يطهّر الإنسان من التعصّب و الخطايا و يجعله يفيض رحمة على جميع المخلوقات، وما بين الرهبنة و أساسها التلاشي بالحق وبين التصوف و أساسه الحضور مع الحق ، اشتركت مع إيفون في البحث عن لقاء الله عملًا بقول جلال الدين الرومي: لو زال منك الأنا لاح لك من أنا.

أخذت مني الكتاب ثم ضمّته إلى جوانحها وقالت في امتنان: شكرًا يا دكتور.

شعرت بالسعادة وبأهمية وجودي في هذا العالم ، كنت موجودًا في تلك اللحظة كي تشكرني إيفون.. كانت هذه الحياة التي طالما تمنيتها يا سامح.

سمعنا صوتًا يئنّ، كان سمير يبدو أنه استيقظ على صوتنا ، ابتسم عند رؤيتنا ثم قال بطريقة أقرب إلى الهذيان: لماذا نمرض يا أختاه؟

- المرض اختبار للصبر يا سمير.

- ولماذا يختبرنا الرب وهو الذي خلقنا؟

- لأنه يفرح بنا في تلك الحالة.

- ولماذا يفرح بنا وهو الأعلم بحالنا؟

- كما يفرح الأب أو الأمّ بنجاح ابنهما رغم أنهما مَن أعدّاه لهذا النجاح.

- ليس لي أب أو أمّ يا أختاه.

- لك عقل لتعرف أنك ستراهما في الحياة الأبدية.

- وهل سأقابل الرب أيضًا في الحياة الأبدية؟

- هذا هو المراد يا بنى، هذا هو المراد.

بحث سمير عن شيء ما أسفل وسادته، ثم أخرج منديلًا ملفوفًا بداخله سنّ قديمة مخلوعة من فمه، أمسك السن ثم قدّمها لإيفون قائلًا: لم أرمِها في عين الشمس لأهديها لك.

نظرت إليه في امتنان وقالت: أعطها للدكتور هادي، فقد أرسله الله لك ليُتمّ شفاءك.

***

بعد الاطمئنان على سمير، سألتْ إيفون في أثناء وقوفنا على عتبة باب الملجأ عن سبب سلوكها طريق التكريس، قالت بطريقتها التي تجعلك لا تملّ منها أبدًا : لو عاد بي الزمن لاخترت هذا القرار مرارًا وتكرارًا، لم أندم مطلقًا عليه، لا بد أن بداخلك العديد من الأسئلة تخص قراري هذا يا دكتور. تأثرتُ منذ المرحلة الإعدادية ببعض الكتب الدينية التي تتحدث عن حياة الرهبنة، مثل «بستان الرهبان»، رأيت الكمال في من قرأت عنهم، تغير سلوكي نحو الانعزال والتأمل الطويل، استشرت بعدها الأنبا بطرس في دير البتول لكنه أمرني باستكمال دراستي، في تلك الفترة حرصت على تقسيم وقتي بين الدراسة والصلوات، ثم التحقت بكلية التربية النوعية قسم الاقتصاد المنزلي. أنا أصغر إخوتي وأقربهم إلى قلب أمي، لهذا كانت أمي رافضة تمامًا وقالت لي بالحرف: لا يوجد ما يسمى بالرهبنة، ستجلسين هنا معي ولو لآخر العمر.

ابتسمت إيفون في هدوء بجانب فمها كأنها تتذكر شيئًا ما لطيفًا وأكملَتْ: حلمت أمّي بالعذراء التي طمأنتها في الحلم وقالت لها: «لا تخافي، أريد إيفون، أنا من يريدها وليس العكس».. لكن الأمر لم ينتهِ عند ذلك، فوالدي رجل صعب المراس، صرخ في وجهي مهددًا بالإبلاغ عن الدير. عندما بدأ في الصراخ ثبتت رقبته في مكانها، اعتبر أن ذلك آية، إذ لم تعُد رقبته إلى حالتها إلا عندما ذهب إلى الأنبا بطرس وقال له: «إن كان الله يريد باقي أخواتها فليأخذهم».. أيام يا دكتور.. ذهبتُ إلى الدير ملأى برغبة القرب من الله، حاولت أن أسخّر حياتي للرب فقط لكنني لم أحتمل الرهبنة المنعزلة، اخترت بعدها خدمة الناس والتكريس، أحيانًا يدعوك الرب لخلوة طويلة معه فتكمل حياتك بالدير، وأحيانًا يدعوك لتراه في الناس، تخدمهم وتستمع لآلامهم، بل وتوجد حلولًا لهم، فتعرفه أكثر...

سرحت إيفون قليلًا ثم قالت في شرود: هواجس وكوابيس كثيرة تهاجمني يا هادي، كوابيس مرعبة، أحيانًا يتجسد لي أحدٌ من الأهل يبكي ويستنجد بي، أحيانًا أرى أطفالًا جميلة تناديني بـ«أمي»، ورغم أن فكر الرهبنة بدأ معي منذ الصغر، فإنني أعيش حروبًا نفسية كثيرة، أحيانًا ينتابني إحساس بالملل الشديد، أصل إلى هذا الباب ثم أعود مرة أخرى، أجاهد نفسي، أنا الآن في فترة اختبار طويلة، لم أصبح مكرسة بعدُ لكنني اقتربت كثيرًا، بقيت شهور قليلة.. لا أريد الفشل هذه المرة، بالأحرى أنا خائفة، خائفة جدًا يا هادي.

وددتُ لو أحتضنها، لم أستطِع التخفيف عنها، حتى خوفي تضاءل كثيرًا أمام ما تواجهه. هل تؤمن بالحب يا سامح؟ الكثير من الفلاسفة حاولوا إعطاء تعريف محدد للحب وفشلوا، أستطيع الآن إخباركم أن الحب هو ما شعرت به ناحية إيفون، حتى خوفي من التعلق بها أكثر كان حبًا.

- أنتِ جميلة جدًا يا إيفون.

قلتها بصوت لم يكد يُسمع ثم غدت إلى البيت.

***

بعد أيام من الأعمال التطوعية، ولقاءات شبه يومية مع إيفون، اشتقت إلى الطبّ.. كنت أشعر بالسعادة عندما أخفف آلام الناس مِن حولي، أو حتى توجيههم إلى الطبيب المناسب، لكن غرفة الجراحة كانت وستظلّ هي المسرح الذي يخرج طاقتي الحقيقية، حتى وإن أخفقتُ في أحد المشاهد.. كثير من الأطباء مرّ بنفس تجربتي مع راغب النطاط ولم يهتمّ، تجده في اليوم التالي يلقي عليك التحية متجهًا إلى غرفة العمليات بلامبالاة. فكرت كثيرًا، هل هذه لامبالاة حقيقية أم مفتعلة؟ كيف يواجه الإنسان نفسه بعدما أنهى حياة أسرة كاملة؟ كي نصل إلى هذا البرود في المشاعر؟ تخيل أن طبيبًا قتل والدتك بالخطأ، ستتذكر في لحظة واحدة ابتسامتها الدافئة وقلقها عليك وتلك الوجبات الساخنة التي أطعمتها لك، بل ستذكر حتى محاولتها تعديل سلوكك بشكل صارم، كل هذه السنوات والشهور والأيام ثم يأتي أحدهم وينهي ذلك، هذه أمك، راغب النطاط كان أبًا لثلاثة أبناء كذلك.

طلبنا الأنبا بطرس لاجتماع صغير مع بقية المكرسات ورجال التطوع. كنت قد تعلّقت بهذه المجموعة كثيرًا، أوقات سعيدة كنت أعيشها معهم حتى لو لم أتحدث مع إيفون، مجرد وجودها من حولي في المكان كان يريحني، كنت أسمعها تبدي رأيها بأمر ما فيخفق قلبي بشدة، وقتها تجدني أتحرك في مقعدي يمينًا ويسارًا محاولًا التحكم في جلستي.. بالطبع كنت أوافق على أي اقتراح منها ومن الكل كذلك، لم أكن أريد أي توضيح لوجهة نظري فيفضحني صوتي، ورغم أنني أعلى الجميع في الشهادة الجامعية فإن بصمتي لم تكن تظهر مطلقًا في تلك الاجتماعات.. قال أحمد رامي قديمًا: «الصبّ تفضحه عيونه». شعرت أنّ الكلّ يعرف بشعوري ناحية إيفون، لكنني لم أكن مهتمًا، كانت أنانية مني، أليس كذلك؟

في نهاية الاجتماع، طلب منا الأنبا بطرس الاستعداد لزيارة بعض الملاجئ في القاهرة نهاية الأسبوع، ثم التوجّه مع عدة قوافل طبية إلى إحدى قرى الجيزة، وأخيرًا حضور اجتماع على مستوى الأديرة التي تهتمّ بالعمل التطوعي.. هذا العمل كان برعاية دير أبو سيفين بمصر القديمة لمدة يومين فقط.. في أثناء خروجنا أخرجت بعض الحلوى من جيبي، كنت قد اشتريتها مسبقًا، لفتح أي حديث ولو بسيط مع إيفون، أخذت في توزيع الحلوى تباعًا في أثناء الخروج، وعندما اقتربت من إيفون وناديتها خرج صوتي مشرقًا رغم ضعفه: تفضّلي.

ابتسمَتْ في خجل وشكرتني، هنا طلبت منها طلبًا يحمل العديد من التجاوزات ولا يتناسب مع العلاقة الروحية بيننا، لا أعرف إلى الآن يا سامح كيف طلبته، قلت في صوت بدا لي عاليًا جدًا وقتها: أحضري رداءً آخر غير هذا معك في أثناء رحلتنا إلى القاهرة.

نظرَتْ إليّ في تعجّب ولم تنبس ببنت شفة.

***

استأذنَتْ إيفون من مديرة الملجأ ساعة واحدة متعللة بمرض والدتها، وصلَتْ إلى منزلها في ملوي لكنها لم تجد أحدًا، الجميع كان بالخارج، دخلَتْ غرفتها وفتحت خزانة ملابسها بسرعة ثم أخرجت فستانًا قديمًا لها منذ فترة المراهقة.. مراهقة نهاية الثمانينيات، تلك التي تنتمي إلى عالم اللاموضة، الفستان مزركش بألوان كثيرة مرسوم بداخلها دوائر بيضاء كبيرة الحجم، تأملت إحدى الدوائر وابتسمت لها كأنها تعرفها، تلك الدائرة بالذات أسقط عليها بيشوي ابن أخيها بعض قطرات العصير، تذكرت بيشوي في إحدى زياراتها السريعة للمنزل وهو يسألها في براءة: هل ستسافرين من جديد؟

حاولَتْ تجاهله لكنه كرر سؤاله كثيرًا كعادة الأطفال، قالت في تأثر جاهدت لتخفيه: أنا معك دائمًا يا صغيري.

لكنها عادت إلى الدير ومنه إلى الملجأ مرة أخرى من جديد.

سألت نفسها: ما الذي جعلك تأخذين قرارًا بفراق الأحبة هكذا بكامل إرادتك؟ هل الإيمان هو ما يحركك فعلًا؟ هل خدمة الناس بعيدًا عن الأهل ستقربك إلى الله؟ اللحظات الدافئة بين المرء وأسرته ومن يحبونه هل تُضعف علاقتك بالرب؟ لا أظن، لكنك ماكرة يا إيفون، تعلمين أن حب الأهل والأقارب هو ثواب تُجزى عليه، لكن ماذا عن حبّ هادي؟ الطفل الضائع الذي يشعر بميل نحوك، هل ستُجزَين خيرًا على مقابلته هو الآخر؟ لماذا تتأملين ثوب الماضي الآن؟ لا توجد ديانة سماوية تحرّم الحب، هذا صحيح، لكن الحب هو المشاعر، المشاعر وكفى، ما ينتج عن تلك المشاعر من تجاوزات هو ما يهين الحب ويجعل منه ذنبًا، لكن في النهاية ما يجعلنا نسير في هذه الدنيا هو النسيان، نسيان الحقيقة المريعة وهي شرور النفس، أنت تحمل شرورًا لم تتخيل يومًا إنك تُؤويها، شرور جينات أجدادك وأجداد أجدادك وعليك أن تختار، الرب يقول: «إنّ الحكمة لا تلج النفس الساعية بالمكر ولا تحلّ في الجسد المشرق للخطية».. هل جسدي مشرق للخطية يا رب؟ هل نفسي سا...

- إيفون! متى جئتِ ولماذا تنظرين إلى هذا الثوب هكذا؟

قاطعها صوت أمّها فالتفتت إليها بسرعة ثم ابتسمت مدارية ارتباكها وقالت: أمي؟! كيف ح...

قطعت الأم حديثها هذه المرة قائلة بلهجة عتاب خفيفة: اشتقت إليك كثيرًا يا.. يا مقدسة، إلا تراودك الرغبة في العودة قط يا ابنتي؟

قالت بسرعة: أماه، لقد جئت إلى هنا من أجل التبرع بهذه الثياب القديمة، أنت تعلمين إجابتي عن هذا السؤال مسبقًا.

قالتها وبدأت في لملمة الثياب بشكل عشوائي. كانت تعلم أنها تحنّ إلى الماضي، تحنّ بكل خلاياها، الشوق يقتلها حتى أدمى قلبها وسلوكها معًا فصارا يشطحان في تهوّر.. الطبيب المتهوّر أيقظ شيئًا ما داخلها، هل تحبّين هادي يا إيفون أكثر من ربّك؟ هل نسيتِ كلماته داخل الكتاب عن حبّ الخالق؟

- لا.. بل أحِبّه جدًا، ولا أعرف كيف تزول الأنا يا مولانا.

***

انطلق القطار نحو الشمال، إلى قاهرة المُعزّ، المدينة الساحرة، المليئة بالعجائب، كان السفر بعد الفجر لكنني لم أشعر بالتعب، حجز الأنبا بطرس عربة كاملة من الدرجة الأولى، الرجال في المقدّمة والنساء في الخلف.. إيفون كانت رائعة حقًّا رغم أني لم ألمحها سوى مرتين تقريبًا، تابعتُها وهي تبتسم لجارتها في المقعد، لحظات قليلة جدًا، لكنها تثلج الصدر، قمت من مقعدي متحججًا بضبط وضع حقيبة السفر أعلى الرفّ فلمحتُها تنظر إليّ، تحركت حركة مرتبكة ثم عاودت الحديث مع جارتها مبتسمة.

كِدتُ أجنّ مِن فرط التساؤل بخصوص ما طلبته منها، هي لم توافق لكنها لم تمانع في نفس الوقت، تعجّبتُ فقط أنها لم تسألني عن السبب وتركتني حائرًا، الغريب أنها لم تشك مثلًا إلى الأنبا بطرس من تصرّفاتي، لم يبدُ عليه أي مشاعر سلبية تجاهي، كذلك لم تعتذر مثلًا أو تتحجج بأي شيء لعدم المشاركة في هذه السَّفرة. أعتقد أنها وافقت على طلبي، أو على الأقلّ ليست نافرة من تصرّفي. لم أكن شيطانًا يا سامح يحاول الإيقاع بفتاة متديّنة، كنت شابًا يكتشف نفسه مع فتاة من عالم آخر، التحدث إليها يجعلني سعيدًا، مالكًا الأرض وما عليها، القليل منها مثل البحر يغرقك في حبه، أما الكثير منها فقليل، لا يُشبِع.

عاودتُ الجلوس في مقعدي بجوار الأنبا بطرس الذي امتلأ بصوت مليء بالطاقة الإيجابية وأخذ يشجعني كثيرًا، تمنى لي العودة إلى ميدان الجراحة قريبًا. لم يكن ذهني حاضرًا لبدء نقاش طويل بخصوص هذا الأمر فوجدتني أقول: أفكر بالزواج ثم الهجرة إلى كندا، فُرِحتُ كثيرًا يا أبتاه أننا سنقيم يومين بجوار السفارة الكندية.

- لِمَ الهجرة يا ولدي؟

- أشعر أنني سأكون أفضل، هناك سأجد المال والهدوء النفسي، وهو ما أصبو إليهما.

قال في هدوء كعادته: تزوَّج أولًا ثم نفكر في أمر الهجرة.

لم أخبره أنني قد جهّزت الأوراق اللازمة للهجرة بالفعل، حتى لا أجعل من المناقشة عديمة الفائدة، قررت كذلك طلب الزواج من إيفون، هي ما زالت تحت الاختبار ولها الحق في تحديد مسارها، الكثير من المكرسات غذنْ إلى حياتهن الطبيعية مرة أخرى، إيفون لن تكون الأولى، ثم إنني لا أطلب منها شيئًا مشينًا.

سرحت بعيدًا في التفكير بإكليل الزواج وفترة الخطوبة والأطفال، بل وصلتُ إلى آخر العمر ونحن نعود غانمين من بلاد الهجرة لجني ثمارها هنا في مصر.

غلّث صافرة القطار لتقطع آمالي مع إيفون، وبدأنا في التجمع بأوتوبيس كان في انتظارنا بميدان رمسيس، أرسلته كنيسة جاردن سيتي كنوع من المشاركة في هذا الحدث. تذكرت بيتًا من الشعر قرأته عندما رأيت إيفون تتأهب لصعود الحافلة: «أجِدُ المَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً.. حُبًا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ».. ما أحلى اللوم في حُبّك يا إيفون، خصوصًا عندما يكون اللوم من نفسي، أتعذّب مِن هواك لأجلك وأطرب بذكرك بين ضلوعي رغم هشاشتها، فلا ذكرك يخفت ولا الضلوع تقوى، منافسي في المحبة هو ربي، فإن حكم -وهو العدل- قضى بقربي منك، أيكون وقتها نعمة منه أم عقابًا لي على إعادتك إلى دُنيانا؟

وصلنا إلى شارع إبراهيم نجيب بحي جاردن سيتي، هنا بالجوار يا سامح.. وتحديدًا عند بنسيون «فلوباتير».

***

جاردن ستي واحد من أرقى أحياء العاصمة، أسسه الخديوي إسماعيل بالقرب من فندق سميراميس لتعيش به الطبقة العليا من المجتمع لاستقبال وضيافة الأجانب عند افتتاح قناة السويس، وصُمّم بحيث تكون شوارعه دائرية.

العمارة التي يحتل البنسيون أول ثلاثة طوابق منها كانت تحفة معمارية تحمل طابع مصر الخديوية، بها شرفات نصف دائرية منمقة ونوافذ خشبية محاطة بقوائم أسمنتية وكرانيش مستطيلة مزخرفة وتماثيل حجرية نادرة، وهناك قباب مرتفعة تعلو العمارة منحتها شكلًا عريقًا محببًا للنفس.

الطابق الأرضي لبنسيون «فلوباتير» يتألف من مدخل به نافذتان تطلان على الشارع، وهناك صالة دائرية متوسطة الحجم يقابلك في بدايتها مكتب بسيط للسيدة العجوز وكرسي خشبي متهالك نوعًا ما لمساعدتها، وهي شابة في نهاية الثلاثينيات، وهناك صالون في الركن القريب من قاعة الطعام المنفصلة عن الصالة الرئيسية بستار بسيط داكن اللون، وهناك العديد من الفوتيهات والكراسي المنجدة بنسيج من الوبر ذي الخطوط اللامعة، أما في الوسط فهناك منضدة مستديرة تعلوها رخامة تزينها آنية من الخزف الصيني الشهير، تشعر أغلب الوقت أنها ستسقط مهشمة في أي وقت. وهناك ساعة حائط عتيقة وبعض اللوحات مرسوم بها السيد المسيح، وتابلوهات لمناظر طبيعية مكررة، تُذكّر الناظر إليها ببنسيون «ميرامار» الذي ألهم نجيب محفوظ بكتابة روايته العظيمة بنفس الاسم.

***

بنسيون «فلوباتير».. قد أكون مررتُ من أمامه عدة مرات وقت عملي بمستشفى «المنيرة»، لكنني لم ألحظ جماله من قبل، لعل الإقامة القصيرة لحبيبتي هناك جعلت منه قصرًا من قصور الأساطير.

وقف الأنبا بطرس ومعه فريقه وبعض المتطوعين لترميم البيوت الآيلة للسقوط أو تلك التي تحتاج إلى أسقف أو توصيل المياه، حتى ظهرت صاحبة البنسيون ومديرته في نفس الوقت، مدام فادية، وهي سيدة

في العقد السابع من عمرها تدير البنسيون بعد وفاة زوجها منذ ثلاثين عامًا، امرأة عجوز، ضئيلة الحجم، ترتدي ملابس من التريكو وتعقص شعرها إلى الخلف على طريقة ذيل الحصان الشهيرة، ابتسامتها خلابة تنمّ عن طيبة شديدة. عرفت أن دير أبو سيفين يتعامل مع هذه السيدة منذ زمن ويحافظ على تلك العلاقة جيدًا. البنسيون نجمتان فقط، هذه النجوم فرضتها وزارة السياحة مؤخرًا لكن أغلب هذه النزل الرخيصة تكون تابعة لقسم الشرطة التابع لها (قصر النيل في حالتنا هذه)، ولا تتعامل مع وزارة السياحة.

قبّلَت مدام فادية يد الأنبا بطرس ورحّبت به كثيرًا رغم أنها تراه للمرة الأولى، يبدو أنها سيدة متدينة نوعًا ما. أنهت الإجراءات سريعًا لعلمها المسبق بمجيئنا، وتمنّت لنا ليلتين سعيدتين.. في أثناء ذلك كان النشاط قد دبّ في البنسيون، وبدأ النزلاء في الظهور تدريجيًا من الطابقين العلويين. وجدنا بالداخل الكثيرين من صعيد مصر ممن يعملون بالجوار، وعدة جنسيات غالبًا من متوسطي الدخل.

وضعنا الحقائب داخل غرف النوم، العلوية للرجال والسفلية للمكرسات، واتجهت بعدها لتناول وجبة الإفطار. كانت منضدة طعام الأطباء بجوار منضدة إيفون ومعها اثنتان من زميلاتها، تبادلنا النظرات فألقيت التحية عليهن.

- صباح الخير.

ردّت بصوت خافت مع الجماعة، وقالت: «صباح النور»، وأكملت: «يا دكتور». وبدا صوتها أكثر وضوحًا في كلمة «دكتور»، فثبت نظري عليها لثوانٍ.

خرجنا للعمل في حماس مع الجماعة، كان التجمع بكنيسة أبو سيفين، هناك فريق قادم من دير بالإسكندرية وأسيوط وأخيرًا دير دميانة من محافظة الدقهلية، خمسة أوتوبيسات ضخمة اتجهت ناحية محافظة الجيزة، وجدنا رؤساء الأديرة هناك وبصحبتهم مندوبون من الوحدات المحلية لتقييم العمل.. لن أطيل عليك يا سامح، الحياة في قرى محافظة الجيزة لا تختلف كثيرًا عن قرى الصعيد لدينا، نفس الوجوه الشاحبة والبيوت الفقيرة، أنشأنا خيمة ضخمة للكشف على المرضى، وإجراء جراحات بسيطة لهم.. وجوه عديدة مرّت علي يا سامح وأنا أعمل في جدّ وحماس شديدين، فكرة أنّ إيفون ليست غاضبة وأنّ هناك أملًا في الموافقة على طلبي كانت تشعل حماسي.. استطعنا كذلك تقديم خدمات إنشائية لقرى عديدة بسبب العمل الجماعي مع باقي الأديرة.. كنت أتابع إيفون وهي توزع الطعام في شغف دون رهبة من التجمعات الضخمة أو توتر من التحايل المستمرّ من أهالي القرى. اعتقدت أنها تنتظرني كي أتحدث إليها.

بعد ساعتين أو ثلاث بدأت الأمطار في الهطول بشكل بسيط، ثم زاد الأمر حتى صعب استكمال المأمورية في هذا الطقس، فأشار إلينا الأنبا بطرس ناحية الأوتوبيس للعودة إلى البنسيون.

غدنا إلى البنسيون العتيق وتناولنا عشاء خفيفًا وصعد كل فرد إلى غرفته، كان يشاركني في الغرفة أحد الأطباء من محافظة الفيوم، سألته عن كرم المحمدي فأخبرني أنه في أحسن حال، تبادلنا أطراف الحديث قليلًا قبل أن يخلد هو إلى النوم.

لم أستطع النوم بالطبع، عجزت عن التخلص من الأفكار المظلمة التي راودتني منذ هطل المطر.. مطرود من العمل، وتسبب إهمالي في ذنب لا أعرف كيفية التوبة منه، مكرسة تائهة نفسيًا حتى وإن أظهرت بعضًا من الثبات الانفعالي في حديثها، طقس نوفمبر الغائم والمطر الذي لا يستأذن بثّا شعورًا بالضيق داخلي، أعتقد أنه مرتبط ببدء الدراسة، انتابتني حالة من الشجن يشوبها بعض الترقب من هذه العلاقة الغامضة، وتمنيت فقط ألا يكون حبًا من طرف واحد. مع الأسف، الحب لا يختار أبدًا الوقت المثالي، بل تجده يختار دومًا الظروف الصعبة ليعيش فيها وينضج بشكل جنوني يفوق تخيّلك، ويجعلك مستعدًا لخسارة أيّ شيء مقابل استمرار وجوده.

في صباح اليوم التالي، أخرجتُ الأوراق المطلوبة للهجرة، شهادة الميلاد، موقف من التجنيد، جواز السفر،

مستند إنهاء الخدمة للعاملين بالحكومة... إلخ، واستأذنت ساعتين من الأنبا بطرس لتقديمها للسفارة الكندية هنا، تمنى لي التوفيق على أي حال.

في السفارة طلبوا مني المزيد من الأوراق الحكومية، لكن الأهمّ من ذلك هو ما يفيد بتعرّضي للاضطهاد الديني هنا في مصر. تذكرتُ واقعة مستشفى «تبارك» واضطهاد أصحابها لي، تذكرت أيضًا إيصالًا موجودًا في أغراضي بالبيت موثق به اسم المستشفى وفترة عملي القصيرة، كان المبلغ تقريبًا في حدود ثلاثمئة جنيه أو يزيد قليلًا، لم أصرفه وقتها بسبب طلبهم مني تجهيز باقي الأوراق والعودة مرة أخرى بعد الانتهاء منها.

في طريق العودة شعرت بالتوتر نوعًا ما، لا أعلم لماذا يزيد التوتر كلما اقترب ميعاد قبول الهجرة، قلت لنفسي إنّ هذا توتر طبيعيّ يظهر مع اقتراب أيّ حدث جديد، أعرف صديقًا كان يشعر بالضيق عندما تستعين زوجته بخادمة لتنظيف البيت، فما بالك بالهجرة؟ طمأنت نفسي أكثر بكوني أستطيع العودة إلى مصر بعد تحسن وضعي المالي كي لا أعيش تحت ضغط المرتب الحكومي في مصر.. تذكرت أحلامي بالزواج من إيفون قبل الهجرة، فوجدت نفسي أصيح بصوت مرتفع داخل أوتوبيس النقل العام: انس أمرها أيها المعتوه.

نظر جميع الركاب ناحيتي فنظرتُ إليهم بلا مبالاة وتمتمت لنفسي: سأترككم جميعًا عما قريب أيها المخدوعون.

وصلت إلى البنسيون في أثناء تناول القافلة لطعام الغداء. أُقسِم لك يا سامح أنني لمحت في عين إيفون نظرة لهفة لن أنساها، كنت قد اتخذتُ قراري بمصارحتها بمشاعري والتحدث معها على انفراد، كنت على يقين أن إيفون تحبّني أو معجبة بي على الأقل، وسبب رفضها الزواج سيكون دينيًا لا أكثر، لهذا حاولت تهيئة نفسي للرفض.. لماذا كنت خائفًا هكذا؟ لماذا كان الهلع يجتاحني كلما تخيّلت اعتمادها كمكرسة من الدير؟

توجّهنا بعد الغروب لاحتفال بسيط بدير أبو سيفين، لتسلُّم جوائز رمزية، أفضل مشاركة لطبيب، أفضل جهد مبذول من العمّال، أفضل زوج متعاونة... إلخ، حصلت على جائزة أفضل طبيب في أثناء الحملة، كان ذلك متوقعًا بسبب خبرتي الكبيرة، ما يفعله طبيب مبتدئ في يوم كامل أنجزه أنا في ساعة واحدة. لم تحصل إيفون على جائزة لكنها لم تُظهِر أيّ غضب، على العكس كان وجهها بشوشًا، بادرتني هي بالاقتراب في قاعة الاحتفال قائلة: مبروك يا دكتور، ليلتك اليوم مضيئة كالقمر.

قلت والابتسامة لا تفارق شفتي: ليلتي ستضيء إذا ما قابلتك بالخارج، هل اقتنعتِ بطلبي؟

- لم أقتنع، لكن يقتلني الفضول لمعرفة سببه.

- أنت تعرفينه، سأنتظرك بعد ثلاث ساعات من الآن، عند رأس الشارع الرئيسي.

تركتها واتجهتُ في سرعة ناحية الأنبا بطرس، قلبي كان يدقّ بسرعة شديدة لكنني سعيد، كنت سعيدًا جدًا يا سامح كما لم يحدث من قبل.

***

ليلة الرابع من نوفمبر 1999

العاشرة مساءً

نامت شريكات إيفون في الغرفة نومًا عميقًا، بعد مجهود شاقّ على مدار اليوم، صلّين جميعًا في سرعة ثم استقبلن السرائر بشهية عذائي الماراثون، أما هي فلم تستطِع الصلاة بخشوع.. رغم الحرب الدائرة بداخلها وقفت في غرفتها وجميع حواسها منتبهة جدًا، حاضرة الذهن كمن شرب عدة جالونات من القهوة. لو أراد علماء النفس دراسة حالة من حالات التشتت النفسي ما وجدوا أفضل من حالة إيفون حنا الراهب وقتها، غزا الأدرينالين جسدها كمدينة مهجورة، مما جعل وجهها متوردًا بشدة وغمر العرق جسدها رغم تسلل نسمات الخريف الباردة للغرفة، دقات قلبها كانت تتسارع كغزالة هاربة من فكّي نمر، هناك هرمونات أخرى تملأ جسدها

الآن لا تعلم عنها شيئًا مثل الدوبامين والسيروتوبين أو هرمونات السعادة كما يصفها العلماء. للأسف، لم يكن لديها الوقت الكافي لدراسة كيمياء عقلها، إذ قررت الخروج مع هادي.

المكرسة تستعد للقاء طبيب الجراحة، ليس من أجل علّة في الجسد، إنما لاختبار إرادتها أو بالأحرى التأكد من مشاعرها. يقول بولس الرسول: «لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك النور»، هذا صحيح بالفعل، الرهبان وأولياء الله الصالحون قد يظهر لهم الاختبار في صورة أنوار وتجليات، بل وفعل الخير نفسه، ثم يكتشفون أن الشيطان حوّلهم إلى مجموعة من المغرورين. هل يكون هادي شبه ملاك النور ظاهريًا والشيطان من الباطن؟ دافع قلبها بأن الشيطان سيزين لك الخطيئة، لكنه لن يطلب منك الزواج.

سحبَتْ حقيبتها من أسفل الفراش في بطء شديد، حاولَتْ جاهدة عدم إصدار أيّ صوت، خطر بعقلها أنّ من يفعل شيئًا في الخفاء لا بدّ أنه إثم كبير، لكن قلبها دافع للمرة الثانية بوجود أفعال لا تندرج تحت خانة الآثام ومع ذلك لا تستطيع مواجهة المجتمع بها.. خلعَتْ قميص النوم وأمسكت فستان مراهقتها ثم تأمّلت الدوائر البيضاء للمرة الثانية على ضوء الأباجورة الضعيف.

كان بالها مشغولًا بالكثير من الأفكار.. البدايات فقط هي التي تحدّد النهايات، إذا ما بدأت سلوكًا خاطئًا فأنت لم تغد محفوظًا من السماء كما كان، فإما العودة سريعًا وإما الغرق كحجر. حاولَتْ ترتيب أفكارها، التكريس ليس نهاية الكون، والزواج ليس خطيئة، تذكرت نفسها منذ عدة سنوات، وكيف كانت الرهبنة حلم حياتها، تكبر ويكبر هذا الحلم معها، هل من الصواب الآن التفريط فيه بتلك السهولة؟ اكتفى قلبها بالمشاهدة هذه المرة نظرًا لقيام عقلها بالمطلوب.

بحثَتْ عن حذاء غير حذائها الأسود الخاص بملابس الدير فلم تجد، انتعلته وحركت مقبض الباب للخروج.. فجأة زاد شعورها بتأنيب الضمير، هذه المرة ليس بسبب الخروج في موعد غرامي مع هادي، إنما بسبب عدم ارتدائها الصليب الذهبي الكبير، صار المظهر الوحيد الدالّ على ميولها الدينية هو حذاؤها للأسف. نظرت إلى الدائرة البيضاء للمرة الثالثة في شرود، هذه المرة شعرت بعدم نصاعة لونها، بصقت عليها بطريقة لا إرادية لتنظيفها ثم أكملت طريقها ناحية الباب.

***

- وهل سأقابل الربّ أيضًا في الحياة الأبدية؟

- هذا هو المراد يا بُنَيّ، هذا هو المراد.

***

الحادية عشرة مساءً..

كان الشارع خاليًا مِن المارّة تقريبًا، غمرته الإضاءة الصفراء الخافتة في مشهد يبعث على التوتر.. وقف الشاب النحيل ذو العقود الثلاثة أسفل عمود الإنارة فظهر ظلّه طويلًا كأبطال الأساطير، أما الفتاة فكانت تسير ببطء في اتجاهه، مشبكة يديها خلف ظهرها، ناظرة إلى أسفل طوال الوقت.. صوت حذائها كان يعلو كلما تسارعت خطواتها، فأبطأت قليلًا من مشيتها، الفستان الرقيق الذي ترتديه يُظهِر جزءًا من ساقَيها، أما عن أكمامه القصيرة فلم تشعر معها بالبرد. تمتمت بكلمات لنفسها، لعلها تحفظ سؤالًا لتلقيه في وجه الشاب كي تفهم غرضه سريعًا، أو ربما هي بعض الأدعية لحمايتها من الوقوع في أي خطأ يجعلها مذنبة أمام نفسها.

رآها بعيدة جدًا، كأنها تسير فوق خريطة العالم وليست على بُعد خطوات منه، أما هي فرأته -بعد أن رفعت رأسها- قريبًا جدًا فأبطأت خطواتها أكثر وأكثر، الغريب أنها حين وصلت إليه لم تسلم عليه أو تتكلم، لم تكن تعلم وجهته، فقط تابعت السير بجواره جاعلة فاصلًا بينهما خطوتين تقريبًا.. دخل يسارًا ناحية شارع قصر العيني بخطوات سريعة في البداية ثم تمهّل بعد ذلك، وبعد أن خرجا من منطقة جاردن سيتي شرع في

الحديث قائلًا بصوت هادئ: كيف حالك يا إيفون؟

ابتسمت قائلة: «بخير»، ثم أكملت: لقد تركتك منذ ساعتين فقط.

- إيفون، أريد أن أصارحك بشيء قبل هجرتي إلى كندا.

قالت في جزع حقيقي: هل ستسافر؟

قال دون النظر إليها: سأسافر معك، سيصبح للحياة طعم معك هناك. هل تقبلين الزواج بي؟

- أنت تعلم أنني في فترة اختبار يا دكتور ليبتعد مصيري بعدها كثيرًا عمّا تطلبه.

- نحن نستطيع تغيير المصير، ثم إنّ المصير في الحالتين طيب، أنا لا أطلب منك الهجرة كصديقة، بل كزوجة. إيفون، أرجو أن تفكري بالأمر جديًا، هذه الأمور مصيرية فلا تتعجلي الإجابة.. أريد التحدث معك في أمور كثيرة قبل أن أعرف قرارك، وجودك معي هنا الآن يسمح لي بعرض طلبي المشروع دون خوف.

سادت فترة صمت، وفي أثناء سيرهما في تؤدة بطرقات وسط البلد العتيقة سألته: وإذا رفضت، هل ستسافر؟

- بالتأكيد يا إيفون، لقد حكيت لك قصتي مع مستشفيات القاهرة ونهايتها المحبطة، ليست نهاية العالم بالطبع، لكنني قدمت أوراقي لرؤية باقي العالم، لعلي أجد ذاتي من جديد.

لم تعلّق على ما قاله، وبعد خمس دقائق كاملة قالت: أنا كذلك أبحث عن ذاتي من جديد، فلِمَ تحاول إثنائي عن ذلك؟

قال بسرعة: أنا لا أثنيكِ عن فعل أي شيء، أحاول أن نجد ذواتنا في أرض جديدة ولكِ حرية الاختيار، أنتِ ناضجة بما يكفي لتفعلي ذلك، أليس كذلك؟

- ربما.

شوارع هادئة، وليل مقمر، كانا يسيران في سعادة تغلفها الدهشة نوعًا ما، لا أحد ينظر إليهما، لكنّ كل منهما كان يراقب نفسه في حذر، حبيبان من صعيد مصر، يحملان عاداته فوق كتفيهما، يحملان صليبًا صغيرًا موشومًا بأيديهما يضاعف من توترهما، هواجس عن أجمل مشاعر البشرية يحاولان فهمها واختراقها دون لمس للدين، عملية جراحية يحاولان بها علاج أمراض الروح دون أي إمكانيات أو حتى أمل بالنجاة، قد لا يصلان إلى اتفاق في قصة الزواج لكنهما يحتاجان إلى الحديث عن الطفولة، المستقبل، الحب.. بعد نحو نصف ساعة حكيا فيها الكثير عن حياتهما، وصلا إلى شارع 26 يوليو.

- ما رأيك بتجربة جديدة جدًا عليك يا إيفون؟

قالها هادي في حماس شديد.. فنظرت إليه متسائلة، فأمسك يدها استعدادًا لعبور أحد الشوارع الفرعية، أفلتت يدها من بين أصابعه برفق، ابتسم وطلب منها الانتظار لدقائق.. وجدته متجهًا ناحية مبنى ضخم له عمودان مرتفعان، بينهما جدار أسمنتي عريض ومكتوب وسطه باللون الأحمر «سينما كايرو بالاس»، أما هو فنظر إلى الأفيش المعروض فوجده لفيلم «الميل الأخضر» للممثل الأمريكي الشهير توم هانكس، تحدث إلى موظف شباك التذاكر فظهرت عليه علامات الفرحة، قطع تذكرتين لحفلة منتصف الليل ثم عاد إليها قائلًا في بهجة: متبقٍّ عشر دقائق فقط على الحفل.

أطرقت برأسها لأسفل وابتسمت في خجل، فضحك بصوت عالٍ قائلًا: نحن مجانين يا إيفون، أليس كذلك؟

قالت في وَذ: بلى، أتمنى أن ينتهي هذا الجنون على خير.

- أعدك يا إيفون أنه سينتهي أفضل نهاية.

أمسك يدها بكلتا يديه فلم تعترض هذه المرة ونظر في عينيها مباشرة قائلًا في جدية: إيفون، أعلم تمامًا ما تفكرين فيه، قد كان اتجاهك الديني ناحية الرهبنة هو حبّ الخالق عز وجل، لم يظهر حبّ في حياتك ينافس هذا الحب.

اعترضت قائلة في ضيق: لا توجد منافسة بين هذا وذاك يا هادي.

- ليكن، ليس تنافسًا، حبّ الرب بداخلنا جميعًا، مَن مِنّا لا يرغب في أن يسيطر هذا الحبّ على كل جوارحه؟ والأهم هل الخالق الذي نسعى جميعًا لرضاه جبلنا على هذا؟ حب المخلوق يا إيفون من حب الرب، فطرة خلقنا الله عليها ولا يُحسب أو يُخطّط لها. أعدك أنْ أكون زوجًا متدينًا، زوجًا يحبّك ويتمنى أن ينعم الله على أسرته بالرضا. إيفون، أنا أحبّك.

تحوّل خدّاها إلى ما يشبه ثمرتي طماطم، وأشاحت بوجهها بعيدًا، فأكمل قائلًا في حماس: هذا الفيلم جيد جدًا، بعض أصدقائي شاهدوه ورشحوه لي، هيا بنا.

انطلقا ناحية السينما، وألقيا التحية في مرح على موظف التذاكر، دلفا إلى القاعة ثم جلسا متجاورين، حياة آمنة بالداخل بعيدة تمامًا عن صراعات الخارج، شاشة بيضاء ضخمة ابتلعتهما داخل أحداث مثيرة جعلتهما يسافران بعيدًا.. من ركن قصيّ في عقل كل منهما قفز نفس التساؤل: مَن قال إنّ الحب نهايته خروج عن الأخلاق؟ الحب هو برواز العقائد ومتمّمها، فكيف ننزع من القلب ما يؤكد صلابة الإيمان بالله؟

***

- في يوم محاسبتي عندما أقف أمام الله ويسألني: «لماذا اقترفت هذه الخطيئة؟»، ماذا سأقول وقتها؟

(اقتباس من فيلم Green Mile)

***

في أثناء مشاهدة الفيلم بكت إيفون، بكت كما لم تبكِ من قبل، لم أدرِ إن كان بكاؤها بسبب تأثرها بمشاهدة الفيلم أم بسبب كل ما حدث لها. الأكيد أنها استغلّت الفيلم لتترك لدموعها العنان.

خرجنا من السينما قبل نهاية الفيلم، قالت إنها تريد العودة إلى البنسيون، حاولتُ إثناءها عن القرار لكنها أبت، شعرتُ بالقلق عليها من نفسها لكنني نفّذت رغبتها.. كانت تشبه الملائكة أسفل ضوء القمر أمام السينما، حاولتُ إضحاكها فهدأت قليلًا، في طريق العودة لم تتكلم لمدة نصف ساعة، ثم قالت أخيرًا بصوت خفيض: دكتور هادي، أعلم أنني وافقت بكامل إرادتي على الخروج معك في هذه النزهة اللطيفة، لكنني لن أعدك بشيء الآن، أحتاج إلى الراحة بعض الوقت، أحتاج إلى الجلوس مع والديّ، أحتاج إلى ربي، أحتاج إلى اتخاذ قرار لا أندم عليه البتة، اتفقنا؟

قلت محاولًا إخفاء سعادتي البالغة فخرج صوتي أشبه بالسرسعة: اتفقنا.

وصلنا إلى ميدان التحرير فلمحتُ أحد الشحاذين يقوم من جلسته ثم يعاود الجلوس مرة أخرى، يبدو أنه خجل من قطع تلك اللحظات الرومانسية، هنا صاحت إيفون فجأة: هل تحمل نقودًا؟

دهشتُ قليلًا من السؤال وأجبت: معي بالطبع، لكن لماذا؟

- أعطني بعض الفكة بنية التصدّق، فستاني ليس به جيوب للأسف.

نظرت إليها في عتاب بسبب تبريرها الجارح قليلًا، ثم ناولتها خمسة جنيهات.. أخذتها واتجهت ناحية الشحاذ وأنا من خلفها، هتفت وهي تسير بخطوات سريعة نوعًا ما: أعِدك أنّ تشتتي وضبابية المستقبل سوف ينتهيان سريعًا ببركة هذا العطاء.

قالتها ثم رددت آية من الإنجيل في رقة: «ابسط يدك للفقير لكي تكمل بركتك».

صرنا أمام الشحاذ مباشرة، للوهلة الأولى تظنه رجلًا في آخر العمر، لكن بعد التدقيق بملامحه ستدرك أن ذقنه غير الحليقة وملابسه المتسخة تركت هذا الانطباع على الرغم من أنه قد يكون في الأربعينيات مثلًا. كان ممسكًا بمجلة أجنبية بيديه المتسختين، رفع عينيه إليها في بطء وأخذ يتفحص شكلها أولًا ثم الفستان المزركش الذي ترتديه، شعرتْ بالغيرة دون داعٍ، حاولتْ جذبها في رفق لكنها لم تستجب، مدّت يدها اليمنى الممسكة بالنقود، فلمح وشم الصليب عليها، أخذ منها النقود ثم نظر إليها طويلًا وقال بإنجليزية طليقة: «من أضاع حياته من أجلي يجدها».

تسمّرت إيفون قليلًا، ظلّت تنظر إليه عشر ثوانٍ كاملة وانتابتها حالة غريبة من السرحان.. هذه آية من الإنجيل أعرفها جيدًا، تُكتب غالبًا على جدار الكنائس الغربية.. ما قصة هذا الرجل؟ هل هو مسيحي أم أنه يهوى مشاهدة الأفلام الأجنبية؟ ثم لماذا هذه الآية تحديدًا الآن؟ أسئلة كثيرة دارت في بالي دون أجوبة.

- هل سنبقى هنا حتى الصباح يا إيفون؟ لقد تركنا الفيلم من أجل العودة سريعًا.

ابتسمتْ للشحاذ في ودّ، ثم تحركت معي في بطء.. ألقيتُ نظرة أخيرة عليه فوجدته يكمل تصفُّح المجلة.

بعد ثوانٍ سمعنا صراخًا يضجّ في الميدان، كان الشحاذ يصرخ من الألم ممسكًا بطنه ويتلوى مثل الثعبان على الأرض، نظرَتْ لي إيفون نظرة بمعنى «أنت طبيب يا هادي، لن ترى مريضًا يتألم وتظل هكذا دون حراك».

ألم مفاجئ يفوق الاحتمال في الجانب الأيمن من البطن، هذه الأعراض لا تحتاج إلى عبقري لتشخيصها بالتهاب الزائدة الدودية. قررت فحص الرجل للتأكد، فأسرعت الخطى إليه وإيفون تتبعني دون كلام.. عرفت من حرافيش الميدان وباقي الشحاذين أن لقبه «بوسطة». علم الجميع أنني طبيب فأفسحوا لي الطريق، لا أعلم لماذا يصرّ الناس على مشاهدة أيّ موقف يتعرض فيه الآخرون للخطر، ما إن يقع حادث حتى يتقاطر الفضوليون إلى المكان دون تقديم مساعدة تُذكر.

طلبت من «بوسطة» الاستلقاء على ظهره ثم بدأت في ثني ركبتيه والضغط على الجهة اليمنى من أسفل، ثم إزالة اليد بسرعة، هنا علا صراخه كفأر سكب عليه مراهِق بنزينًا وأشعل به النار، كان غارقًا في عرقه مغمضًا عينيه وبدأ في خبط رأسه يمينًا ويسارًا بالأرض كما يحدث بحفلات الزار، ثم قاء ما في معدته في مشهد مقزز.

صِحتُ في قوة: هذا الرجل يحتاج إلى عملية جراحية في أسرع وقت.

صاح أحد الحضور: نذهب به إلى مستشفى «المنيرة»، إنها هنا بالجوار.

تبرّع سائق التاكسي لإيصاله، فحشِر الرجل بالعرض على المقعد الخلفي ثم نظر الجميع ناحيتي، توقعت ما ستقوله إيفون فشعرت بالاضطراب بعض الشيء.

- أنت طبيب يا هادي، لن ترى مريضًا يتألم وتظل هكذا دون حراك.

ألقتها إيفون على مسامعي بالفعل فلم أجادلها وقلت للسائق: انطلق بنا إلى مستشفى «المنيرة».

ركبتُ السيارة ثم أخرجتُ رأسي من شباك السيارة ناحيتها قائلًا: اتبعيني يا إيفون، المسافة إلى المستشفى لن تتعدى خمس دقائق سيرًا على الأقدام.

تبعتني إيفون بالفعل، رأيتها من زجاج السيارة الخلفي، كانت تبتسم في حنان وعيناها تبعثان على الشجن، لكن وجهها الطفولي يجبرك على الابتسام، ضمّت أصابعها إلى راحة يدها إشارة لحماسها.. جميلة أنت يا إيفون، تمتلكين زوح قدّيسة، وعقلَ طبيب نفسي ماهر، وجسدًا رقيقًا تغزو المشاعر خلاياه.

أشرت بيدي للتأكيد عليها بالقدوم، فهزت رأسها عدة مرات لطمأنتي، كان حماسها باهتًا يا سامح، لم يكن بمثل الحماس السابق، لكنني لم أضع ذلك في الاعتبار.. ظلّت عيني متعلقة بها حتى غابت تمامًا عن نظري، لم أكد أعدل من وضعي حتى سمعتُ صوت السائق يتنهد في ارتياح قائلًا: الحمد لله.. وصلنا.

***

مشت إيفون بخطوات متثاقلة، مصطحبة جسدها الهزيل داخل أحضان المحروسة، عبرت الظلام الإجباري خائفة بسبب قلة أعمدة الإنارة في اتجاه مستشفى «المنيرة».. خطواتها متخاذلة من الفكر كمن يحمل أطنانًا من ملح في قدميه، رياح نوفمبر الموسمية غزت رئتيها فصارت مشاعرها مرهفة ومزاجها يتقلب من الكآبة للحيرة.. أفكار غريبة عنها تلاحقها منذ أن وَطِئت قدماها المدينة، الشوارع الباردة والأرصفة المتشققة، الطرقات تعجّ صباحًا بالأوجاع اليومية للمواطنين وبأثر عرقهم ليلًا، تشدّها إلى المجهول، الحياة قاسية، قاسية جدًا لدرجة الرعب.. إيفون التي تعشق صوت الأطفال في أثناء ترديدهم الألحان من حولها، وأقصى ضغط تعرضت له كان مرض سمير بالحمى أصبح عليها الآن أن تعدو في الطرقات ليلًا لتلحق بحبيب القلب هربًا من... من حبيب القلب أيضًا.

رأت من بعيد ضوءًا خافتًا قادمًا من لافتة المستشفى فشعرت بانقباض في صدرها.. صوت واحد كان يغطي كل ضوضاء عقلها، صوت واحد استطاع ترجيح كفة أحد طرفي الصراع بداخلها، صوت رجل من عمره ذي هيئة رثة وعينين ذابلتين، كان صوت «بوسطة». ابتسمت ابتسامة خفيفة عندما تذكرت الاسم لكنها سرعان ما كتمتها.

- من أضاع حياته من أجلي يجدها.

***

- هادي! عاش من رآك أيها الوغد، كل هذه الغيبة ثم تأتي إلينا في هذا الوقت؟!

قالها كرم المحمدي مازحًا وهو يقف في استقبال مستشفى «المنيرة»، ثم احتضنني بقوة مرحّبًا بي في حرارة شديدة.. كان صراخ «بوسطة» يعلو كل دقيقة أكثر من سابقتها، فنظر إليّ متسائلًا عن علاقتي به، شرحت له الحالة باختصار ثم سألته عن إخصائي الجراحة، فقال لائمًا: ما بك يا رجل؟ هذه أسهل أنواع الجراحات، بعد أن أحضرت إلينا هذه التهمة لا تريد العمل نصف ساعة فقط؟

- أنت لا تعرف شيئًا يا كرم.

قلتها باقتضاب.. كانت الأفكار تعصف بي والصراخ يعلو أكثر وأكثر ضاغطًا على أعصابي، لم أكن راغبًا في تجربة مريرة أخرى يا سامح، خصوصًا قبل الهجرة. تمتمت لنفسي في يأس: أين أنتِ يا إيفون؟ لماذا تأخرت؟

تركت كرم واقفًا واتجهت ناحية باب الاستقبال للتأكد من وصولها، هنا شقّ صوت كرم المستشفى مجلجلًا في هذا الليل الطويل: ليكن في علمك، أنت تعمل طبيبًا وستتعرض لاختبارات كثيرة طَوَال حياتك، لقد علمت بوفاة مريض بسبب إهمالك، لكنك ما زلت في أول الطريق، الكثير يحتاجون إليك يا هادي، وأولهم أنت.

اتضح لي أن كرم كان يعرف سِر إجازتي المرضية الوهمية، تركني وانصرف بالطبع بعد جملته القاسية. أعرف تمامًا أن الصديق الحقيقي هو الذي يصرخ في وجهك بالنصيحة إن ركلتك الحياة، أو رآك خائفًا منها، كان كرم المحمدي صديقًا حقيقيًا.. سألتني رئيسة الممرضات عن تجهيز غرفة العمليات للمريض، لم تكن هناك مسؤولية قانونية علَيّ بالطبع، المسؤولية أصبحت أدبية فقط أمام صديقي.. وإيفون.

هززت رأسي بالموافقة.

غرفة العمليات من جديد.. أخذتُ نفسًا عميقًا لأملأ رئتي برائحتها المميزة، قمت بشق 8 سم تقريبًا أسفل بطن «بوسطة» بالمبضع حتى وصلت إلى الزائدة الدودية، أمسكتها بالملقط ثم قصصتها في مهارة، شعرت كأنني أراها لأول مرة.. عندما بدأت في شطف تلك المنطقة للتأكد من عدم وجود صديد أو غيره كان التوتر قد وصل بي إلى أشدّه، فالمرحلة التالية كانت وضع الدرنقة. ارتعشت يدي للحظات، لكنني تحسست موضعها جيدًا.. «أخيرًا» قلتها ثم تنفست الصعداء.. كانت إحدى الممرضات تتكلم في لا مبالاة، غير شاعرة بكمّ التوتر

بداخلي.

وقفتُ لدقائق أنظر إلى ملامح الرجل، وجهه مليء بالسلام النفسي والهيبة في نفس الوقت، تشعر أنك أمام شخص ذي قيمة، مظهره بالفعل شخاذ، لكنك تشعر أنه سيتحوّل إلى شخصية أخرى في أي لحظة، أعتقد أن وراءه قصة طويلة لكنني لم أعرفها قَطّ.

- والله زمان يا دكتور.

قالتها الممرضة فابتسمتُ لها في خجل، ثم خلعتُ القفاز والزيّ الطبي (scrub).. كنت فخورًا بنفسي لأقصى درجة يا سامح، صحيح أنها عملية سهلة لكنها منحتني الكثير، لا أعلم إن كنت نجحت بسبب تأثير الحبّ أم ضغط كرم، كل الظروف كانت تدفعني دفعًا للوقوف بغرفة العمليات مرة أخرى، لكن انتظار إيفون لي بالخارج كان أعظم تلك الدوافع. نظرتُ إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، هرولتُ ناحية باب الخروج في لهفة لتشاركني لحظات الانتصار، وجدت كرم جالسًا يتناول عشاءه، نادى عليّ لكنني لم أرد، كنت منطلقًا كالمجاذيب نحو الخارج.

للأسف، كان الشارع خاليًا تمامًا من المارّة، نظرتُ يمينًا ويسارًا فلم أجدها، ناديت عليها بصوت عالٍ: «إيفون، إيفووون».. لا شيء أيضًا.

اتخذت طريق العودة إلى البنسيون بخطوات سريعة، كنت قلقًا على إيفون، أشعلتُ سيجارة وأخذت أعبّ دخانها في شرود فبدأت أهدأ قليلًا وأفكر، لربما طال انتظارها وعادت إلى جاردن سيتي خشية اكتشاف أمرها من إحدى الزميلات، لكن كيف عادت إلى هناك دون نقود؟ جال بخاطري أنها قد تكون ما زالت في الطريق إلى البنسيون فتحوّلتُ من المشي إلى العدوِ حتى وجدتُني في الميدان مرة ثانية. وجدتُ أحد السائقين مشغولًا بتنظيف ميكروباص، ما إن رآني حتى هتف: بارك الله فيك يا دكتور، زميلتك كانت في طريق الذهاب إلى جاردن سيتي منذ نصف ساعة، وقفنا لها سيارة أجرة لاصطحابها. لا تخف، معنا رقم السيارة.

عرضت عليه مالًا فرفض بشدّة معتبرًا ذلك إهانة له.. «عيب»، قالها ماذا في حرف الياء لتأكيد الرفض.

يقول الفيلسوف الألماني نيتشه: «كل الأفكار العظيمة تولد في أثناء المشي»، هكذا بدأت الأحلام تعبث برأسي، زواجي بإيفون، الهجرة، النجاح العلمي الخارق، الارتقاء بالمستوى الاجتماعي... إلخ. هدأ عقلي تمامًا حتى إنني دندنتُ أغنية شعبية لحكيم «نار نار» كانت منبعثة من أحد المقاهي، شعرتُ برغبة في الرقص فأخذت في تقليد حركاته في الكليب الشهير.

بنسيون «فلوباتير» من جديد.. ضغطتُ جرس الباب ففتحت لي مدام فادية والنوم يداعب عينيها، ابتسمت في خبث عندما رأتني، يبدو أنها فهمتْ سِرّ خروج إيفون في تلك الساعة المتأخرة، لم تسألني عن ذلك بالطبع. ألقيتُ عليها التحية مبتسمًا ثم دلفت إلى غرفتي.. استلقيتُ مسنِدًا رأسي على ظهر السرير شاعرًا بلذة الراحة بعد التعب، أضحكني شخيرٌ صادرٌ من أحد زملاء الغرفة، ضحكت بصوت عالٍ، وكلما علا شخيره علَتْ ضحكتي معه، كنت سعيدًا يا سامح، كأنّ كل ما مررت به كان كابوسًا ثم انتهى، اكتشفت أن حياتي صارت ملأى بالأمل، ونمت مرتاح البال.

استيقظت في الواحدة ظهرًا تقريبًا، شعرت بفزع بعدما وجدت غرفتي خالية من الزملاء، ارتديت ملابسي على عجل ونزلت إلى الدور الأرضي، لم أجد أيّ فرد من مجموعتنا على الإطلاق، لم أجد أحدًا سوى مدام فادية بوجهها البشوش، استقبلتني قائلة في مرح: صباح الخير يا دكتور، ناموسيتك كحلي.

قلت في سرعة: صباح النور يا مدام فادية، أين الأنبا بطرس؟ أين الجميع؟

دهشت من سؤالي وقالت في تعجّب: ألم تخبر إيفون ليلة أمس بأنك ستكمل أوراق الهجرة ولا تريد من أحد إيقاظك؟!

هززت رأسي قائلًا بارتباك: بالفعل.

من الواضح أن مدام فادية هي من أبلغت الأنبا بطرس برغبتي في البقاء بتوصية من إيفون.. نظرَتْ إليّ في شك ثم اقتربَتْ مني حتى صار رأسها بمحاذاة صدري بسبب فرق الطول، وهمست بطريقة جدية كأنها تخبرني بسرٍّ ضخم: لقد تركت لك الآنسة خطابًا وطلبت مني أن أعطيك إياه.

مددتُ يدي في سرعة وأخذت الخطاب، كان بداخل ظرف مغلق، تأملته لثوانٍ.. تساؤلات عديدة كانت تدور داخل عقلي وقتها. شكرتها ثم توجهت إلى غرفتي فسمعت مدام فادية تتمتم: يا للشباب.

أغلقت باب الغرفة من ورائي وفتحت المظروف، وجدت صليبًا صغيرًا، عرفتُ أنه يخصّ إيفون بالطبع، وضعته على الكومود ثم شرعت في القراءة، لا أذكر نص الخطاب لكنني ما زلت أحتفظ به إلى الآن يا سامح، سأقرؤه عليك، هل تسمح لي بإشعال سيجارة أخرى؟ شكرًا.

«عزيزي هادي..

سمعتُ ذات مرة عن قديسة تدعى تكلا، مال قلبها شيئًا فشيئًا حتى سقطت في الرذيلة، أتدري ما حدث بعد ذلك؟ لقد تابت على يد أخيها وعاشت أيامًا قليلة بعدها تطلب المغفرة من الله حتى ماتت شابة وحملت الملائكة روحها إلى السماء.. إنّ ذلة القلب مهما كانت بريئة لهي أشدّ ثقلًا من خطايا المجرمين.. أنا على يقين أنك ستتخطى أزمتك هذه الليلة، لعلّ ذاك المسكين يكون سببًا في خلاصنا معًا، إن لم نَسِر خلف الإشارات الربانية لمحتنا بلا قيمة، الرب يقول: }وأذناك تسمعان كلمة خلفك قائلة: هذه هي الطريق، اسلكوا فيها، حينما تميلون إلى اليمين وحينما تميلون إلى اليسار{.

أعرف أنني سأشتاق إليك كثيرًا وستنهمر دموعي كثيرًا، لكنني لن ألوم أحدًا غير نفسي.. الاختيار بين القلب والعقل هو رهان يهديك أو يسلب منك كل شيء، بينما الاختيار بين القلب والقلب يجعلك متأكدًا من خسارته كاملًا. لقد خسرت يا هادي، خسرت وعزائي الآن أن ليلة خسارتي ستكون بالمشيئة هي بداية انطلاقتك، وأن رحمة الله لا تعزّ على طالب.

حبيبتك إيفون.. أو الأخت تكلا».

***

لن أحدثك عن اكتئاب ما بعد فشل العلاقات العاطفية يا سامح، فأنت تراه جليًا في وجهي كالشمس.. أحببت إيفون كثيرًا لكنها لم تكن يومًا من نصيبي، هل ذلك ما يجعل الحب يعيش داخل القلوب؟ أعتقد ذلك.. الحب يولد من رحم المعاناة، أو بمعنى أدق، الحب الدائم هو نتاج معاناة ضخمة لم تُحَلّ أو لم تنتهِ نهاية سعيدة.. يقول باولو كويلو: عندما تكون الأيام يشبه بعضها بعضًا فذلك يعني أن الناس توقفوا عن ملاحظة الأشياء الطيبة في حياتهم، كيف هذا ولا شيء طيب في حياة البشر سوى الحب؟ البدايات الصعبة يجعلها الحب ذكريات سعيدة، المرض يجعله الحب اختبارًا إلهيًا، فراق الأصدقاء يجعله الحب بداية جديدة، حتى الزواج والجنس، انزع الحب منهما وسيتحول الشغف بهما تدريجيًا إلى صورة مرسومة بالغبار على زجاج سيارتك، تعرف أنها ستصبح عدمًا بعد فترة.

فكرة أن تستيقظ لتجد نفسك غير قادر على رؤية من تحب فكرة قد تقودك إلى الجنون. ربما كان قرار إيفون صائبًا لكن القاعدة تقول: القلب لا يسير جنبًا إلى جنب مع العقل أبدًا. إذا وجدت من يقول لك: «لقد توافق قلبي مع العقل» اطعنه سريعًا لأنه في الغالب مخبول. هذا يعود إلى طبيعة الإنسان وعشقه لقاعدة «الممنوع مرغوب».. كل شيء بداخلي كان يفتقدها وبشدة، يصارعني ويقاوم بعنف، بدت كل أسباب الرحيل تافهة أمام ميادين الألم بداخلي، حمدت الله أنني لا أرى أحدًا من الأهل والمعارف وإلا لأصبحت أضحوكة. أذكر أنني رأيت طفلًا لأسرة آسيوية يضحك فأجهشت بالبكاء دون سبب، اقتربت من الاكتئاب بمعناه المَرَضي وليس الدارج، أعرف أن التغلب على أعراض الانسحاب من إدمان الحبّ قاسية، يلزمها البحث عن مصدر

سعادة آخر وشغل الوقت وتغيير نمط الحياة... إلى آخر هذا الهراء، لكنني قمت بتأجيل كل هذا ليكون دافعًا للنجاح بعد الهجرة، كنت ملزمًا بالانتهاء من بعض الأوراق الحكومية، هذا في العادة يجعل يومي مقبضًا، لكنه خفف من اكتئابي نوعًا ما.. بقيت في البنسيون ونويت عدم الذهاب إلى ملوي قبل الانتهاء، اكتفيت بالاتصال أسبوعيًا بوالدي كي أطمئنه عليّ، في الليل كنت أجلس مع بعض النزلاء -كبار السنّ- وقت تناول الوجبات نشاهد التلفاز أو نقرأ الكتب، حياة بسيطة تتمنى استمرارها في البداية، ثم تجد نفسك بعد فترة غريبًا عن أي شيء غيرها.

اهتمّت بي مدام فادية بشكل خاص تلك الفترة، أعتقد أنها بقلب الأمّ كانت تحسّ بهشاشتي وقلة حيلتي.

- «هوّن عليك يا ولدي، الأيام القادمة ستأتي لك بكل الخير»، تقولها في بساطة وحنان وتسكت قليلًا ثم تؤكد: صدّقني.

اضطررت إلى الذهاب إلى ملوي مرة واحدة فقط لإحضار إيصال مستشفى «تبارك» وبعض الملابس الثقيلة بسبب دنوّ الشتاء القارس ومِن ثَمّ العودة في نفس اليوم.. بحثت عنه في أوراقي كلها حتى عثرت عليه في حقيبة صغيرة كنت أستخدمها في تحركاتي اليومية وقت العمل.

كنت أمنّي نفسي برؤية إيفون ولو لمرة أخيرة، مشيت في شوارع ملوي من محطة القطار حتى بيتنا متوقعًا وجهها الصبوح أمامي في أي لحظة، ألقيت نظرة من بعيد على موقف قرية أبو حنس، وبحثت في كل الوجوه عن حبيبتي، لم أجدها، وأعرف جيدًا أنني لن أراها ثانية.. في البيت وجدت الرجل الذي أرفض مواجهته وأخشى من الحقيقة التي يبثها في كلامه دائمًا.. أبي.. دار بيننا حوار حول الهجرة والعائد منها، حوار في بدايته عقلاني لكنه انتهى بأغرب سؤال سمعته من أبي طيلة سنوات حياتي: هل فشلك في الحبّ هو ما دفعك إلى التصميم على الهجرة؟

فشل في الحب؟! كيف عرف؟! أكمل دون أن أسأله: يا بني، الفشل مرة لا يعني الفشل أبدًا، انظر إلى الإيجابيات الكثيرة التي تمتلكها، هناك بشر يعانون أضعاف أضعاف معاناتك لكنهم راضون عن حياتهم أملًا في لحظات سعيدة بجوار من يحبونهم، هناك من يحبك يا ولدي، وأريدك أن تقدر ذلك وتفهمه.

توترت نوعًا ما من حديثه وشعرت برغبة في البكاء، وسكت تمامًا. أكملتُ تجهيز حقيبة سفري وطمأنته أنني في خلال إقامتي الأخيرة بالقاهرة قمت بعملية جراحية لأحد المرضى جعلتني أستعيد الثقة مرة أخرى.. ابتسم وحمد الله وأوصاني بالعودة لوداع أخته قبل رجوعي إلى البنسيون.. رغم بقائي في ملوي مدة لم تزد على ساعات فإن تأثيرها كان سلبيًا على زوجي.

أكره الفترات الانتقالية بشدة، ما بين مصر والهجرة عانيت كثيرًا، تمنيت أن أنتهي سريعًا من كل هذا، لكن القدر أراد ألا تنتهي تلك الفترة بشكل طبيعي.. في أوائل ديسمبر، أقامت سيدة إيرانية في البنسيون لقرابة ثلاثة أسابيع، أتت غرابة تلك الفترة من المرأة نفسها، جنسيتها، جمالها، غلاقتها بي، وأخيرًا خدشها للجرح العميق الذي كنت قد أوشكت على نسيانه، ولهذا قصة أخرى.

***

آن سيف الملك سيدة إيرانية جميلة جدًا يا سامح، لم أرَ إيرانيات من قبل لأعرف جمالهن، لم أرهن حتى في التلفزيون أو الصحف، لكن آن عبد المهدي كانت أجمل سيدة وقعت عليها عيناي، يا للمسيح! العينان الواسعتان الغامضتان، غمازتان صغيرتان تظهران مع ابتسامتها الساحرة، الرموش الطويلة، الشفاه المحدّدة، سبحان من خلق! كانت تضع الحجاب الإيراني الذي يظهر مقدمة شعرها فتزداد جمالًا. لا تفهمني بشكل خاطئ يا سامح، أنا أصف لك جمالها ليس إلا، لم يخطر ببالي -وأقسم على هذا- شيء آخر، هي جميلة بالفعل وخطفت أنظار رواد البنسيون بالكامل من اللحظة الأولى، لا أنكر أن ظهورها أوجد بعض التغيير وابتعد بالأحداث عن الرتابة وقسوة التفكير في إيفون.. في يومها الأول رأيتها تتحدث مع مدام فادية ليلًا، لم أسمع ما تقولانه لكنهما

كانتا في انسجام كبير وعيناهما تلمعان أغلب الوقت، بعد ساعات أشارت مدام فادية بإصبعها ناحيتي خلسة، فاستدارت آن ببطء ونظرت باتجاهي، ابتسمتُ لها وارتبكتُ بعض الشيء ثم توجهتُ إلى غرفتي بعد استئذان الحضور، لم يذهب أحد من النزلاء للنوم إلا بعد الاطمئنان على آن بالطبع.

في صباح اليوم التالي تناولتُ الفطور وجلستُ أتصفح الجرائد، فوجئتُ بالجميلة الفارسية تجلس بجواري، فارتفع الأدرنالين في خلاياي بشكل صارخ، بدأت هي الحديث قبل أن تنفجر عروق رأسي من هذا الوضع قائلة بصوت ملائكي باللغة العربية: صباح الخير، اسمي آن من إيران.

قلت في اقتضاب: صباح النور.

قالت في ودّ: أريدك أن تسدي إليّ خدمة.

قالتها بالإنجليزية هذه المرة وصارت هي لغة التفاهم بيننا.

قلت في سرعة: على الرحب والسّعة بالطبع.

قالت إنها جاءت للبحث عن زوجها المصري وأنها لا تعرف عنه شيئًا منذ عامين تقريبًا، سألتها عن المطلوب فأجابت أنها تريد مني البحث عنه في منطقة الزمالك حيث يقيم، لكنها لا تعرف شيئًا عن تلك المنطقة، وأضافت أن جنسيتها الإيرانية جعلتها مثار شك في المؤسسات الحكومية.. تخوفتُ قليلًا من الأمر لكن ثقتها ووجها البريء بددا أيّ شك بداخلي، سألتها عن بيانات الزوج فأجابت: زوجي يمتلك هنا في مصر مصنعًا لتصنيع كماليات السيارات، اسمه راغب النطاط.

هنا سقط قلبي بين قدمَيّ في لحظة من الصدمة، وتصبّب العرق على جبيني وزاد تنفُّسي سرعة، حاولتُ إشعال سيجارة فلم تسعفني أعصابي.. راغب النطاط.. عنوان لأسوأ فترات حياتي، فترة تأنيب الضمير، لن أنسى هذا الاسم ما حييت، رغم أنه لم تجمعني بصاحبه ولو كلمة واحدة.

- سيد هادي، هل أنت بخير؟

- أنا بخير آن خانوم. الطلب غريب نوعًا ما فقط فشعرت بتوتر، لحظات وأعود إليك.

- تفضّل.

لم يظهر عليها أي نوع من الريبة ناحيتي، كانت عيناها حزينتين ومتعلقتين على ما يبدو بأمل العثور على الزوج، لم أجد سببًا للذهاب إلى غرفتي فاتجهت إلى دورة المياه الخاصّة بالعاملين في البنسيون، وفعلت ما أفعله دائمًا عند التوتر الزائد، أفرغت ما في معدتي في الحوض.. أحدهم أحيا ماضيًا قريبًا أحاول نسيانه، حياتي الآن صارت محاولات لنسيان الماضي البعيد والقريب، غسلتُ وجهي بالماء البارد محاولًا التماسك ثم خرجت إلى البهو من جديد، فكرت في الهروب منها بأي طريقة لكنني وجدتها تنتظر خروجي.

- سيد هادي.. أرجوك!

- سيدتي، هناك الكثير من حولك هنا في البنسيون، لمَ أنا بالذات؟

نظرت إلى عيني مباشرة -أعتقد أن عينيها هي أجمل ما فيها، بنران بهما آلاف الشموس- وقالت: مدام فادية اقترحت علي اسمك، قالت إنك شهم بالإضافة إلى أنك لا تخرج إلى أي عمل في الصباح أو المساء. آسفة، يبدو أنك لا تمارس الطبّ حاليًا.. هل هذا صحيح؟

قلت وقد تملكني الغيظ: بالفعل أنا لا أمارس الطب الآن، لكنني أستعد للسفر إلى كندا. هذه مرحلة مؤقتة في حياتي.

اعتذرتْ مرة أخرى ثم ساد السكوت.

في اليوم التالي قررت أن أساعدها، تلك السيدة لا تسخر مني أو تحاول الإيقاع بي، هناك مصادفة ثقيلة عبثية لا تتكرر سوى بنسبة واحد في المليون، أتت إليّ من آخر مكان توقعت معرفته بواقعة إهمالي، إيران. هذا الرجل -رحمه الله- كان كثير الغلاقات إلى حدٍّ مرعب. سألت نفسي: كيف استطاع خيانة امرأة مثل آن؟! حاولت تذكُّر شكل الفتاة التي أتت به إلى المستشفى يومها لكن الذاكرة لم تمنحني الفرصة، بالتأكيد ليست في جمال آن، لكن هل الخيانة مرتبطة بالجمال؟ أعتقد لا، الأمر يتعلق بالشخصية، بالبيئة، بالتربية، لكنه لا يتعلق بالجمال مطلقًا، كيف لنجمات السينما أن يتطلقن إذًا؟ ملكات الجمال، عارضات الأزياء؟ إذًا لا يعني الجمال أن تنعدم الخيانة، الخيانة مثل الكليبتومانيا (مرض السرقة) المتسبب فيه هو الاضطراب النفسي والمحرك له هو اللذة والهدف منه هو الإثارة.

كنت أخرج يوميًا من البنسيون في الصباح لمدة أسبوع كامل، أسبوع كامل من الكذب والتأليف والخداع.. صباح الخير يا مدام آن، أنا ذاهب للبحث عن زوجك الميت.. مساء الخير يا مدام آن، مع الأسف، اليوم لم أعثر على زوجك الميت.

- لا توجد مشكلة، فلنجرّب مرة أخرى غدًا يا سيد هادي.

هكذا مرّ أسبوع من الكذب الروتيني، لم يخلُ من بعض التنويع حتى يسبك تمامًا. أقسام البوليس، للأسف اسمه غير موجود. المستشفيات، هذه لعبتي يا مدام، لقد طلبت من جميع أطباء الزمالك إفادتي عن المدعو راغب النطاط.. للأسف لم يدخل أيّ مستشفى حكومي أو استثماري منذ فترة. يبدو أن زوجك في صحة جيدة رغم وصوله إلى الخمسين. سماسرة العقارات لم يسمعوا باسمه من قبل، شركة السيارات باعها منذ أشهر قليلة ومالكها الجديد لا يعرف عنه شيئًا. هل تعرفين اسم زوجته الأولى؟

- للأسف لا.

قلت مبتسمًا هذه المرة: اسم العائلة أو أي شيء؟

- للأسف لا أعرف.

الغريب أنني كنت أذهب إلى الأماكن السابق ذكرها بالفعل، أسأل عن راغب النطاط كأنّ وجوده على قيد الحياة سيعيد لي رونق حياتي مرة أخرى، سيقضي على فكرة الهجرة إلى كندا، ويجعلني ناجحًا وثريًا هنا في بلدي، سيعيد لي إيفون من دير البتول ويجعلها تفضل الزواج بي عن حياة الرهبنة. عُد إلى الوراء قليلًا أيها الزمن وأعِد لي بريق الحياة من جديد.

عرفت عن راغب الكثير من خلال سؤالي في شركته القديمة، رجل يحب الحياة، ذكي، لكنه أناني إلى أقصى درجة، أضاع الكثير من ثروة والده بسبب النساء والخمر. صراحة، آن من النساء التي يُضيع الإنسان مال عائلته كاملًا للزواج بها. عمل كثيرًا في فرنسا وطهران، هنا خطرت في بالي فكرة، وبدأت في تنفيذها على الفور، قابلت آن وقلت لها في أسف: سيدتي، زوجك راغب النطاط قام بتصفية أعماله وهاجر مع أسرته إلى أستراليا.

هكذا تمت الخطة بنجاح، لكن الفارسية جُنّت تمامًا، أخذت تضحك في جنون ثم بكت في أحضاني، هذه المرأة ينست تمامًا من الحياة، إما أنها اقتربت من الانتحار وإما أنها على وشك تلقّي علاج نفسيّ طويل المدى. حزنت جدًا لأجلها، حزنت مثلما حزنت على فراق إيفون، تمنيت أن أبوح لها بالسرّ وأن أخفف عنها، لم أكن أدري إن كان هذا سيخفف عنها أم سيقضي عليها تمامًا. أقسم لك يا سامح أنني لم أكن خائفًا من ردّ فعلها، لم يكن هناك ما أخاف منه بعد تسوية الأمر قانونيًا مع زوجة راغب المصرية، أما صورتي أمامها فلم تكن تهمني البتة، كنت أعرف أنني لن أرى تلك السيدة بعد عودتها إلى إيران، كنت قلقًا عليها بالفعل. اتخذت قراري بمصارحتها بوفاة راغب وكذا أسباب الوفاة في الليل عندما تستقرّ حالتها العصبية، لكنها خرجت في المساء دون أن تحدّد وجهتها، حاولتْ مدام فادية أن تُحضِر لها سيارة أجرة لكنها رفضت، عرفت هذا من مدام فادية نفسها.

- هذه السيدة تمرّ بأزمة طاحنة يا دكتور.

- حاولتُ مساعدتها لكنني زدت حالها سوءًا.

قلتها بالمثل الشعبي «جه يكحلها عماها».

- وما ذنبك أيها الشاب؟ لقد فعلت ما بوسعك.

ابتسمتُ لها ثم انصرفتُ للجلوس أمام التلفزيون. بعد فترة دخلت آن، كانت مرتبكة يبدو عليها الإرهاق، ملابسها في حالة مزرية وكعب حذائها مكسور، آثرت عدم الحديث معها، لكنها نادت عليّ: دكتور هادي، لحظة من فضلك.

اتجهت إليها على الفور.

- أريد منك خدمة أخيرة، سأقوم بتبديل ملابسي سريعًا والعودة إليك.

لم تترك لي الفرصة للاستفسار عن طلبها، لكنني لن أرفضه على أي حال، تلك السيدة لو طلبت مني سرقة البنك الأهلي لما ترددت لحظة.. تناولت قرص فافرين (مضاد للاكتئاب) وبقيت في مكاني، لا أخجل من قول ذلك، مضادات الاكتئاب تريحني كثيرًا، أعرف آثارها الجانبية بحكم دراستي لكني لم أكن قادرًا على التوقف، ثم إنّ تلك العقاقير ليست أسوأ مما هربت منه، العقل عندما يطلب منك مضادات اكتئاب فتأكد أن زوحك قد شبعت من طلب الموت.

بدأ مفعول القرص، تدريجيًا تحولت معاناتي إلى بطولة، شعرت أنني أساعد بالفعل مَن تسببتُ في تعاسته، وأنني لست مذنبًا في شيء وأن التوبة شرطها نسيان الذنب وليس الإقلاع عنه، بل إنّ يهوذا نفسه قد يرافق المسيح في النعيم.

كانت راحة زائفة مثل قصة بيلاطس الشهيرة، هل تعرفها يا سامح؟ لا يهمّ، سأحكيها لك باختصار..

كان بيلاطس يعرف أن المسيح بريء، ولهذا قال ها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان على ما تشتكون به عليه. عندما كان جالسًا على كرسي الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة عن المسيح: «إياك وذلك البارّ لأنني تألمت اليوم كثيرًا في حلم من أجله»، لكن بيلاطس أمر بحكم الموت ضد ضميره، ولأجل أن يريح ضميره راحة زائفة أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلًا: «إني بريء من دم هذا البارّ».. تقول القصة إن بيلاطس عندما خلا إلى نفسه في منزله وجد يديه ملطختين بالدماء فغسلهما مرة ثانية ولكن الدم لم يفارقهما، فغسلها للمرة الثالثة وهو يقول: «أنا بريء من دم هذا البارّ».. وعاد الدم يلطخهما من جديد، واستمر هكذا مرات عديدة وهو يصرخ في رعب:« أنا بريء من دم هذا البارّ».

هذه القصة تصوّر لك مقدار الرعب وفقدان السلام الذي أصابني منذ رأيت راغب النطاط، وتجددت مع آن سيف الملك، ضميري لم يمت لحظة واحدة أهنأ فيها مثل بيلاطس. ثرى هل أشنق نفسي مثل يهوذا بعد خيانته للمسيح؟

***

دقّت الساعة الكبيرة في صالة البنسيون معلنة انتصاف ليلة من ليالي ديسمبر المطيرة، كان هادي غائصًا في مقعده كالأطفال عندما تمثل دور المختفي عن الأعين، جعله الدواء غير عابئ بالعالم، أمّا مدام فادية فكانت جالسة بالقرب من البرافان تداعب قطة لأحد الحضور. صوت صفير الرياح في الخارج جعلهما راضيين عن وجودهما في البنسيون كل الرضا.. بعد دقائق طلّت الإيرانية طلّة لم يعهدها البشر من قبل، طلة انشرح لها صدر الجميع، وجهها المضيء كالقمر والقوام الرشيق رغم سنوات عمرها الأربعين جعلا البنسيون دافئًا، مليئًا ببهجة لم تحدث منذ ليلة زواج مدام فادية، التي قامت من مكانها واقتربت من آن قائلة بلهجة تشي بالانبهار والمداعبة معًا: جمالك يجعل كل ما حولك هشًّا، وكأنّ ربي صنعك مِن طِينٍ مختلف عن بقية الناس.

ابتسمت آن لكن ابتسامتها لم تنمّ عن بهجة وإنما أخفت بها اهتمامًا جديًا تجلّى في نظرة عينيها وقالت: أريدك في أمر شخصي مع هادي.

- لكِ ما تطلبينه أيًا كان.. دقائق ويصبح العشاء جاهزًا.

ارتدى هادي أفضل ما عنده على عجل، ثم جلسوا جميعًا حول سفرة الطعام يتناولون عشاءً خاصًا أعدته المدام مع شراب البرتقال، ويستمعون إلى أغاني «الست» في الراديو، لم تفهم آن كلمة من الأغاني لكنها كانت سعيدة.

«غريب أمرك سيدة آن، خرجتِ من البنسيون حاملة الهمّ والآن تدندنين مع أم كلثوم!»، قالها هادي في مرح فقالت آن: لقد اتخذتُ قرارًا غريبًا لكني أرتاح إليه، أعلم أني أرهقتك كثيرًا لكنني لا أعرف غيرك أنت ومدام فادية هنا.

سمعتها مدام فادية فهتفت في استنكار: ما هذا الذي تقولينه سيدة آن؟! أنتِ هنا في بلدك الثاني مصر، والدكتور هادي يرغب حقًا في مساعدتك بأي صورة. مع الأسف الحظ لم يقف بجوارنا في المرة الأولى، لكننا لن نتوقف عن مساعدتك حتى عودتك إلى إيران بالسلامة.

أطرق هادي برأسه لأسفل ثم سألها عن طلبها وهو يرفع كأس العصير.. قالت في حزم: أريد استئصال الرحم.

سقطَتْ بعض القطرات على قميصه عند سماعه مطلبها الغريب وقال في انزعاج: هل تعانين من مشكلات صحية، أورام مثلًا -لا قدر الله-؟

- لا، أبدًا.

- إذًا لماذا؟

- أشعر أنني سأكون بأفضل حال بعدها.

- لكن يا آن أنتِ لا...

- أعرف ما ترغب في قوله جيدًا، لكنني مصممة وهذا قرار نهائيّ.

ساد الصمت المكان، هذه السيدة تطلب أمورًا تلقي به في دوامة كل مرة. بعد دقائق عادت مدام فادية لتلطيف الأجواء قائلة: الطعام سيبرد، أم أنكما تتحججان بالنقاش لسوء طعمه؟

أمسكت آن الملعقة لكنها وضعتها جانبًا مرة أخرى ثم قالت في توسل: سيد هادي، أرجوك، هناك أمور عديدة لا أستطيع أن أحكيها، أنا لست حاملًا الآن وسأكتب لك إقرارًا بأنني أوافق على إجراء العملية، لا يوجد أي مسؤولية جنائية عليك.

- سيدة آن، الموضوع يتعلق بالإنسانية، لا يوجد أي سبب غير المرض لحرمان سيدة من الأمومة.

قالت في هدوء كمن يعرف دفاع الآخر مسبقًا: أولًا الأمومة لا تنقصني، وأنا أمٌ بالفعل، ثانيًا الإنسانية الحقيقية هي التي لا تظلم الغير، وأنا لا أريد أن أظلم أحدًا بعد راغب.

- تستطيعين اشتراط ذلك على زوجك القادم، وإن رفض فأعتقد أن موانع الحمل ليست ممنوعة في إيران.

- سيد هادي أنا...

- ما الأمر يا آن؟ تكلمي.

قالتها مدام فادية هذه المرة في توتر ملحوظ. قالت آن وقد غطت وجهها بكفيها: لقد تعرضتُ للاغتصاب

في صغري من عمّي وأنجبتْ منه ابنتي يلدا، لا أريد تكرار هذه التجربة مرة أخرى.

كانت مفاجأة قاسية جدًا، لم تتخيل مدام فادية أنّ هناك بشرًا بهذه الحقارة، فظهر الاشمئزاز على وجهها، أما آن فازداد وجهها جمالًا مع الدموع ونزول الماكياج، وقالت بالفرنسية دون داعٍ: لو سمحت يا دكتور، سأسافر إلى إيران بعد يومين لا أكثر.

قال هادي وقد أزعجه قِصَر المدة: يومين؟! هذه المدة لا تسمح لك بالتعافي أبدًا من عملية كبيرة مثل هذه.

- قلت إنني أتحمّل كل العواقب.

- أوكي، العقبة الأخيرة أمامنا الآن أنني تخصّص جراحة وليس نساء وتوليد.

قفزت صورة كرم المحمدي ومستشفى المنيرة في عقله، أيّ طبيب آخر كان سيملؤه الشك، كان من المستحيل طبعًا إجراء هذه العملية بأحد المستشفيات الاستثمارية، وكرم لم يفتح عيادة خاصّة بعد، الحل الأنسب كان مستشفى «المنيرة» بالطبع، المستشفى الذي شهد بداية حياته العملية ونهاية حكايته القصيرة مع إيفون، وها هو يستعدّ لفصل من حكاية فارسية عجيبة.

اختار كرم نوبتجية الليل، سارت خطته كالتالي: أحضرَ بعض الأشعة لمريضة تعاني من ورم بالرحم كي يسلّمها هادي إلى آن، ثم عاد هادي للعمل بالمستشفى في الصباح بشكل صوريّ، بعدها وصلت آن بعد الفجر وبدأت في الصراخ أمام الاستقبال، فطلب كرم من طبيب التخدير الدخول معه وتخديرها لفترة زمنية بسيطة كي تغادر المستشفى قبل نوبتجية الصباح.. كانت تصرخ بشكل كوميدي في أثناء تقديمها الأشعة، مما زاد من توتر كرم، لكنه طلب تجهيز غرفة العمليات بسرعة، وأخذ يتكلم بعد التعقيم أمام التمريض عن ضرورة إزالة الرحم بسبب سوء الحالة و.. بدأت العملية.

***

«زَبّ صاحب يتنعّم مع صديقه في السرّاء والضرّاء يضحي له عدوًا».

(سفر يشوع بن سيراخ 4:37)

***

في صباح اليوم التالي، صعدتُ إلى غرفة آن، طرقتُ الباب في رفق حتى سمعتها تأذن لي بالدخول، كانت مستيقظة للتوّ وجميلة كالعادة، سيستمر إعجاب الناس بجمال هذه السيدة حتى وفاتها غالبًا.. أخرجتُ شاشًا وقطنًا فأشاحت بوجهها بعيدًا في خوف حتى انتهيت من التغيير على مكان الجرح بسرعة، شكرتني ثم قامت من فراشها لتعانقني عناق الوداع، فوضعتُ يدي إلى جواري خجلًا.

قالت بالفارسية: مصاحبت ياران صادق ودوستان موافق، نعمتي استت كه قدر آن ندانند.

نظرتُ إليها في عدم فهم فقالت ضاحكة: هذه حكمة فارسية تعني أن مصاحبة الصادقين والأصدقاء الطيبين نعمة لا تقدّر.

اكتفيت بالابتسام دون تعليق، كنت على وشك إخبارها بوفاة زوجها بسبب إهمالي لكنها لم تعطِني الفرصة، رفعتْ إبهامها وضمّت باقي أصابع يدها دلالة على الرضا وقالت: أخبر صديقك الطبيب أن يديه ساحرتان، أنا في أفضل حالة نفسيًا وعضويًا، كأنني غدت من نزهة وليس من غرفة عمليات.

تمتمت في شرود: الحمد لله.

ثم ختمت اللقاء وقلت في حماس: يجب أن أذهب إلى السفارة، سأسافر إلى كندا خلال أسبوعين على الأكثر، قد نلتقي يومًا ما، وحتى نلتقي يجب أن تعرفي أنك خففت عني الكثير الفترة الماضية. أختي في بلدتنا ملوي لن يكون تأثيرها أفضل مما فعلتِ، سأشتاق إليكِ كثيرًا يا آن.

قلتها وخرجت مسرعًا، كنت أعرف نفسي جيدًا، لن أحتمل وداعين ومن بعدهما الثالث عما قريب في المنيا.

حملتُ أوراق سفري داخل ملف ضخم كمن يحمل طفله الأول، وخرجت في العاشرة صباحًا في اتجاه السفارة. المسافة لم تكن بعيدة لكنني فضّلت استقلال سيارة أجرة خوفًا على الأوراق من الضياع، عملًا بمبدأ «الاحتياط واجب».

إحساسان متناقضان شعرت بهما في فترة قصيرة، حماس مبالغ فيه وقت تجهيز أوارق السفر، وضيق مبالغ فيه كلما اقترب الموعد، في النهاية حسمت الأمر، كانت تفصلني خطوة واحدة فقط عن حلم شباب التسعينيات بالكامل، الأسبوعان القادمان سأقضيهما بملوي مع الأهل، اشتياق غريب لكل الناس هناك، وذلك بسبب...

كراااااش!!!

سقطت الأوراق عند قدمي بعد أن ضغط السائق المكابح بشكل مفاجئ، لقد اصطدمت السيارة بشخص ما، نظرتُ من النافذة بجواري فوجدت مرآة السيارة اليمنى محطمة على الأرض، لملمت أوراقي بسرعة وبقيت مكاني.. خرج السائق والشرّ يتطاير من عينيه، فقلت لنفسي: لا داعي للتوتر، سوف يتراشق السائق مع المتسبب في كسر المرآة بالألفاظ وينتهي الأمر بتدخّل أهل الخير.. هنا لمحتُ الطرف الثاني في الشجار، كان هو، «بوسطة»، الشحاذ الذي أجريت له عملية الزائدة منذ فترة. تذكرت ليلة إيفون والسينما، فخرجت من السيارة على الفور ورميت بنفسي بينه وبين السائق، زادت ثورة «بوسطة» عندما سبّه السائق بوالدته، فبصق في وجه الأخير الذي جُنّ جنونه وصاح غاضبًا: المصائب تجيء من العقل الزنخ.

حاولتُ تهدئة الطرفين وتذكير «بوسطة» بنفسي دون فائدة، لم يكفّ السائق عن السخرية من هيئته وعقله، والتحما في هجمات متتابعة حتى تمكّن السائق من إصابة «بوسطة» في أذنه فهوى الأخير على رأسه بغلّب المناديل، لم يجد «بوسطة» بعد ذلك ما يمسكه ليضرب به السائق فجذب دوسيه الأوراق من يدي في عنف وهو يحترق غضبًا وقلبي يكاد يقف من الهلع.. هوى على رأس السائق بالدوسيه ثم نطحه برأسه في أنفه لينفجر الدم ويُغرق ملابسي والأوراق، هُنا لم أعُد أشعر بكل ما يدور حولي بعدما رأيت خلمي الأهمّ مذبوحًا أمامي، دارت الدنيا بي ثم فعلت الشيء الوحيد الذي سيخرجني مما أنا فيه.. فقدت الوعي بالطبع.

بعد أن أفقتُ لم أجد طرفَي الحادث، وجدتُ مجموعة من الأشخاص ملتفين حولي والأوراق أمامي غارقة في الدم.. كنت يائسًا لكنني صمّمت على التوجه إلى السفارة أملًا في فرصة جديدة، لكن... أنت تعرف ما حدث بعد ذلك يا سامح.

***

- سيد هادي، لقد سمعت قصتك كلها، وأريد معرفة ما حدث بينك وبين آن بعد ذلك، هل اكتشفتْ سبب وفاة زوجها؟ هل عرفتْ بموته من الأساس؟

طرح سامح غبريال كل الأسئلة التي دارت في خلده مرة واحدة، لكنه لاحظ دموع هادي..

- الغفران لا توجد معايير تحدّده، الأبرار يعيشون في سلام، هذا متفق عليه، لكنّ المذنبين كيف يعرفون أنهم مذنبون؟ ومتى يحق لهم التوبة؟ ولمَ يشعر بعضهم بتأنيب الضمير بعد ذنب أو خطيئة أو حتى إهمال غير متعمّد، وآخرون لا يشعرون وتجد حججهم جاهزة في أي وقت؟ أريد أن أفهم.. هناك من يقتل كل يوم ولا تتحرك شعرة واحدة من رأسه، وهناك من يشعر بمدى بشاعة خطيئته وتصطك أسنانه من الندم والخزي واحتقار الذات، لربما كانت دموع هادي هنا على الأرض خيرًا له من أن يقاسي بكاءه هناك في الأبدية دون رجاء.

هكذا خاطب سامح نفسه.

ربت على كتف هادي الذي كان يتمتم بكلمات غير مفهومة وقال بصوت متهدج: دكتور هادي، يجب أن أذهب الآن، غالبًا لن أراك مرة ثانية، لكنني استفدتُ منك أكثر من كل المرضى الذين عالجتَهم، لقد منحتَني فرصة لحياة جديدة وخوفًا محمودًا من الإهمال، أشكرك جدًا، الرب يحافظ عليك.

وتحرّك مبتعدًا عن هادي، وسمع صوت الأخير يعلو تدريجيًا وهو يردد: اشهد يا سامح أنني بريء من دم هذا الرجل وإن لم يكن بارًا.

ظلّ هادي يفكّر في كل ما حدث له خلال العام السابق، حاول معرفة سبب غلق جميع الأبواب في وجهه، خسارة الحبيب، خسارة العمل، خسارة الأمل في الغد، وجد نفسه يبكي وأنفاسه متقطعة.. وجه واحد فقط كان يبعث بداخله الأمل وسط كل هذه الشجون، تذكّر وجهها وآخر صورة لها وهي تشير له بقبضة يدها لتخلق أملًا كان قد مات بداخله، تمنّى أن يكون ناجحًا من أجل إيفون، تمنى أن يكون ناجحًا حتى بعد فراقها، ليس عن انتقام أو شماتة إنما لتظل دائمًا فخورة بمعرفته.

بعد دقائق قام من مكانه وبدأ السير دون تحديد هدف، حتى وجد نفسه تائهًا في شوارع وسط البلد.

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا
@RIWAYAT2025
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

عادل داوود الجندي

(شهادة معاملة أطفال)

القاهرة، وسط البلد

31 ديسمبر 1999

وصل إلى منطقة وسط البلد وعقله مكدس بالاحتمالات، حاول تمييز الشارع المنشود من بين العديد منها، عصر ذاكرته إلى أقصى درجة لكنه لم يصل إلى شيء، لم يكن هناك مجال للدخول بسيارته إلى تلك الشوارع بالطبع، لا يوجد مكان للانتظار ولو لحظة واحدة، ثم إنّ حركة السيارة لم تكن لتمنحه التدقيق الذي يريده، تلفّت يمينًا ويسارًا في هذا الزحام والضجيج، باحثًا عن أي علامة لذكرى بعينها، ساعة واحدة فقط قضاها في تلك المنطقة منذ سنوات لكن تحديد الشارع كان معقدًا فعلًا بالنسبة إليه.. تخطيط المدن الجديدة يجعل الشوارع والبيوت متطابقة تمامًا مع قبحها، شوارع وسط البلد لا تختلف كثيرًا بالنسبة إلى الغريب سوى بجمالها وعراقتها.

من ميدان التحرير، نقطة البداية كانت شارع الشيخ ريحان، مرّ بدار القضاء العالي، رفع رأسه لأعلى فشعر أن هناك من يراقبه، ازدادت خطواته سرعة حتى تجاوز المبنى وعاد إلى نقطة الصفر من جديد، رحلة أخرى قصيرة بدأها من شارع محمد محمود (لم يكن اكتسب تلك الشهرة بعد) ثم الجامعة الأمريكية، مدرسة الليسيه، شارع قصر العيني، ميدان طلعت حرب، مقهى «ريش» الشهير. عصرَ ذهنه أكثر، فتذكّر جلسته هناك بالمقهى.. رفع كفّه نحو السماء فوجد شمس الشتاء الحنون، ثم تمتم: «يا رب».. بعد دقائق تحسس بعض الأوراق بجيب بنطاله الخلفي ثم أكمل الطريق.

وصل إلى ميدان مصطفى كامل ثم مشى في شارع طويل يحمل اسم صديقه في الكفاح محمد فريد، الشارع الذي يعاني من فرط الاختلاف بين هنا وهناك، المباني الضخمة والمحلات التي ما زالت تبيع التحف والأنتيكات وعبق الماضي من ناحية، والمقاهي الرخيصة وباعة الخبز البلدي وماسحي الأحذية من ناحية أخرى.

لمح جامعًا في نهاية الشارع فشعر بالألفة، اقترب أكثر حتى وقف أمام العمارة القديمة الصفراء ذات الطوابق الثلاثة، وبعد ساعات من البحث وجد مراده أخيرًا.

كان يتصبب عرقًا وقدماه متورّمتان وعيناه لا يقوى على فتحهما من الإرهاق، إلا أنه كان راضيًا، ربما لم يكن راضيًا هكذا منذ سنوات طويلة. بمجرد وصوله إلى مدخل العمارة تذكّر الجريمة التي وقعت في طابقها الثالث وهزت المنطقة بأكملها، المدخل تحفة معمارية بالطبع كعادة عمارات وسط البلد. صعد بأنفاس متلاحقة إلى الشقة المنشودة، ضغط جرس الباب دون تردد، بعد دقيقة فتحت له سيدة في منتصف الأربعينيات تحمل سكّين المطبخ. قال لنفسه: لا بدّ أن حمل السكين هو شرط السكن هنا.

ابتسم للخاطرة فبادلته السيدة الابتسام في ارتياب.

- هل الأستاذ عادل داوود موجود؟

أشارت بإصبع السبابة إلى أعلى قائلة: هناك، على السطح.

- أليست هذه شقة والده، رحمه الله؟

قالت بسرعة منهية الحوار: كانت، كانت شقته. هو الآن يعيش على السطح.

أغلقت الباب في وجهه بعد استئذانها إذنًا صوريًا فكرر كلمتها في دهشة: السطح!

ما زالت هناك فرصة أخرى على أي حال. ارتاح قليلًا لتأجيل مقابلته وجلس على إحدى درجات السلّم بين الطابق الثالث والرابع، حمد الله أنّ عادل ما زال موجودًا على الأقل في نفس العمارة.

عادت الذكريات تتداعى داخل عقله، لا يعرف كيف يتغلب عليها ويهزمها، أشد أنواع الذكريات قسوة هي التي تخلو من المواجهة.. مواجهة الطرف الآخر تخفف عنك الكثير، سيكون هناك الكثير من الشد والجذب والصراخ وحتى تبادل السباب لكنها أرحم كثيرًا من الذكريات الصامتة، الانسحاب المفاجئ دون عتاب، الخيانة دون حق التبرير، جبال من الشك دون صدى صوت، لعنة الذكريات الهادئة التي تقتلك في صمت دون ضجيج، لا توجد صور للنهاية تتقافز أمام عينك، لا يوجد شريط سينمائي تستطيع طرده من رأسك بعد هزّه، لا توجد نهاية كارثية تمنحك فرصة للتغيير، الأمر يشبه السرطان، أعراض عادية من فتور وتعب لكنّ صاحبها لا يعلم جيدًا أن قطع أصابعه دون مخدر لهو أهون كثيرًا مما يتكاثر بداخله.

قام ببطء متأوهًا من وجع قدميه وبدأ في صعود الدرج، وجد بابًا خشبيًا غير موصد، فتحه فأصدر أزيزًا مرعبًا، السطح مساحته معقولة، وجد منشرًا للملابس وبعض أكوام من الفحم المحروق داخل قصعة رمادية كبيرة، وإطارات قديمة من الكاوتشوك بدلًا من المقاعد غالبًا. كانت هناك غرفة مبنية من الطوب الأحمر وسقفها مِن الصاج بعرض 5 أمتار تقريبًا، الباب الخشبي للغرفة غير كامل لكنه حجب رؤية ما بداخلها.. لم يجد أطفالًا تلعب، سيدة تغسل، زوجين يراقبان المارّة من أعلى ويتندّران عليهم، لم يجد أي شيء مما تراه على أسطح العمارات في الأفلام، هذا سطح جاف -إن صح التعبير- وقف في المنتصف ينظر ناحية الحجرة في الزاوية، قال لنفسه: عادل يسكن بهذه الحجرة غالبًا.

ازدادت ضربات قلبه وهو يتخيل عادل خارجًا منها هذه المرة، مسح عرقه في كمّ القميص الظاهر من أسفل الـ«بول أوفر» الصوف، ثم مسح مقدمة رأسه الصلعاء... هنا انفتح الباب الخشبي بشكل مفاجئ وخرجت من الحجرة سيدة في الثلاثينيات من عمرها، يغطي جسدها جلباب منزليّ طويل ولا ترتدي أي غطاء للرأس، وجهها به مسحة من جمال أخّاذ لكن بصرك سيتركه ويتجه سريعًا نحو رقبتها المكشوفة، تشوّه كامل في جلد الرقبة يصل إلى الذقن، ناتج عن حرق من الدرجة الثالثة، أحدث تغييرات في لونه ونعومته تشبه الانكماشات، ظهر عمق الإصابة مع حركة فمها وهي تقول: بسم الله الرحمن الرحيم! من أنت يا أفندي؟!

تنحنح الرجل قليلًا في ارتباك ثم أشاح بوجهه الناحية الأخرى رافعًا يده لتقترب من رأسه.. فهمَتْ مقصده فقالت ساخرة: تكلّم يا سيد، لا يوجد لدي طرحة هنا.

- أين عادل يا ست؟ هل أنتِ زوجته؟

- نعم أنا زوجته. عادل لا يعود إلا ليلًا. لِمَ تريده؟ هل أنت أحد إخوته أم من أقاربه في البلد؟

قال في هدوء: حكاية قديمة يا ست، أحمل له هدية.

سمعَتْ ردّه فانقلب حالها فجأة، زغردت في فرحة ثم هتفت في سعادة حقيقية: ألف بركة يا رب.

بدأت -دون مقدمات- الشكوى للرجل من حياتها المزرية وضيق الحال مُرّ الشكوى، حكت عن زوجها الذي وجد في النرجيلة غايته، وكيف أنها لم تأكل اللحم منذ فترة طويلة، وخوفها من الموت دون أن تذق السعادة هذا الباب الخشبي الذي تملؤه الشقوق... إلخ، وأنهت شكواها بحركة سريعة جعلتها داخل الغرفة، بعد ثوان خرجت منها ممسكة كرسيًا خشبيًا بإحدى يديها وموقد كيروسين صغيرًا باليد الأخرى.

- تفضل بالجلوس، ألف نهار أبيض.

جلس الرجل على استحياء وبدأت هي في تجهيز كوب من الشاي لضيافة متواضعة.

-من أنت؟ عذرًا لهذا السؤال المتكرر لكنني لم أرَك من قبل، لم أرَ قريبًا من قبلُ لعادل صراحة.

قالتها في بساطه كأنها تتكلّم عن رجل غريب وليس زوجها. ردّ سؤالها بسؤال هذه المرة قائلًا: منذ متى

وأنتِ متزوجة بعادل؟ يبدو أنك لا تعرفين عنه الكثير.

أجابت وهي تضع الشاي في الكوب: لا أذكر لكنها ليست بالفترة الطويلة.. تفضّل.

ناولته المشروب الساخن فارتشف منه في بطء، كان حلو المذاق، خصوصًا بعد رحلته الطويلة. قال: سأجلس هنا في انتظار عادل، ولحين عودته سأحكي لكِ عما أعرفه، وهو ليس بالقليل، أما أنتِ فاحكي لي ما تعرفينه منذ آخر مرة رأيته أنا فيها حتى الآن.

- اتفقنا.

رشف رشفة أخرى ثم فتح بصرير واضح علبة سجائره اللف وبدأ في تجهيز واحدة، مرر حافة البفرة على طرف لسانه محكمًا لفّ السيجارة وأشعل طرفها من الموقد.. أخذ نفسًا عميقًا منها واحتبسه في رئتيه قليلًا ثم حرره وهو يقول: تعلمت شرب سجائر اللف من زوجك في أثناء إقامتنا القصيرة في الإسكندرية.. لا يهم الآن.. كانت أيامًا مليئة بالبهجة. عادل من مواليد 1957، كان طفلًا مليح الوجه، لم أرَه منذ فترة طويلة يا ست... ما اسمك؟

- مرزوقة، أو قل لي يا رزقة؛ أسهل في النطق.

سحب نفسًا طويلًا من السيجارة التي أوشكت على الاحتضار ونظر إلى دخانها سابحًا في الجوّ كأنه يشاهد فيلمًا بداخله، وبدأ في الحكي.

***

طفولة عادل داوود الجندي لم تكن كأيّ شخص، طفولة هي خليط عجيب من الرفاهية والعنف، الترحال والغموض، الإثارة والشرود، وُلد عادل في إحدى قرى محافظة الدقهلية، تحديدًا قرية كوم النور التابعة لمركز ميت غمر، قرية عادية لا تتميز بشيء ذي طابع خاص سوى أرضها المزروعة بأعداد مهولة من النخل، قصر ضخم لأحد الضباط الأحرار، وأخيرًا نقطة الشرطة.. فيلا آل الجندي تقع في مواجهة نقطة شرطة البلدة، يبدو أن الجد اختار هذا المكان بعناية عملًا بمبدأ «من جاور السعيد يسعد»، وبالمثل «من جاور الحكومة يأمن».

الجد صاحب أراضٍ زراعية منتشرة في دائرة المركز كله، لكن أغلبها تحت عينيه في القرية. داوود هو الابن الوحيد له، عاش طفولة مدللة، إذ نشأ في بيت كبير ومنه لفيلا ضخمة، يمرح داخلها بحصانه العربي مالكًا للعالم من أقصاه إلى أقصاه.. أطلق أقرانه عليه لقب «دنجوان القرية»، لم يكن أحد ينافسه على اللقب في دائرة المركز كاملة. داوود كان يشبه الأوروبيين في الشكل، أما الطباع فهو يشبه الأوغاد إلى حد كبير، غالبًا الوجه الجميل يخفي وراءه طباع الأوغاد لكنّ داوود كان خير مثال لهؤلاء. الطابع الريفي الحامي لمراهقي الأربعينيات وشباب الخمسينيات يكاد يكون معدومًا داخله.. درس الزراعة بجامعة القاهرة، صمّم والده على ذلك للاعتناء بمملكته على أساس علمي، ثم تزوج -دون أدنى مجهود- بشابة جميلة بنت أصل تدعى إمباركة، أنجبت له أربعة أبناء وهم: مراد وحافظ وعادل وتحية.

بعد وفاة والده وجد نفسه في مفترق طرق الشباب عظيم الثروة، إما الحفاظ عليها بيد من نار وزيادة رقعتها، وإما الانهيار في الفخ الشهير (ما وصل إليك بسهولة سيذهب في سرعة البرق). سقط داوود في الفخ سريعًا، تارة بسبب نزواته المتكررة (قام بتعويض الكثير من الأسر خوفًا من فضح أفعاله الآثمة وقتها)، وتارة أخرى بسبب السفه في الشراء دون عائد من ذلك، إسطبل للخيول في أجا، تحف وأنتيكات لتزيين الفيلا، شقة في وسط البلد بالقاهرة، الشقة التي بالطابق الثالث يا رزقة كانت ملك الأستاذ داوود الجندي، والد عادل، هل كنتِ تعرفين ذلك؟

بعد الثورة والتأميم وانهيار أوضاع كثيرة على مدار سنوات طويلة، ورغبته في تأمين مستقبل أبنائه، وجد داوود نفسه في مفترق طرق ثانٍ، إما إيجاد سبيل لصحوة تعيد أمجاد الماضي، وإما تجهيز مدفن جديد في

مقابر العائلة بما تبقى لديه من المال. اختار داوود السفر، أسرع طريق للثراء على مرّ العصور، هناك غلاقة وثيقة بين السفر وتحقيق الأحلام غالبًا، يبدو أن عين الإنسان ترى الجديد والمغري في ما ألفه أبناء البلد، خصوصًا عندما يكون هذا البلد هو أرض الأحلام.. الولايات المتحدة الأمريكية.

غلاقة عادل بإخوته كانت متباينة بعض الشيء، كان يخاف من مراد نوعًا ما بسبب فارق السنّ الكبير، ويعطف على أخته الصغيرة تحية شاعرًا بالمسؤولية تجاهها طوال الوقت، أما حافظ الذي نبت شاربه على حوافّ فمه فكان قليل الحيلة مثله، أقصى دعم قدّمه لعادل كان مساعدته في استذكار دروسه.

في بداية التعليم الأساسي نشأت صداقة بين عادل وطاهر الباهي، ابن إمام الجامع الكبير في كوم النور.. ورغم أن صداقة الطفولة لا مكان فيها للمصالح الشخصية، فإنّ طاهر حاول توطيد غلاقته أكثر وأكثر مع عادل، كانت صداقتهما تمنح طاهر قوة لا بأس بها أمام الجميع، هناك لذة رهيبة في كونه صاحب كلمة على واحد من أبناء الذوات، ومتعة أكبر في انبهار صديقه به.

الباهي لم يكن ذلك الصديق الذي ينقذك من مهاجمة بطش الصبية الأكبر سنًا، أو إعلاء قيمتك أمام إخوتك مثلًا، كان طفلًا أنانيًا، من هؤلاء الذين يتبعون الموجة، يحاولون إرضاءك وأنت معهم، لكن بمجرد ظهور طرف ثالث ينقلبون ضدك دون سبب، وإن ساندك الطرف الثالث عادوا لإرضائك مرة أخرى.. مشاهد كثيرة جمعت بين عادل وطاهر كانت نذالة الأخير عنوانًا ثابتًا لها.. على سبيل المثال، عندما كانا يلعبان الكرة مع أقرانهما وتستقرّ الكرة أعلى نخلة، كان عادل يتبرع لصعود النخلة وإحضار الكرة، لكنه بمجرد أن يلقي بها كان طاهر يستأنف اللعب دون انتظاره.. كان يشي برفيقه عند انزعاج المصلّين بسبب عبثهما وقت خطبة الجمعة، حتى عند مطاردة الدبابير في الأراضي كان طاهر يمسك تلك الحشرة الضعيفة بقوة محاولًا حرقها بالكبريت قبل أن يجبره عادل على التخلي عنها. أمور بسيطة لم يجد لها عادل تفسيرًا وقتها.

أكثر مواقف طاهر نذالة حدث في الصف السادس الابتدائي.. وقتها شاهد عادل الفيلم الأشهر في تلك الفترة، «أبي فوق الشجرة»، في إحدى رحلات أسرته إلى القاهرة، وتأثر كثيرًا بعالم السينما، حكى عن الفيلم مرات ومرات لطاهر، فداعب رفيقه خياله الجنسي بالحديث عن رفيقات الدراسة اللاتي ظهرت عليهن علامات البلوغ الأولى.

كان يومها مدرس اللغة العربية يشرح من قلبه قواعد النحو والبلاغة، في أثناء ذلك كان عادل مشغولًا بكل ما يحمل صفة الأنثى مِن حوله، حالة من الهيام الطفولي تحمل بعض المشاعر غير البريئة أوجدها خياله الجامح، بعد جلوسه أمام التلفاز -صغير الحجم رديء الصورة- ومشاهدة مذيعات الستينيات (مثل سلوى حجازي وليلى رستم)، وتجربته الخارقة في القاهرة، طفحت الإثارة وأنتجت كلامًا مكتوبًا عن البنات جعله في حالة من الإثارة المشوبة بالقلق، اختلس نظرة إلى إحداهن، هنا قام طاهر بإشارة خفية للمدرس ناحية عادل جعلت الأخير يقوم بهجمة سريعة انتهت بوجود كراسة عادل بين يديه.

- ماذا تكتب أيها الأحمق؟

قال عادل في همس مرتعد: أكتب ما تقوله يا أستاذ.

فتح الكراسة وقرأ ما كتبه عادل، فاحمرّت أذناه ونفرت عروق رقبته وانتفخت أوداجه ثم غادر الفصل كالمجنون، بعد عشر دقائق من الهدوء التام دخلت الأستاذة رقية مدرسة العلوم وقالت في صوت جهوري: عاادل.

تحرّك الطفل في خجل فوجد المدرسين مرصوصين في الخارج وعيونهم ممتلئة بمشاعر تجمع بين الاحتقار والشفقة.. دخل مكتب المدير، ضُرب بشكل هيستيري، سِباب، هناك ندبة صغيرة بجوار عين عادل اليسرى ما زالت موجودة إلى الآن بسبب ذلك، هل لاحظتها من قبل يا رزقة؟ صدقيني، أنتِ لا تعرفين الكثير عن زوجك.

في ما بعد لم يتكلم عادل، كل ما كان يشغله في تلك الفترة هو كيف سيكمل بقية حياته بعد هذا الحدث. البنات كنّ في انهيار تام بعد تسريب الخبر من الأساتذة.

- عادل ولد سيئ، يكتب أشياء يندى لها الجبين عنكن.

حتى الأولاد اعتبروا أن عادل مختلف بعد أن كسر تابو يحاولون تحسسه دون اقتحام، الكارثة الحقيقية كانت في اليوم التالي عندما دخل عادل الطابور وبدأت الإذاعة المدرسية برنامجها اليومي بجملة بعد القرآن الكريم ثم أعقبتها جملة مخيفة: على الطلبة والطالبات عدم التحدث مع عادل داوود الجندي حتى نهاية العام الدراسي.

انتهت الحكاية...

ثلاثة أشهر من الأرق المستمر والإحساس بالغربة، انتهت بالسفر إلى أمريكا، لن أكرر الجملة الساذجة التي يقولها الكثير: «لقد تغيرت حياته بعد تلك الواقعة»، لكن هذا الحدث أبعد عادل كثيرًا عن الإنسانية التي كانت أهمّ ما يميزه، جعلته غليظ القلب لا يعي تصرفاته مع الآخرين، يميل دومًا إلى قانون أن كل شخص يستحقّ العقاب، حالة الحب المختلطة ببعض الرغبات الذكورية أوصلته إلى السير وحيدًا وقت الراحة بين الحصص يبحث عن صديق طفولته طاهر، فيبتعد عنه كالمجذوم. توترت العلاقة بينهما وأحس عادل في تلك الفترة أنه تائه، طفل بلا أم، بلا صديق.. صارت المدرسة كابوسًا بالنسبة إليه، يحاول الهروب منها بشكل مستمر، أما خارجها فتحوّل سلوكه إلى العصبية المفرطة والشجار بالأيدي أو الجلوس شاردًا بالساعات عند كرمة العنب.. لم يلتفت داوود إلى حالة ولده المتدهورة، بالإضافة إلى مشاعر الغلّ التي تراكمت داخله بعد تأكده من كشف ابنه للسرّ. ألمح في عينيكِ يا رزقة تساؤلًا: أي سرّ؟ وفاة إمباركة بالطبع.

وفاة إمباركة كان الحدث الأهمّ قبل سفر داوود، قد يكون هو الدافع الأساسي وراء تنفيذ الفكرة بسرعة، قالوا إن الوفاة بسبب مرض القلب، قالوا إن الوفاة بسبب كثرة خيانات الزوج مما جعلها تنام غاضبة كل ليلة، قالوا أيضًا إن كسر عنقها كان بسبب السقوط على منضدة الطعام الأرضية (الطبلية)، قالوا أمورًا كثيرة لكن لم يجرؤ أحد على الجهر بالحقيقة، حكاها فقط أصغر أبنائه الذكور، عادل، الطفل ذو السنوات التسع رأى كل شيء وحكى ما رآه بالتفصيل، لم يحكِ لضابط النقطة ولا لطبيب الوحدة الصحية ولا حتى لأخواله وجدّته لأمّه، حكى عادل لصديق طفولته وصباه وشبابه، طاهر الباهي، صديق الدراسة ورفيق الهروب من مدرسة كوم النور الابتدائية، كشف لصديقه ما حدث قائلًا في شرود لازمَهُ بعد الحادثة:

- أمي ماتت يا طاهر، قتلها أبي، هل تتخيل أنها كانت ساجدة في صلاة العشاء ثم استغلّ أبي ذلك؟! ظل ضاغطًا على عنقها بقوة، ربما ربع ساعة كاملة، إخوتي كانوا نائمين، أما والدي فكان في شجار طويل معها منذ العصر، هذه المرة كانت بسبب امرأة يريد أبي الزواج بها، في كل مرة كان الأمر يقتصر على الخيانة، هذه المرة خيانة مباشرة وصريحة، لم يزني أبي يا طاهر، وأتمنى أن يبقى الأمر سرًا بيننا. عِدني يا صديقي أن يبقى الأمر سرًا.

وعده طاهر الباهي بالفعل، لكن السرّ صار حديثًا هامسًا لأهل القرية ليلًا، الصغار لا يحفظون السرّ ويا للأسف يجعلونه غير قابل للشك، هكذا دُفنت إمباركة وبقي سِرّها لُغزًا لأعوام طويلة، الشابة ذات الوجه الممتلئ والوجنتين الحمراوين والجسم المترهل قليلًا الذي جعلها أُمًا منذ وَلَدَتْ، قُتلت على يد زوجها.. كانت إمباركة تخاف الله وتكره هدم حياتها الزوجية، لكن داوود كان جائعًا للفجور، عطشًا لإهدار كرامة الآخرين، خصوصًا أقربهم إليه، ماتت شابة في الثلاثينيات من عمرها بعد أن ملأت الدنيا حنانًا وصبرًا وصلاة.. وبركة.

طبيب الوحدة الصحية صغير السنّ قليل الخبرة، لم يكن مرتاحًا لشكل الجثة لكن سطوة داوود وفخامة مجلسه زرعتا بداخله الخوف من الاعتراض، فخرج سؤاله مهزوزًا وهو يقول: كيف ماتت السيدة إمباركة يا داوود بك؟

- ماتت كما تمنّت دائمًا أيها الحكيم، ساجدة.

قالها داوود مثبتًا عينيه على الطبيب ثم أكمل في صوت رخيم كأنه قادم من مركز الكرة الأرضية: إكرام الميت دفنه، أليس كذلك؟

- بلى، بالطبع.

بعد الدفن بكى الأخ الأكبر -مراد- في حرقة، كان أكثر إخوته معايشة لأمه، أمّا حافظ وتحية فكانا غير مصدّقين ما حدث.. عادل بقي صامتًا في غرفته، لم يبكِ، لم يصرخ، كان شاخصًا ببصره نحو صورة عملاقة لوالده معلقة على الحائط، الصورة العملاقة بلونيها الأبيض والأسود ظهر لها لون ثالث على أرض الواقع، لون رمادي يمتص كل الألوان بداخله ويحوّلها إلى أكاذيب ملونة. حاول إعادة صورة والده الأولى في خياله لكن هيهات، لقد فسدَتْ كليًا.. في النهاية أغمض عينيه ثم نام.

مرّت الأيام ثقيلة عليه وشوقه لأمه يزداد يومًا بعد يوم، تمنى عودتها إلى الحياة للبكاء داخل أحضانها والشكوى إليها من قاتلها، أحيانًا كان شبح والدته يظهر له مبتسمًا لمدة ثوانٍ، كان يفرح فرحًا شديدًا بتلك الثواني كما لو كانت حقيقية وليست مجرد خيالات.

ليلة السفر بحث أهل القرية عن عادل، بحثوا في المدرسة الابتدائية، المسجد، الوحدة الصحية، الأراضي الزراعية، بيوت الأخوال والأقارب التي مُنع عادل من الذهاب إليها بعد وفاة الأم.. لا فائدة، لم يجدوا له أثرًا، في النهاية حرر والده محضرًا في نقطة الشرطة، هنا ظهر البطل طاهر الباهي وبدأ البحث بطريقته الخاصة عن صديقه حتى وجده.

أنتِ تعرفين بالطبع أين وجده يا رزقة، لا تعرفين؟ يبدو أنك لا تعلمين الكثير عن زوجك بالفعل.. وجده في كرمة العنب القريبة من المقابر في آخر القرية، المكان المفضل عند عادل للبكاء ومغامرات قطف عناقيد العنب وسماع الحكايات المرعبة عن المقابر.

دخل طاهر الكرمة في شجاعة استثنائية بسبب الوقت المتأخر من الليل، كان بداخله يقين أنه سيجد عادل هناك، نداء خفيّ تردد داخل جنبات عقله لم يعرف مصدره، الرؤية تكاد تكون منعدمة إلا من «لمبة جاز سهاري» معلقة في مكانها الأبدي على أحد فروع شجرة كروم، قامتها القصيرة المعدنية والشعلة الحمراء الصغيرة كالحية في جوفها الزجاجي الملموم زادت من مخاوفه، لعبة الظلال الشهيرة التي جعلت من كل حبة عنب رأسًا ضخمًا تشهد الموقف. اقترب منها، هنا لمح شخصين من بعيد، رَجُلَين.. لا، بل رَجُل وطفل.. اقترب أكثر، الطفل كان عادل بالطبع، أما الرجل فكان عمّ ملاك حارس المكان، وهو رجل سكّير ابتُلي بشرب الخمر بعد وفاة ولده، وطالما عطف على أطفال القرية بعناقيد العنب بعد لعب الكرة بالجوار.

وجدهما مستغرقين في النوم، عمّ ملاك مسند رأسه على الجدار فارذًا قدميه أمامه على الأرض الترابية، أما عادل فكان نائمًا بالعرض ورأسه على فخذ الرجل. اقترب طاهر أكثر حتى صار أمامهما مباشرة وبدأ في إيقاظ صديقه أولًا بلهفة شديدة، أخيرًا صدق حدسه وستظهر بطولته للجميع بعد أن يعود بالغائب.. هكذا خاطب نفسه.

- عادل، عاااادل.. عاااااادل.

فتح عينيه ببطء فبوغت برؤية صديقه وكشفه لمخبئه، حركة الطفل أيقظت عمّ ملاك هو الآخر لكنه ظلّ غير واعٍ لما يدور حوله بسبب الخمر، يبدو أنهما كانا نائمين منذ فترة.

- والدك والبلدة كلها تبحث عنك أيها الجبان، ألا تريد السفر إلى أمريكا؟ أنت مجنون، مجنون قطعًا.

قالها طاهر في دهشة مصطنعة لا تتناسب مع صغر سنه، وأمسك بذراع عادل جارًا إياه للخروج من المكان. العجيب أن عادل مشى خلفه كأنه منوّم مغناطيسيًا غير معترض، فتح زاوية قدميه لتصير خطواته مواكبة

لخطوات طاهر المسرعة، ونظر إلى أسفل متخيلًا حركة قدميه كأنهما عرائس ماريونيت يحركهما، ابتسم ثم قال بنبرات حالمة: اشتقت إليك يا صديقي، لطالما وددت لو نظرت إلي في المدرسة وقتما ابتعد عني الجميع.

لم يسمعه طاهر واستمر في التحرك مهرولًا، قبل خروجهما من الكرمة علا صوت عمّ ملاك الأجش -بسبب إدمانه المعسل والكحول- قادمًا من بعيد: إياك أن تنسى يا بن داوود ما قلته لك.

لم يلتفت إليه الطفل ذو الندبة بجوار عينه اليسرى، وظل يتمتم بآية من الإنجيل أوصاه بها الرجل الثاكل منذ ساعات قليلة: «من أضاع حياته من أجلي يجدها».

***

إذَا مِتُّ فادفِنِّي إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ

تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا

وَلَا تَدْفِنَنِّي فِي الفَلَاةِ فَإِنَّنِي

أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقَهَا

(أبو محجن الثقفي عن الخمر)

***

لا أحد يعلم الكثير عن حياة أسرة داوود الجندي في بلاد العمّ سام، فجأة انقطعت أخبارهم، سافروا في الليل ثم لا شيء بعد ذلك، بعدما باع داوود كل ما تبقى من ثروة والده -حتى الفيلا- واكتفى بشقة صغيرة في ميت غمر وشقة في وسط البلد فقط، تركهما تحسبًا لأي إجازة يقضيها بمصر ولو على فترات بعيدة.

لكن لماذا أمريكا تحديدًا؟ لأنها أمريكا، لو كان سافر إلى إيطاليا أو الهند لسألنا نفس السؤال، لم يكُن له أقاربٌ أو معارف يعتمد عليهم في بداية مشواره بأي دولة أجنبية. أعتقد أن مراد كان له دور حتى ولو بسيط في اختيار أمريكا، كان طموحًا بشكل رهيب ويريد استكمال دراسته في الفيزياء هناك، فرشحها لوالده، أما داوود نفسه فكان آملًا في حياة جديدة بعيدًا عن الفلاحين والنكسة ومخالب الفقر التي بدأت تنمو بشكل صريح في العام التالي للنكسة و.. شبح زوجته إمباركة.. شبح إمباركة لم يرغب يومًا في الانتقام لكنه ظل في المنزل يبتسم لداوود في رضا، وهذا لعمري أشد رعبًا من شبح السيدة ذات الرداء الأبيض (فيلم رعب شهير في الثمانينيات). داوود وغد كبير لكنه ليس قاتلًا متسلسلًا يهوى الدم، في النهاية لم يكن سوى رجل يرغب في الهروب من المكان الذي نفّذ فيه جريمته وتحاصره فيه العيون بالاتهامات.

- كيف ستبدأ وقد جاوزت الأربعين عامًا بسنوات؟

- لن أبدًا من الصفر، لديّ مال يكفي كبداية معقولة.

- أين ستقيم في الولايات؟

- أرض الله واسعة.

- هل ستعود إلى كوم النور مرة أخرى؟

- لا أعلم.. ربما، بعد خمس سنوات، بعد عشر سنوات، لا أعلم، ربما لا أعود أبدًا.

حوّل أمواله إلى أوراق خضراء ثم سافر مع أبنائه الأربعة.

***

على ما أذكر رجع حافظ وعادل فقط بعد خمس سنوات في زيارة سريعة لكوم النور. صار عادل مراهقًا،

https://t.me/riwayat2025 روايات عربية وعالمية وكتب

أما حافظ فأصبح في طور الشباب. حكى عادل وقتها عن إقامته في أمريكا قائلًا: الفرق بين بلادنا وبلاد العمّ سام هو سحر العيون، بلادنا بها سحر للقلوب، أما هناك فالعين ترى الجديد كل دقيقة حتى في أصناف البشر، أجناس بيضاء وسمراء وحمراء وقوقازية تعيش في مجلة ملونة، عشنا في ولاية شيكاغو بناءً على رغبة أخي الأكبر.. سكنّا في البداية في شقة من غرفتين وصالة، الوضع هناك لم يكن مريحًا بسبب وجودها بأطراف المدينة، انتقلنا بعدها إلى مجمّع سكنيّ جميل غرب الولاية، بجوار جامعة إلينوي، أمام المبنى من الجهة الرئيسية كانت هناك ساحة خضراء كبيرة ومن الخلف كان هناك مسبح مخصص للسكان يعجّ بالمرتادين في أيام الصيف الحارّ، ما عدا الزنوج طبعًا؛ هناك كره غير مبرر للزنوج ويُعامَلون كالحيوانات بل أسوأ. نعيش هناك متمتعين بكامل الحقوق وبكل الاحترام من الأمريكان أنفسهم.

بمجرد وصولنا، وضع والدي ماله بأحد البنوك وبقي عاطلًا عن العمل لفترة استكشف بها طبيعة المدينة، ظلّ مبهورًا لفترة بخدمات شركة النقل عندما انتقلنا إلى المجمع السكني، فكرة المشروع بسيطة، إذ تقوم الشركة بتجهيز أثاث بيتك ونقله داخل صناديق ثم حمله في شاحنة ضخمة إلى حيث تريد. أحيانًا يقود العميل الشاحنة بنفسه وتنتظره الشركة في العنوان الجديد لتفرغ له الصناديق إنْ رغب، مسألة قيادة الشاحنة بنفسك كانت توفر قدرًا لا بأس به من المال.. قال أبي إنّ الأمر يحتاج إلى بعض المجهود في البداية، بعد فترة بدأ تنفيذ المشروع بالفعل.

تأقلم عادل سريعًا وبدأت تتشكل حياته بمعطيات المجتمع الجديد مثل حضور الحفلات الموسيقية الصاخبة، الأخوية، مطاعم الوجبات السريعة... إلخ. أكمل دراسته الثانوية بأحد المدارس هناك. في أمريكا اثنا عشر صفًا للتعليم، من الصف التاسع إلى الثاني عشر هي المرحلة الثانوية، في تلك الفترة نشأت علاقة عاطفية واهية بينه وبين أمريكية تدعى كاتي، انتهت سريعًا لأسباب غير مفهومة. كاتي فتاة يتيمة الأب كانت زميلة عادل في الصف العاشر، تبادلا النظرات، وبادرته هي بالحديث، ثم أعلن كل منهما إعجابه بالآخر، واسمًا تلك المشاعر حبًا كعادة المراهقين.. بدأت العلاقة بالفتور عندما وجد عادل أنه يكره ضعفه أمامها، وهي تكره تحفُّظه في العلاقة، ثم انتهى الأمر تمامًا عندما عاد إلى قريته الهادئة في إجازة آخر العام، واكتشف أن قلبه معلّق بوجوه المصريات المليحة لا غير. عاد مرة أخرى إلى كاتي فوجدها تبحث عن شاب تستمدّ منه القوة في الجامعة.. المراهقة في حد ذاتها هي قوة العواطف مع انعدام العقل، أما مراهقة عادل مع كاتي فكانت غياب العقل وتشوش العاطفة وفقدان الهوية.

تحية كانت أكثر الإخوة تأثرًا، ليس من السهل أبدًا أن تندمج طفلة من أصول ريفية داخل المجتمع الأمريكي. حافظ لم يختلف كثيرًا عن تحية، أما مراد فكان ذكاؤه يُعليه أكثر فأكثر، حصل على الشهادة الجامعية، ومن بعدها الماجستير، ثم عمل بأحد مراكز البحوث في شيكاغو، لم يكن فاروق الباز لكنه لم يلعن ظروفه يومًا.

كوم النور من جديد، عشر سنوات مرت كالحلم منذ آخر زيارة تقريبًا، عشر سنوات من الدراسة والعمل في أمريكا عاصر فيها عادل ثلاثة رؤساء جددًا بأفكار جديدة، أما كوم النور فبقيت كما هي بالضبط، لا شيء قل أو زاد عليها، اللهم إنّ سور المدرسة الابتدائية هُدِمه وأعيد بناؤه من جديد.. بعد سفر طويل مع حافظ وتحية، نزل عادل أولًا إلى القرية في البرّ المقابل لمدينة ميت غمر، أما شقيقاه فذهبا إلى شقة الأسرة مباشرة، سار على الطريق الترابي الواصل بين القرية والطريق السريع شاعرًا بحنين رهيب. هناك من عرفوه أو شكّوا في ملامحه، وهناك من تعجّب من رؤية شابّ بتلك الملابس المتأنقة في القرية. ذكريات كثيرة في كل سنتيمتر أسفل قدميه، توجّه إلى مدفن إمباركة بجوار الكرمة، وقف شاردًا لدقائق ثم قرأ لها الفاتحة.

- السلام عليكِ يا أمي، أنا أحتاج إليكِ بشدة، أحتاج إليكِ بصدق، أفتقد يديك الحانيتين وهما تمداني بالحياة والحب، أحتاج إلى صوتك الممتلئ بالرجاء في دعائك: «اللهم اجمع أبنائي على الخير دائمًا».. مراد يُقرئك السلام، صارت له مكانة مرموقة بإحدى الجامعات الأمريكية، سأحضر حافظ وتحية لكِ في الغد.

سكت لبرهة ثم أكمل: والدي، ما زال طفلًا أخرق لا يعرف عن الأبوة شيئًا، سامحيه يا أماه أو احفظي أرواحنا منه.

بعد أن انتهى من مناجاة زوح والدته شعر بأن هناك من يراقبه، ذلك الإحساس غير المفهوم بأن هناك عينين تراقبانك من الخلف. التفت فوجد صديق طفولته، بعد خمسة عشر عامًا عرفه على الفور.

- طاهر الباهي؟! كيف عرفت بوجودي هنا؟!

قالها في دهشة فردّ طاهر في مرح: ألم تكن ترغب في رؤيتي؟

ثم أضاف: شاب يرتدي ثيابًا أنيقة ويتجه ناحية كرمة العنب، الأمر لا يحتاج إلى أينشتاين لمعرفة من هو، أليس كذلك؟

ضحك عادل بقوة وهتف في سعادة: اشتقت إليك أيها الماكر. كيف حالك وحال كوم النور؟ البلدة لم تتغير منذ آخر مرة تركتها.

قال واتجه إليه محتضنًا صديقه بقوة، والأخير يقول: كنت آخر مَن ودّعك قبل السفر وأول من استقبلك في عودتك. اشتقت إليك بطريقة مرعبة يا بن الحاج داوود. وهل ما زال على عهده أم أن لهجته غيرته؟

- كما هو.

ضحكا ثم بدآ في الخروج من منطقة المقابر، أول ما سأل عنه عادل كان حارس الكرمة، عم ملاك، أخبره طاهر أنه مات منذ عامين بسبب سرطان العظم. شعر بالضيق وثقل الصدر، وتذكر ليلة سفره إلى أمريكا، كان الرجل -رحمه الله- علامة فارقة في حياته.. بعد دقائق سأل صديقه بشيء من الحذر تجنبًا لإحراجه: هل عندك مشروعات؟

أجاب طاهر في سخط لم يستطع مداراته: لا، أعمل فقط محاسبًا في إدارة المحطات الإذاعية بالإسكندرية، وظيفة لا شيء مميز بها سوى أنني أستمع إلى إذاعة القرآن الكريم بصوت نقي.

قالها ثم لوّح بيده ساخطًا وقال: تبًا للوظائف الحكومية المملّة.

- اصبر قليلًا يا طاهر، مصر ما زالت تتعافى من أثر الحروب، الخير قادم.

سأله طاهر: ما الذي يحدث في أمريكا؟ هل الحياة هناك مثلما نراها في أفلام هوليوود؟

هتف عادل مرحّبًا بتغيير مجرى الحديث: ما يحدث في هوليوود هو مستقبلنا.

تطلع إليه طاهر مستزيدًا في اهتمام فقال عادل: هوليوود تتنبأ بفناء العالم وبقاء الأقوى، وبالطبع أنت تعرف من سيبقى لتنتر النهاية، الأمور صارت مكشوفة لأقصى حد.

تبادلا أطراف الحديث عن القضايا السياسية في مصر، واستفاض طاهر في رسم صورة عامة لعادل عن فترة حكم الرئيس مبارك وسياسة التقشف... إلخ، في النهاية وصلا إلى موقف السيارات بمدخل القرية استعدادًا لذهاب عادل إلى ميت غمر.. تساءل طاهر: ما مشاريعك أنت؟ تكلمنا كثيرًا عن السياسة ولم أعرف سبب مجيئك إلى مصر، أتمنى أن تكون إقامة دائمة يا صديق الطفولة.

- مع الأسف لا، درست الزراعة كما قلت لك تمهيدًا للانتقال إلى كاليفورنيا، لن أستمر طويلًا في الولايات مثل مراد، لكنني هنا لمدة عام على الأقل لقضاء الخدمة العسكرية خوفًا من القانون هنا.

سأله عن أحوال مراد وحافظ فطمأنه عليهم.

- وتحية؟

- كما هي، لكنها صارت عروسة الآن.

ذهب طاهر بخياله بعيدًا بعض الشيء ثم عاد لواقعة وقال في وُد: رجوعك لنا عيد يا صاحبي، والدي سيفرح كثيرًا برؤيتكم غدًا. الغداء عندنا، سننسيك طعام الغرب قبل أن تجرّب طعام الجيش.

- إن شاء الله.

احتضن صديقه هذه المرة في حميمية أكبر ثم اتفقا على مقابلة الغد.

أنت بالتأكيد محظوظ إن لم تمرّ بتجربة حبّ لا أمل منه، أو ما يطلقون عليه الحبّ المستحيل، وهو غير منطقي أحيانًا كأن تحبّ فتاة لا تؤمن بديانتك أو امرأة متزوجة... إلخ، ومنطقي في حالات أخرى كأن تحبّ فتاة وأنت متزوج مثلًا، أو تحبّك وأنت دون المستوى بالنسبة إليها، في تلك الحالات يحتاج الأمر بعض المهارات مثل القدرة على الإقناع والصبر، والعمل ليلًا ونهارًا لتفوز بها.

حالة طاهر وتحية، أخت صديقه، كانت مستحيلًا منطقيًا، إلا أنّ الحبّ كان مفقودًا، الأمر كان يحتاج إلى أرض صلبة ليقف عليها طاهر وهو قلب الفتاة، أدرك أنها رحلة شاقة مليئة بالعقبات وأولها كان التلميح لعادل برغبته، لن يكون هناك ثقة إهانات بالطبع، سيُلقي الأمر بزمّته ظاهريًا في حجر الفتاة، الصداقة شيء والنسب شيء آخر.. بعد رؤيته لتحية، أثر طاهر الباهي اللعب بالنار، وخوض مغامرة غير مضمونة النتائج، تحية صارت فتاة لامعة بكل ما تحمله الكلمة من نور، ثقافتها نور، أدبها -رغم العيش في الخارج- نور، العينان المتشدقتان بالذكاء نور، الجارة القديمة صارت نورًا يمشي على قدمين، نورًا ينتظر النار التي توقد من زيت الشجرة المباركة فتصبح نورًا على نور. بالطبع لم يكن طاهر هو تلك النار، ولا يملك الزيت الصافي المضيء من تلقاء نفسه، كانت معه بطاقة ورقية يصرف من خلالها زيت التموين بنيّ اللون بعد معارك دامية، فقط.

كما توقعنا، حدث ما حدث، الأمر لم يأخذ دقائق معدودة، أعرض عادل بوجهه الناحية الأخرى، ثم قال هزيًا من مواجهة صديقه: نأخذ رأي العروسة.

بعدها انطفأ النور، «كرسي في الكلوب» أوجد حالة من «القفص» من ناحية طاهر والانعزال التام من ناحية عادل.. بعد أسبوعين وجد عادل صديقه أمام منزله في ميت غمر. بعد السلام هتف طاهر: أحمل إليك خبرًا ساڑا، زميل لي تكلّم مع ضابط في المنطقة الشمالية، وسنوزّع هناك بعد فترة التدريب، سنقضي هذا العام معًا في شقتي بالإسكندرية.

نظر إليه عادل في امتنان قائلًا: طاهر، أرجو ألا تؤثر رغبتك في الزواج على...

قاطعه طاهر بسرعة: لا أريد الحديث مرة أخرى في هذا الموضوع يا عادل، لقد نسيته تمامًا، كل شيء قسمة ونصيب، ما زلنا صغيرين على الزواج، دعنا نستمتع بالحياة.

هكذا بدأ عادل خدمته العسكرية في الإسكندرية، كان يحصل على إجازة يومين أسبوعيًا، غالبًا ما كان يقضيهما في شقة طاهر الذي أحسن ضيافته، والتزم الاثنان جانب الحذر فكانا يتجنبان الخوض في ذكريات أو أحداث تعكر صفو صداقتهما.

الإسكندرية جميلة بالفعل، وقضاء خدمتك العسكرية هناك هو قمة الراحة بالنسبة إلى أيّ مجند، المحظوظون وأصحاب الوسائط فقط هم من يقضون جيشهم في قيادة المنطقة الشمالية.

استطاع عادل تكوين معارف كثيرة داخل الجيش لكن لم تصل واحدة منهم إلى مرتبة الصداقة، كان أغلب المجندين قليلي الخبرة بالنسبة إليه بسبب فارق السنّ والتجارب، كانوا يطلبون رأيه في مشكلاتهم ويبوحون له بهمومهم، أحيانًا كانوا يسألونه بسذاجة عن حياته الشخصية، وفي قرارة أنفسهم يتمنون معرفة سرّ الكاريزما التي يتمتع بها وتعلّقهم به.. الكاريزما هي تفضيل إلهيّ لا يوجد سبب له، ذلك الحضور الطاغي الذي يتمتع به بعض الأشخاص وبقاء أثره حتى بعد الرحيل، أعتقد من وجهة نظري أن وجود الكاريزما يعود إلى سببين، أما التناقضات التي يحملها الشخص، وإما المرونة في التعامل مع كل أنماط البشر. امتلك

عادل السببين، لهذا كانت جاذبيته مضاعفة.. لن تجد شخصًا يدندن أغنية «Beat it» لمايكل جاكسون ثم يذهب لتناول شيء ما يشبه الجبن الأبيض وحبات فول صلبة كطلقات الخرطوش تُوزَّع في دلو، كان شريط الاستعلاء الذي مارسه في البيت يمرُّ وقتها من أمامه، فيعلو بداخله صراخ صامت ثم يعلن استسلامه في النهاية من أجل البقاء حيًا.

مرَّت الأيام وأوشك الشتاء على نهايته، واقترب الربيع وأيامه العاصفة.. بدأت أولى العواصف عندما مال أحد المجندين على أذن عادل وهمس: سنوات الخدمة العسكرية للمجندين ستمتدّ من ثلاث إلى خمس، هل لديك معلومة عن ذلك؟

لم يكن لدى عادل أيّ معلومة، لا هو ولا غيره، إذ بدأ الأمر مساء يوم الثلاثاء 25 فبراير 1986 بشائعة أطلقها أحد المجندين وانطلقت من معسكرين للأمن المركزي يقع أولهما على طريق القاهرة- الإسكندرية، والثاني على طريق الفيوم، مظاهرات احتجاجية انتشرت كالنار في الهشيم، كان الوضع في القاهرة أقل حدّة بكثير إذ انحصرت انتفاضة الجنود في القليوبية والإسماعيلية وسوهاج، أما الاستثناء الوحيد فكان في أسيوط حيث كانت الأحداث أشدّ عنفًا، استطاعت قوّات الجيش أن تحاصرهم بعد تدخلات عنيفة. بالطبع القيادة الشمالية في الإسكندرية كان لها دور المراقب خوفًا من تطوّر الأحداث.

لم يكن عادل مهتمًا من الأساس بالأحداث السياسية، بعد فترة استقرّت الأمور وهدأت الأوضاع لكن صارت هناك رقابة صارمة من حديد على تحركات المجندين وسلوكهم، كل هذا لم يشغل بال عادل أيضًا، طمأن نفسه بأن الشهور الباقية ستمرّ بخيرها وشرّها ثم سينسى تلك المرحلة ويبدأ مشروعه الزراعي، فليحدث ما يحدث إذًا.

كما أن الربيع يأتي مصحوبًا بالرياح فإنه أحيانًا قليلة يجلب معه نسمات بهية، هذه المرة كانت النسمات قادمة من البحور والجبال الحمراء ونهر زاينده (كلمه فارسية تعني خصب) تحمل معها رائحة الزعفران.. نسمات وجدت ملاذها في معانقة هواء بحر الروم دون إرادة أو تخطيط، ثم تجسدت لتظهر في هيئة شابة ذات غمازتين وترتدي وشاحًا إيرانيًا مزركشًا، تلك النسمات نسمّيها هنا.. آن عبد المهدي سيف الملك.

***

وجدها حائرة داخل سنترال المندرة، كانت تجاهد لإفهام الموظف ما تريده دون فائدة، حينها قرر التدخّل لمساعدتها. كانت رائعة الجمال، لكنه لم يكن من أولئك الهمج الذين يفقدون السيطرة فور ظهور الأنثى، صراحة لم يكن شاعرًا من الأساس بالفتنة، كان شغوفًا بالحديث معها لكونها لُغزًا، بل مجموعة ألغاز ملأت رأسه بالأسئلة بمجرد رؤيتها. عاملها بلطف دون الوقوع في مصيدة الانبهار، عرض عليها في بساطة التنزه في الأماكن الشعبية في الإسكندرية لكنها أبت في ذوق.. أعرض قليلًا فدعته لزيارتها في الفندق لكنه أبى، ثم... (أنتم تعرفون باقي الحديث بالتأكيد: المطعم الشعبي، شارع النبي دانيال، المتحف اليوناني الروماني، ثم الاتفاق على المراسلة).

قال طاهر في مكر: ما أخبار التليفون؟

قال عادل لصديقه: اسمها آن، نسيت سؤالها عن معنى الاسم.

- هل هي جميلة؟

- آن جميلة جدًا يا طاهر لكنها حزينة، لا أدري أيّ الصفتين تجذبك إليها، قالت لي الكثير من أسرارها التي لن أبوح بها بالطبع لكنها باختصار مأساة تمشي على قدمين. الجمال يخطفك بالطبع، لكن الحزن يأسرك لديه فلا تعرف التحرر منه قبل أن تفك اللغز، بعد أن تفكه ستنسى جمالها ثم تعيش داخل قصّتها بكل كيانك. آن جميلة يا طاهر لكن جمالها يشبه جمال المقدسات، تعرفه جيدًا وكلما اقتربت منه عرفت أن معدنه أبهى كثيرًا من بريقه.

صمت طاهر مليًا ثم قال هامسًا: هل أحببتها يا عادل؟

رد عادل بصوت متلعثم: لا، إن كان سؤالك عن حبّ العشاق فلا.. ثم إنها سيدة متزوجة يا طاهر.

قالها ثم أردف بصوت أكثر ثقة: لن أخجل منك، أنا شابّ قاربت على الثلاثين عامًا وهي أيضًا في زهرة شبابها، الحب رائع، لكن أقسِم لك أن شعوري مختلف تمامًا.

- حسبتك غارقًا في الهوى، عذرًا، لا تؤاخذني يا صديقي.

أحنى عادل رأسه قائلًا في رقة عجيبة: الأمومة حبّ، الصداقة حبّ، علاقتك بالخالق حبّ. الانجذاب الجنسي انتفى داخلي رغم تعدّد لقاءاتي بها.

ثم تنهّد وأضاف بلسان صادق وقلب مفعم بجمال غامض كالعبير: كأني أعرفها منذ زمن طويل، كأنها جزء مني، كأنها أختي أو توأمي ولقيتها بعد غياب.

غض طاهر بصره ارتباكًا ثم أولى صديقه ظهره وقال في عدم اكتراث مفتعل: هل ستراسلها؟

- أنتظر خطابها الأول بفارغ الصبر، قالت إنه لن يتأخر.

يُقال إنّ انتظار المحبين مليء بالشوق وتكمن لذته باللقاء، وانتظار الأصدقاء مليء بالثقة وتكمن لذته بالطمأنينة بعد اللقاء، أما انتظار عادل لخطاب آن فكان مليئًا بالقلق عليها.. كان قلبه معلقًا بالمجند الذي يأتي ببريد الوحدة العسكرية، حتى الهاتف الأرضي تعلق به رغم علمه جيدًا أنها لن تتصل به. كان الحلّ بالنسبة إليه هو استقبال الخطاب على عنوان شقة صديقه، لكنه تراجع بسبب أمرين، إما ورود الخطاب في مواعيد عمل صديقه، وإما إعطاء طاهر الحق لنفسه في قراءته. لا يوجد شيء يضيع عند الحكومة لكن شقة صديقه وضع آخر، كان يمني نفسه ليلة ذهابه إلى الوحدة أول الأسبوع بوجود خطاب في انتظاره، جاءه الخطاب بعد ليالٍ وليالٍ، أمسك به عسكري الأمن ووقف على باب العنبر مسندًا يده على قائم الباب باحثًا عن عادل، التقطته عيناه فقال بوجه مكفهرّ وصوت صارم: هل هذا الخطاب القادم من إيران يخصك؟

***

تحزك رجل أربعيني بخطوات سريعة، تتبعه زوجته المنتقبة، داخل أروقة شركة كهرباء الدلتا بمدينة السنبلاوين، كان يبحث عن مكتب الشكاوى لاعنًا اليوم الذي يجمعه بالمصالح الحكومية التي تعطل مصالحه وتجعل يومه عديم الفائدة، وصل بعد أسئلة عديدة إلى المكتب فوجد أمامه رجلًا في بداية العقد السادس من العمر، ضخم الجثة، أصلع الرأس، طويل اللحية، يرتدي بذلة صيفية رمادية اللون، تشعر أنها توزع مع خطاب القوى العاملة لموظفي الدولة. ابتسم الموظف محاولًا تخفيف غضب الرجل الظاهر على وجهه قائلًا: اؤمرني، أي خدمة؟

- حضرتك الأستاذ شفيق الدمراني، مسؤول الشكاوى هنا في الشركة؟

- أنا هو.

- فاتورة الكهرباء لشهر يوليو جاءت بمبلغ ضخم جدًا، 200 جنيه تقريبًا (رقم ضخم وقتها)، لا أعلم كيف حدث هذا ونحن لا نملك في المنزل سوى ثلاجة وغسالة عادية وتلفاز أقرب إلى الترانزستور، هذا ظلم.

لم تختفِ الابتسامة من فوق وجه الأستاذ شفيق بسبب اعتياده على هذا النوع من الشكاوى، وقال مهدئًا: قد يحدث خطأ ما، أعطني الفاتورة.

ناوله الرجل فاتورة الكهرباء فقرأها شفيق بسرعة الخبير وقال دون النظر إلى الرجل: أين السيدة عطيات؟

- تقف بالخارج، هي زوجتي على العموم.

أنهى جملته ثم أخرج بطاقة زوجته وناولها لشفيق ثم نادى عليها.. تأملها شفيق ثم قال في بساطه: اخفضي النقاب يا ستّ عطيات، أريد التأكد من شخصك في البطاقة.

صاح زوجها مستنكرًا: تخفض ماذا؟! زوجتي أتت للشكوى من سعر فاتورة الكهرباء وليس لعمل صحيفة جنائية. لن تخفض النقاب، هذا ليس قانونيًا.

قام شفيق من مجلسه وهتف منذرًا: صوتك لا يعلو داخل مكتبي، لن تعلمني طريقة العمل، تفضل من هنا.

هنا وصل الرجل إلى قمة غضبه وأخذ يردد في هيستيريا: أين المدير؟ أين المدير؟ أين المدير؟!

فلنبتعد عن المكتب الآن ونترك شركة شمال الدلتا للكهرباء بالكامل. أنت تعلم جيدًا أن التعدي على موظف عام في أثناء تأدية عمله هي العبارة السحرية التي ستنهي الموقف بالتصالح، لا أحد يرغب في العرض على النيابة العامة بسبب ارتفاع سعر فاتورة الكهرباء، حتى الأستاذ شفيق نفسه هدأ رغم سباب الرجل، إهدار الكرامة ضارّ جدًا بالصحة لكنه لا يسبّب الوفاة على أي حال.. سيقبّله الرجل على جبهته ويعتذر له ثم ينتهي الأمر.. يعتذر؟! لِمَ الاعتذار؟ هل هناك سبب يدعو الرجل للاعتذار من الأساس؟ صراحة لو أردنا الإنصاف فإنّ مدام عطيات ترغب في الشكوى ليس أكثر، لسنا في لجنة امتحان بالجامعة أو مدرسة تعليم القيادة أو حتى طبيب نساء لتكشف عن نقابها، اتفقنا أو اختلفنا حول النقاب فالرجل لم يخطئ مطلقًا في حق الدمراني.. نحن بصدد فهم الموقف الآن، ولكي نفعل سنعود سنوات طويلة إلى الوراء.

كان الأستاذ شفيق الدمراني يعمل كشاف نور بنفس الشركة، لم تكن مميزات وزارة الكهرباء من حقه وقتها، مجرد كشاف نور حاصل على دبلوم تجارة لا يحصل إلا على الفُتات.. تزوج شابة من السنبلاوين وسمح له والد زوجته بالبقاء معه في البداية بإحدى غرف المنزل. أنجبت له الزوجة ثلاث بنات، ثم جاء الولد بعد خمسة عشر عامًا من الانتظار، فرح به بشكل جنونيّ كي لا ينقطع اسمه من الدنيا كعادة أهل الريف.. سارت الأمور على ما يرام بعد ذلك فترة لا بأس بها باستثناء ضيق الحال، الذي كان شفيق يكافحه بالرشى البسيطة نظير تغيير قراءة العداد لبعض السكان، دون ذلك لا شيء.

منذ سبع سنوات كان أصغر أبنائه، الولد في نهاية التعليم الأساسي، طلب منه بعض الصبية الأكبر سنًا ممارسة الجنس معه، رفض، أغروه بالمال، وافق، دون الخوض في التفاصيل عمّا حدث بعد ذلك. بعد فترة شكّت الأمّ بسبب بعض الشواهد، مثل ظهور هدايا قيمة لا تليق بالمستوى الاقتصادي للأسرة، رفضه القاطع لدخولها معه دورة المياه، تبرّز لا إراديّ... إلى آخر تلك التفاصيل المفزعة. صارحت شفيق بمخاوفها فانفرد بابنه وضغط عليه حتى اعترف بكل شيء، بعد انفعال شديد قرر تقديم شكوى ضد الطلبة الذين ذكر الولد أسماءهم بعينها.. بالطبع هرب الصبية المرضى بالشذوذ، وأتى أولياء أمورهم الكادحون الذين أورثوا الأبناء تلك الجينات الشاذة. أنكر الجميع علمهم بما حدث، لكن تحرّك ضابط المباحث لضبط الجناة جعل فرائسهم ترتعد.. هنا بدأت مفاوضات مقززة نوعًا ما، سألوا شفيق: «كم تريد كي لا يُحرَّر محضر بالواقعة؟»، بدأ المزاد 500 ثم 1000، 2000، انتهى الأمر بدفع مبلغ ألف وخمسمئة جنيه عن كل صبيّ فاعل.. بعد إتمام الصفقة أمام مركز الشرطة توجّه الأستاذ شفيق الدمراني إلى مكتب ضابط المباحث قائلًا في صوت خفيض: سعادة البك، أريد التنازل عن المحضر.

انتفض الضابط قائلًا: ماذا؟! ماذا قلت؟!

كرر شفيق الطلب على مسامعه في صوت أعلى: أريد التنازل.

أشار إليه الضابط محذرًا: أيها الوضيع، ستكسر ولدك مدى الحياة. قل لي، هل هددك أهالي هؤلاء الصبية؟

- لا.

- ستتنازل مقابل المال إذًا؟ أنت... أنت... لا أجد صفة لأمثالك، اغرب عن وجهي يا حيوان.

خرج شفيق بسرعة من المكتب متوجهًا إلى الاستيفاء للتنازل.

بعد تلك الواقعة حدثت تغيرات لافتة في شخصية شفيق الدمراني، صار الرجل حقيرًا بشكل فجّ، يطلب الرشى كأنها حقٌ له، يضرب زوجته دون سبب، لا يعرف شيئًا عن متطلبات بناته، أما الولد فكان يتحاشاه كالشياطين، كلما أخذ المالُ في التناقص كان يشعر أنه أضاع كل شيء، بعد شهور تعرّف على أرملة خمسينية ثرية كانت تبحث عن رجل أيًا كانت هيئته، تطوّع شفيق لهذا الدور وبدأ محاولات استنزافها ماديًا، كانت الأرملة أذكى مما توقع وألقت به في أقرب صندوق قمامة ليخرج من حياتها إلى الأبد، عاد إلى زوجته الأولى فرفضت دخوله البيت وألقت به في أقرب صندوق قمامة، ذهب للبحث عن بناته الثلاث في مدارسهن صباحًا ليطلب منهن استرضاء الأم. أنتم تعرفون بالطبع أين ألقين به.

سنة كاملة عاشها وحيدًا في شقة صغيرة بريف السنبلاوين.. في أحد الأيام وجد زوجته الأولى تبكي أمام مقرّ عمله وقت انصراف العاملين.

- ما الأمر أيتها البومة؟

- ابنتك الكبرى هربت.

- هربت؟! إلى أين؟!

- لا أعلم.

أمسكها من ذراعها في قوة غير مكترث بنظرات زملاء العمل: انطقي، أين ذهبت؟ لا توجد أمٌ لا تعرف خبايا ابنتها حتى لو كانت أنت.

قالت وهي تتأوّه من الألم: هربَتْ مع صفوت بن عليّ صاحب محل البقالة، بعد آخر امتحان في الدبلوم.

يبدو أن تلك السيدة تعشق إبلاغ زوجها بالمغامرات الجنسية لأولادها ذكرًا كان أو أنثى، الأمر لم يخلُ قطّ من التلذذ بالتشفّي فيه إن كنتم لاحظتم ذلك، أفلت ذراعها من بين أصابعه ثم جلس يندب حظه وهي تربت على كتفه في ردّ فعل طبيعيّ منها.. بعد واقعة ولده حدثت تغيرات لافتة في شخصية شفيق الدمراني، أظن أن التغيرات التي حدثت بعد ذلك ستجعل من كلمة «لافتة» محل شك.

***

سَتَعْلَمُ يَا نُؤُومُ إِذَا الْتَقَيْنَا

غَدًا عِنْدَ الإِلَهِ مَنِ الظَّلُومُ

أَمَا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ

وَمَا زَالَ الظَّلُومُ هُوَ المَلُومُ

سَيَنْقَطِعُ التَّلَذُّذُ عَنْ أُنَاسٍ

أَدَامُوهُ وَيَنْقَطِعُ النَّعِيمُ

إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي

وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصُومُ

(أبيات كتبها رجل للحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن حبسه ظلمًا).

***

سار في طرقات المبنى الكبير بداخله مشاعر الدهشة، من أمامه عسكري الأمن ومن خلفه عيون زملائه

متسائلة: «إلى أين المصير؟ عساكر الأمن لا يأتون بالخير أبدًا». دخل عسكري الأمن أولًا دون أن يغلق الباب وراءه قائلًا بشكل آلي: المجند عادل داوود الجندي يا فندم.

أشار إلى عادل بالدخول ثم انصرف وبقي عادل في مواجهة ضابط الأمن.

- اجلس يا عادل.

قالها الضابط في هدوء مما زاد من توتر عادل. لم يجلس، فكرّر الأمر عليه، فجلس هذه المرة لا يكاد ينظر نحو الضابط إلا خلسة، تفحصه الضابط بعينيه النافذتين كعيني الصقر ثم قال في برود بعد دقيقتين كاملتين: ما علاقتك بالمدعوة آن سيف الملك؟ الخطاب مرفق به صور لأسرتها، فلا تنكر معرفتك بها.

تفجّر الغضب داخل عادل بسبب اطلاع أحدهم على أسراره، فبدا كالثمل من شدة مقاومته. لقد استخدم عنوان الوحدة خصيصًا كي لا يسمح لطاهر بالاطلاع على أموره الشخصية. قال في صوت هادئ كأنما يخرج من جسمٍ آخر: هذه أمور تخصني يا سيادة الرائد ولا أحب مشاركتها مع أحد خاص...

قاطعه الضابط بنبرات الوعيد: تأدب يا عسكري، أنت هنا مثهَم وتهمتك ليست بالهينة، إما أنك تحاول إخفاء ما كنت تنوي فعله هنا في مصر، وإما أنك مجنون لا تعرف طبيعة العلاقة بيننا وبين إيران. أنا أرجّح الثانية، أنت مجنون.

شحب وجه عادل دون أن تبدو منه حركة، فعلت نبرة صوت ضابط الأمن واخشوشنت أكثر وهو يقول: هل عرفت ورطتك الآن أيها المجنون؟

قال عادل وهو يزدرد ريقه الجاف: فهمت.

ثم غمغم: لكن إيران ليست إسرائيل على ما أظن، و...

قاطعة الضابط للمرة الثانية وقال في صوت يزفر بالغضب: بل أوسخ.

قام من مجلسه وتحرك متجاوزًا مكتبه حتى وصل إلى عادل في ثلاث خطوات فقط وأمسكه من ياقة «الأفارول» الميري بغتة وهو يقول في تحدٍ: أتعرف يا عادل؟ إذا كانت علاقتك بتلك الإيرانية وراءها تجسس على البلد حتى لو كان دون علمك، فسأجعلك عبرة داخل الجيش كله، أفهمت؟

لم يحتمل عادل نظرة قائده وقال وهو واجم: فهمت.

تركه الضابط وعاد إلى مقعده ثم قال وقد بدا في مظهر جديد مأمون الجانب عن بداية الحديث: احكِ لي كل شيء، كيف عرفتها؟ ما الذي حدث بينكما؟ منذ متى وهذه العلاقة موصولة؟ احكِ كل شيء دون كذب أو خجل مهما كان الأمر، سأقف بجانبك في حالة واحدة، إن صدق كلامك.

قال ذلك ثم ابتسم ابتسامة خفيفة لتشجيع عادل على الكلام.. لم يكن هناك ما يقال للأسف، شاب خرج مع سيدة بنواحي الإسكندرية وحكت له أمورًا خاصة بها، صحيح أنها حكايات حزينة ومثيرة لكنها لا تمس بأي شكل الأمن القومي المصري. لمع في ذهنه عدة أسئلة كالبرق جعلته مشوشًا لدرجة كبيرة: تُرى، هل كانت آن جاسوسة إيرانية حاولت استغلاله بإقامة صداقة بينهما؟ تذكّر الصدفة التي جمعتهما في مكتب البريد فطرد الفكرة سريعًا، لم يكن الأمر مدبرًا على الإطلاق، لم يكن أحد يعلم بذهابه إلى هناك لاستقبال الأموال من إخوته، ثم ما الذي يعرفه عن مصر منذ خمسة عشر عامًا ليقوله للإيرانيين؟ إن كانت جاسوسة فلن تغامر بكشفها على هذا النحو الساذج بكل تأكيد. هناك أمر أخير هو إحساسه الداخلي، كيف يمكن لهذه المرأة أن تكون جاسوسة، هذه الرقة والعذوبة و... قطع أفكاره صوت ضابط الأمن وهو يهتف: أنت يا بني، احكِ.

بدأ عادل الحديث قائلًا: بدأ الأمر في مكتب بريد المندرة...

حكى عادل كل ما يعرفه عن آن، وبعد أنهى حديثه والمناقشات في نحو ساعة كاملة، طلب منه ضابط

الأمن إعادة ما حكاه للمرة الثانية بالتفصيل، فهتف عادل في غيظ مكتوم: لماذا؟

- احلِ يا عادل.

حكى عادل للمرة الثانية، لا يوجد تغيير في أي شيء، هذا المجند لا يكذب، لكن الأمور لا تسير بهذه الطريقة أبدًا، هناك وسواس لدى كل الضباط في مصر، ألا وهو إخطار القيادات بما يحدث، كل ما عليك أن تنقل ما يحدث دون أن تحلّ شيئًا أو تنهي أمرًا معقدًا أو حتى إبداء رأيك.

أعطى عادل الإذن بالانصراف، عاد إلى العنبر فوجد الجميع في استقباله وهتفوا بصوت واحد: ماذا حدث؟

قال في نفاد صبر: لا شيء، أريد النوم الآن.

أما الضابط فمشى بخطوات متراخية إلى النافذة وتطلّع إلى ظلام الليل الكثيف محاولًا تصفية ذهنه لكن رأسه المشغول لم يستجب، فأخذ يدوّر الحديث داخل رأسه.. القرار في تلك اللحظة من القرارات المصيرية التي لا يعلم نتيجتها إلا الله. ما حدث قد حدث، هل يلتزم الصمت وكفى؟ ماذا إن وصل الخبر بأي طريقة إلى مكتب المخابرات الحربية؟ ستكون العواقب كارثية بالنسبة إليه حتى لو كان عادل أطهر إنسان في مصر، ستكون نهاية عمله هنا في الإسكندرية، هذا إن لم يتهموه بالتواطؤ في الموضوع.

كان الجميع -بعد حادثة الأمن المركزي- مرعوبًا من الاستهتار بأفعال المجندين، افترض ظهور براءة عادل بعد إبلاغه المخابرات واستجواب الأخير هناك، ستكون هذه الطامة الكبرى، لن يسامح نفسه أبدًا.

راقب نجمًا فاق الأنجم بضيائه اللامع لدقائق، ثم اتخذ قراره النهائي.

***

الرصاصي الباهت هو اللون المميز لجدران المنشآت الحكومية على مدار عقود طويلة ومنها الثمانينيات، يتحاشى أغلبنا إطالة النظر إليه مدة طويلة، ونحاول الانشغال بأي شيء في أثناء وقوفنا بالطوابير أو تحركنا داخل أروقة المصالح الحكومية، فاللون يبعث على الضيق والتشاؤم ولا يزول تأثيره بسهولة غالبًا.. لا أحد يعلم مَن الذي اختاره وجعله موحدًا في كل أبنية الدولة، قد يكون السر هو تقليل سرعة اتساخها لكون لونها مطابقًا للون التراب، هذا يجعلك في تمرين دوريّ لعذاب القبر داخل هذه القرافة إذًا.. الأسوأ من عذاب القبر فعلًا هو إجبارك على الوقوف لساعات داخل غرفة صغيرة تحمل جدرانها هذا اللون، لهذا بدأ عادل داوود يفقد أعصابه كليًا.

هناك أساليب تُستخدم في أثناء التحقيق في المعتقلات للحصول على الحقيقة من المتهمين، أول هذه الأساليب هو العزل، وسيلة بسيطة وفعالة، يكفي أن تضع المتهم فترة طويلة تختفي فيها كل المثيرات أو المدخلات الحسية والمعنوية مما يُنتج حالة من القلق والتوتر، لن يستطيع أعتى المجرمين السيطرة عليها فيسهل عملية استجوابه بعد ذلك.

لم يكن عادل يعرف أنه بأحد مكاتب المخابرات الحربية في حيّ العباسية بالقاهرة، كل ما عرفه أن أحدهم أيقظه فجرًا وغمّوا عينيه بعصابة ثم نقلوه إلى سيارة ترحيل وسافروا به لنحو ثلاث ساعات. صعد على سلالم ونزل مرة أخرى، سار في طرقات طويلة، ثم أُدخِل في مصعد كهربائي، حتى استقر به المطاف داخل هذه الغرفة.. نزع أحدهم العصابة المشدودة على عينيه، شعر بزغللة شديدة حجبت الرؤية عنه لثوانٍ، لمح ظهر أحدهم فحاول مناداته لكنه أغلق الباب، ثم سمع صوت إحكام الغلق من الخارج قبل أن تتضح الصورة.. وجد نفسه داخل غرفة عادية من أربعة حوائط وسقف ومنضدة صغيرة وكرسيّ خشبيّ يشبه كراسيّ المآتم و.. واللون الرصاصي الباهت بالطبع، فهذه تفصيلة لا تُنسى أبدًا في غُرَف الاستجواب.. دقائق وبدأت مرحلة الألم العضوي، ألم رهيب دقّ رأسه بشكل مستمرّ جعله يصرخ كالمجانين، بعد فترة اكتشف حقيقة مفزعة، هذا الألم لن ينتهي في القريب، سيستمر حتى تخرب رأسه تمامًا.

توقّع أنّ الجولة الثانية من الاستجواب ستكون أكثر عنفًا، حاول طمأنة نفسه برسم سيناريو للساعات القادمة، سيكرر روايته بخصوص آن مرة أو مرتين ثم ينتهي الأمر مثلما حدث في المرة السابقة.. للأسف اتخذ الوضع منحنى آخر، مرّت ساعة، ساعتان، أربع، ثمانٍ، لم يعُد قادرًا على تقدير الوقت، فقد أعصابه تمامًا، صراخ، محاولات كثيرة لفتح الباب، صراخ أعلى، محاولات لكسر مقبض الباب بالكرسي، بكاء، تكسير المنضدة على الحائط، بكاء هيستيري، سكون، ثم سكون تام.. لم يستطع الحركة حتى ظن أنه جثة خاصّة مع الإرهاق واليأس الشديدين، في النهاية نام مسندًا ظهره إلى الجدار.

فجأة اقتحم الحجرة رجل مفتول العضلات تاركًا بابها مفتوحًا، كان يرتدي نظارة شمس سوداء اللون دون داعٍ، ويحمل كرسيًا خشبيًا وضعه في منتصف الحجرة، وقف الرجل بجوار عادل الذي استيقظ مذعورًا، لا يعرف أيّ الأمور حقيقية وأيها ليس له وجود.. بعد ثوانٍ دخل رجل في نهاية الثلاثينيات يرتدي بذلة كحلية تبدو باهظة الثمن وحذاءً لامعًا ويمسك ملفًا في يده، جلس على الكرسي ثم أشعل سيجارة.. أما عادل فكانت عيناه تتابعان ما يحدث في ترقُّب شديد حتى بدأ ضابط المخابرات -كما توقع عادل- حديثه قائلًا في بطء: تركنا لك عورتك يا عادل لأنك واحد منّا، أنت ابن الجيش ولا يصح أن نجبرك على سترها.

نظر عادل إلى أسفل بين فخذيه فوجد نفسه ما زال مرتديًا البيجامة التي كان نائمًا بها في الإسكندرية، دهش من حديث الضابط الذي أشار إليه بالاقتراب، قام عادل من مكانه وسار ببطء ناحيته فأشار إليه الضابط مرة ثانية بالجلوس على ركبتيه، نفذ الأمر فصار وجهه أمام وجه الضابط مباشرة، مال عليه هامسًا في أذنه: العورة هنا ليست قضيبك، بل عيناك، تمام؟

أومأ عادل برأسه موافقًا دون أن ينبس ببنت شفة، فاعتدل الضابط في جلسته قائلًا في صرامة: المعلومات لدي تؤكد أنك إنسان متحضّر ومثقّف، كيف تجاوبت مع فتاة إيرانية تعلم أن دولتها تسعى لخراب مصر؟

ردّ عادل في بؤس شديد: لم أكن أعلم، أقسم بالله أنني لم أكن أعلم أي شيء، هل ثبت تورطها أو أي شيء من هذا القبيل؟

هنا جذبه الرجل القوي من ياقة البيجامة الخلفية ليقف على قدميه وكال له لكمة في بطنه جعلته يتلوى من الألم، وقال بصوت يتناسب مع ضخامة جسمه: أنت هنا كي تجيب علن الأسئلة لا أن تلقيها.

تألم عادل من الضربة ومن الخوف الذي اعتراه فخرج صوته واهنًا وهو يقول: حاضر.

تركه الرجل فسقط أرضًا. وهنا تكلم ضابط المخابرات قائلًا: احكِ ما حدث يا عادل.

قال في صوت يشبه البكاء: لقد حكيت مرتين لضابط الأمن.

حدجه الضابط بنظرة طويلة كأنه يمنحه فرصة أخيرة لتدبر أمره وقال: احكِ يا عادل.

شحب وجه عادل أكثر حتى صار كثمرة ليمون جافة وتمتم: حاضر، حاضر.

حكى ما حدث للمرة الثالثة والرابعة، وكان مستعدًا لتكراره ألف مرة... بعد ساعات انتهى من الحكي ومن الطاقة ومن الماء في جسده ومن كل شيء. تركه الضابط ومساعده في الحجرة فنام على الأرض بعد لحظات.

بعد فترة لم يميزها عادل أيقظه اثنان من فصيلة الرجل مفتول العضلات وسحباه خارج الحجرة، ألبساه العصابة مرة ثانية، ثم قال أحدهم في غلظة: ما اسمك؟

غمغم دون النظر إلى محدثه: عادل داوود الجندي.

- انس هذا الاسم تمامًا، صرت رقم 12 من الآن.

***

- ما رقمك؟

.12 -

- يبدو أن جريمتك لا تُغتفر.

- لماذا؟

- الرقم هنا على حسب الأهمية، أنا رقمي 67.

- يبدو أن جريمتك هي سرقة الغسيل.

دار هذا الحوار الهامس بين عادل و67 قبل تناول وجبة الإفطار وابتسما بعده دون أن يرى أي منهما الآخر.

اليوم داخل المعتقل يبدأ في السابعة صباحًا على صوت الـ«بروجي»، أدخلوا عادل قاعة الطعام وأجلسوه على دكة خشبية ثم أصدر أحدهم الأمر للجميع بالبدء.. حاول سؤال من بجواره عن مكان السرفيس فلم يستجب له أحد، تحسس ما أمامه حتى وجد الخبز وبدأ تذوّق الطعام باقي وجبة الإفطار، جبن وحلاوة طحينية وبيضة، لا يوجد بها شيء غريب باستثناء قِصَر الوقت المخصص لها.

بعد ذلك فتح سيرك المعاناة أبوابه، وبدأت فقرات مؤلمة لا حصر لها، سأخبركم ببعض منها على سبيل المثال.. فقرة التعذيب الجسدي، الوقوف منتصبًا مع تقييد الأقدام والأيدي إلى منضدة منخفضة لساعات طويلة، الضرب المبرح، فقرة البرد القارس، وهو أسلوب شائع تُترك فيه بملابس خفيفة، وتُجبر على النوم على أرضية باردة، ثم يُسكب الماء المثلج على جسدك، في الصيف يبحث الناس عن الماء المثلج للشراب وليس الاستحمام بالتأكيد.. فقرة وجبة الغداء كانت أقرب لفقرات المعاناة هي الأخرى، كان طعمها غريبًا، يعرفها جيدًا لكن مكوناتها لا يمكن أن تجتمع في صحن واحد أبدًا.. تونة، عدس، عنب، كما قرأتم بالضبط هناك حبات من العنب (عرفه من الطعم المسكر) داخل صحن العدس المختلط بالتونة، لم يستطع الاستمرار أول يوم فترك الملعقة وأنزل يده إلى جواره.. ذات مرة بعد تناوله هذا الشيء أصيب بإسهال شديد ومنعوه من التغوط ليلًا، فعلها رغمًا عنه في ملابسه، يومها وجد طعامًا مالحًا في فمه، فعرف أن الغمامة لم تقوَ على امتصاص كل دموعه.

فقرة التعذيب النفسي، وهي أسوأ من الجسدي بمراحل، أسئلة كثيرة تخص حياتك، بل أدق تفاصيل حياتك، عصر خلايا مخك حتى الجفاف الفكري، فلا تعرف ما الذي يجب عليك قوله، قرر ذات مرة أن يكذب بشأن علاقته بآن، اختلق بعض الأكاذيب كي يثبت أنها جاسوسة، الغريب أن الضابط المسؤول عن استجوابه رفض أن يستمع إليه وتركه يقف وحيدًا في الغرفة كالأبله.. في نهاية اليوم حمد عادل ربّه أن وجبة العشاء لم تختلف كثيرًا عن وجبة الإفطار.

أقسى فقرات اليوم كانت فقرة النوم بلا منازع، كل خمسة معتقلين ينامون بعنبر واحد، سُجِّي كالمكفوفين حتى السرير وفُرِد جسمه بالطول ثم رُبِطَت يداه بالحبل إلى الخلف وقدماه بطرف السرير، صار جسمه مشدودًا كأنه داخل جهاز الرنين المغناطيسي... أحيانًا كان يُوقَظ في ساعة متأخرة من الليل ليُستجوَب، نفس الأسئلة، نفس الردود، نفس الألم النفسي، بعد الانتهاء يعيدونه إلى وضعية أنبوب الرنين المغناطيسي، ثم يبدأ يومه الجديد من السابعة كالمعتاد، وهكذا.

بعد حرمانه من النوم، كان رأسه يدور وكأنه خارج من غيبوبة، ويصبح مشوشًا، منهك القوى، غير قادر على الحركة، وهناك رغبة واحدة فقط تسيطر عليه، النوم.. لم يقتصر جحيم العنبر على ما سبق، بل زد عليه صوتًا رتيبًا مزعجًا، ناتجًا عن تنقيط المياه من صنبور غير محكم الغلق طوال الليل، الأمر الذي جعل أعصابه ملتهبة كمشعل الألعاب الأوليمبية.. باختصار، حالته كانت أقرب للجنون المؤقت.

آخر طرق التعذيب التي عرفها عادل لكنه لم يجربها -ليس رأفة به إنما لعدم جدواها في حالته- هو الإذلال الثقافي، وهو إجبار الشخص على فعل أشياء تتعارض مع معتقداته الدينية، مثل إجبار الإرهابيين الذين

يمؤلون من الخارج على أكل لحم لخنزير أو شرب الخمر، هذا الأسلوب كان يكسر إرادتهم تمامًا في كتمان أسرارهم، الإرهابي يستطيع تحمّل كل أنواع التعذيب إلا ما يمس مقدساته، فيحاول جاهدًا تغيير هذا الوضع المدمّر في أسرع وقت.

عزيزي قارئ هذه السطور، ما قرأته أنت في ثوانٍ وجعل زوحك تشمئز، ونفسك تسأم، عاشه عادل داوود الجندي لثلاثة شهور كاملة، 90 يومًا بالتمام، 2160 ساعة متواصلة، ثُرى أيّ دقيقة كانت الأصعب في تلك الساعات؟ الدقيقة التي تلت ظهور شبح والدته بالطبع، ظن في البداية أن هلاوس الطفولة قد عاودته، ثم خطر بباله أنها ذكريات ساعد عقله على البناء الدرامي لها، إذ قيل إنّ الذاكرة تزيف الواقع بعد مضيّ فترة بين سنة وخمس سنوات، وكلما طالت المدة فإن التزييف يكون أكبر.. هلاوس مَرَضية أم تزييف معتاد للذكريات؟ لا يهمّ، المهم هو أن والدته تجسدت أمامه، ظهرت له بنفس هيئتها الحنون، كانت ممسكة بسبحة، ناظرة إليه كأنه يراها من خلف الغمامة.

- أمّاه!! كيف أتيت إلى هنا؟

- كيف حالك يا بني؟ صرت في نعيم أم شقاء؟

- كما ترين، شقاء بلا نهاية.

- الشقاء أول الحكمة يا بني، والأمر كله بيد الله، لا تنس يا عادل، الدم يأتي بالدم، فاحذر.

قالتها وأشارت إلى عنقها براحة يدها، ثم اختفت فجأة كأنها لم تكن موجودة. بكى عقب اختفائها بكاءً شديدًا، وحاول رقم 67 أن يهدئ من روعه بكلام عاجز لم يؤمنه من خوف، فصرخ صراخًا مكتومًا اهتز له فؤاد زميله.

بعد ثلاثة شهور تمنى عادل دخول السجن، أيّ سجن، المهم أن يبتعد عن هنا، مهما حدث في السجون العادية لن يجعلوك تجري عاريًا محاولًا تغطية عورتك بيدك في ذعر.. في أيامه الأخيرة أيقظوه من النوم وأدخلوه نفس غرفة الاستجواب الأولى، عرف ذلك بعد أن صارت حاسة اللمس عنده قوية، بدأ في استجوابه اثنان من ضباط المخابرات صوتهما مختلف تمامًا عن أي ضابط استجوبه من قبل، طلبوا منه الحكي كالعادة، فبدأ كلامه بشكل مختلف تلك المرة وقال: سيدي.. إن كنتم تريدون الحقيقة فقد قلتها من قبل، إن كنتم تريدون اعترافي بالتجسس أو إقامة غلاقة مع الجاسوسة الإيرانية فأنا مستعدّ للاعتراف بذلك أمام النيابة والقضاء وحتى مجلس الشعب نفسه.

سأله أحدهما في بساطة قائلًا: وإن لم تعترف؟

- أبقى هنا حتى تقوم الساعة.

- وهو كذلك.

في الصباح أبلغوه بأنه سيُعرَض على النيابة العامة العسكرية، اقتادوه إلى سيارة الترحيل التي بدأت تجوب شوارع القاهرة حتى توقفت وأنزلوه منها، بعد دقائق رفعوا عنه الغمامة ليجد نفسه أمام مكتب المدعي العام العسكري، كانت تلك المرة الأولى التي يخلع فيها الغمامة عن عينيه منذ ثلاثة أشهر مما جعل الرؤية مشوشة بشكل كبير كأن هناك عتامة (يسمى ذلك مرض كسل العين بسب عدم تحريك عضلات العين لفترات طويلة)، أدخلوه فوجد ضابطًا برتبة عميد وحوله أربعة ضباط برتب أصغر وأمامهم منضدة عريضة، قال أكبرهم رتبة في رفق: اجلس يا بني، ماذا حدث؟

قال عادل في سرعة: أرجوكم أنقذوني من كل هذا، أتوسل إليكم.

طمأنه العميد قائلًا: لا تخف واحكِ.

حكى للمرة المليون تقريبًا ثم ختم روايته قائلًا في ضراعة وهو يتقدم بخطوات سريعة نحو المنصة: أقبّل أيديكم وأرجلكم، هذا هو كل شيء، احكموا عليّ بالسجن لكن لا تعيدوني إلى هناك.

سحب الجميع أرجلهم إلى الخلف في حركة لا إرادية ثم قال الكبير في هدوء: ستخرج قريبًا يا عادل، ستعود الآن إلى العباسية لكنك ستخرج وستنسى ما حدث، هل سمعت؟ ستخرج من الخدمة العسكرية نهائيًا ولن تعود إليها مرة ثانية.

أخذ يبكي وهو يجلس على ركبتيه أرضًا، حتى دخل الحراس وألبسوه الغمامة ليخرجوه وهو يصرخ قائلًا في رعب حقيقي: أقسم بالله أنني لم أخُن وطني، لقد غدت إلى مصر لأداء الخدمة العسكرية، فكيف أخون الوطن؟! أقبّل أيديكم وأرجلكم...

أخذ يصيح كالأبله دون مقاومة منه للحرس حتى صعد إلى سيارة الترحيل وهو ما زال يردد توسلاته وصرخاته حتى جفّ ريقه وبُحّ صوته وبدأت رحلة العودة إلى المخابرات الحربية.

***

- مَن أنت؟

- 34.

- أين 67؟

- لا أعلم، لا أحد يعلم شيئًا هنا.

- لم أعُد أنتمي إلى هنا، سأرحل عما قريب.

- هل ذهبت إلى النيابة العسكرية؟

- نعم.

ضحك رقم 34 ضحكًا مكتومًا، فانقبض قلب عادل وحوّل نظره إلى رفيق المعتقل رغم ارتدائه الغمامة لكنه بقي صامتًا، لكزه عادل في جانبه كي يفسّر له الضحك فتكلم أخيرًا بنبرة مرحة لا تتناسب مع الموقف: أنت لم تذهب إلى أي مكان يا صاحبي، لقد خرجوا من هنا وداروا بك في شوارع العباسية ثم أقنعوك أنك وصلت إلى النيابة، غالبًا كنت في الطابق الذي يعلونا. قل لي، هل غيرت أقوالك؟

بهت عادل وظلّ ساكتًا، لكزه 34 تلك المرة لكنه لم يكن قادرًا على النطق.. علا صوت أحد الحرس يأمرهم بالوقوف استعدادًا لتناول وجبة الغداء، لم يفكر عادل في أي شيء البتة وبدأ في التحرك مثل الآلة.. في المساء وفي أثناء الاستحمام الجماعي، تسرّب خبر انتحار رقم 67، قالها أحدهم في صوت خفيض: تعمّد أن يدخل المستشفى، وهناك ابتلع يوميًا بطارية ساعة يد، وجدوه ميتًا بعد أيام.

سمع عادل ذلك فخارت قواه وسقط مغشيًا عليه.

***

وَعَسَى الَّذِي أَهْدَى لِيُوسُفَ أَهْلَهُ

وَأَعَزَّهُ فِي السِّجْنِ وَهْوَ أَسِيرُ

أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنَا فَيَجْمَعَ شَمْلَنَا

وَاللهُ رَبُّ العَالَمِينَ قَدِيرُ

(إبراهيم بن المهدي)

***

- ما رقمك؟

- لا يهمّ، الأرقام كلها سواء هنا، غير محصنة ضد الموت.

***

قال عادل لصديقه: صحيح أنني لم أكن أعرف 67 ولم أرَ شكله إلى الآن، كلمات قليلة فقط كانت تأتيني منه قبل النوم، أو وقت تناول الوجبات، وأحيانًا قبل الاستحمام، لم نجد فرصة لحديث مطول طيلة ثلاثة شهور، لم أعرف تهمته، ولم يعرف لِمَ أنا صاحب رقم مميز كما كان دائمًا يقول، قد يكون جاسوسًا أو إرهابيًا أو جريمته تمسّ الأمن القومي للبلاد، إلا أنني بكيت كثيرًا لوفاته.. ناديت عليه ليلًا رغم تأكدي من انتحاره، لكنه لم يردّ، لا هو ولا غيره، كأن الباقي أموات يتنفسون، شعرت بالخوف من طريقة انتحاره، الانتحار هو فعل وليد اللحظة يحدث نتيجة خلل في الانفعالات، لم أرَ إنسانًا ينتحر على مدار أيام من قبل مُستحضِرًا كل هذا الثبات الانفعالي إلا رقم 67.. شعرت كذلك بوحدة رهيبة وسط العشرات من الـ... لا أعرف مصطلحًا يليق بهم، هل هم مجرمون أم معتقلون سياسيون أم أرقام؟ لا أعرف، تلك الوحدة كانت تسهل علي إحضار أمي لأتحدث معها، كانت تملؤني بالونس، بالحياة، بالبهجة رغم كل شيء. افتقدت مراد وحافظ وتحية، رغم البعد لم يغيبوا عن بالي لحظة، حتى أنت يا طاهر، افتقدتك كثيرًا، رغم عدم بحثك عني. أأخبرك بسرّ يا طاهر؟ أتمنى ألا تفشيه مثل سرّ والدتي عندما كنا صغارًا.

هزّ طاهر رأسه في بطء وهو يداري خجله بأن قال: كنا صغارًا كما قلت يا عادل. ما السرّ؟

- لقد افتقدتُ آن نفسها، افتقدتها حتى إنني تمنيت معرفة أي شيء عنها في المعتقل، محنتها غلبت محنتي داخل عقلي.

لم يعلق طاهر، وسأله بعد دقائق: كيف خرجت يا صديقي بعد كل هذا؟

- لا أعرف، خرجت بعد ثلاثة شهور بعدما أعطوني شهادة إنهاء الخدمة العسكرية نظرًا لظروفي الصحية، عدت إلى الإسكندرية داخل سيارة الترحيل لإنهاء الإجراءات، الكل هناك كان ينظر إليّ في شك وخوف كمرضى الجذام، بعد تسلُّم الشهادة جئتُ إليك هنا. طاهر، هل أنا مريض؟

- أيّ إنسان مرّ بتلك التجربة يجب أن يعاني كثيرًا يا عادل، نحن لسنا جبالًا أو آلات حديدية. ارتَح ولا تشغل بالك بشيء، سأرسل في طلب حافظ وتحية كي يحضرا لزيارتك.

للأسف كان حافظ وتحية قد غادرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن يئسا من الوصول إلى عادل، أما داوود الجندي فقد كان غارقًا في شركته التي تزدهر يومًا بعد يوم، كان يتابع فقط تطوّر الأحداث مع طاهر الباهي ثم اضطر في النهاية إلى حجز تذكرة ذهاب إلى مصر للسؤال عن ولده، جاءه صوت طاهر في مكالمة دولية قائلًا في حزن: أستاذ داوود، عادل يحتاج إلى وجودك بشدة، أرجوك، احضر في أقرب فرصة.

رد داوود في هلع حقيقيّ: ماذا حدث يا طاهر؟ أين عادل؟ أريد التحدث إليه.

- هو نائم الآن في شقتي، متى ستأتي يا عفاه؟

- الأحد القادم، ما عنوانك في الإسكندرية؟

أنهى طاهر الحوار سريعًا بعد إبلاغه العنوان. أما عادل فلم يكن نائمًا بالطبع، كان كارهًا للتواصل مع والده دون سبب، يبدو أن ما حدث له في المخابرات الحربية أعاد الفجوة الموجودة بينه وبين والده.

خرج هائمًا على وجهه ناحية شاطئ البحر من فرط اليأس والتعب، واساه تفكيره في آن وهو ينظر حوله متعجبًا من غرابة ما حدث له. هنا سار مع آن، وأكل معها، هنا رأى فيها حنان أمه الغائب، وحكمة أبيه المفقودة،

ورحمة الأخت المنسية، هنا بدأ كل شيء وانتهى أيضًا، جف الحنان وتخلت عنه الحكمة والرحمة.

صرخ فاردًا ذراعيه لأعلى في وضع الدعاء وقال دون انتظار الإجابة: أين أنت؟

***

سماح عادت أخيرًا.. بعد اختفاء أسبوعين ومحضر غياب في مركز الشرطة عادت أخيرًا. مَن سماح؟ هل نسيتم ابنة شفيق الدمراني الكبرى التي هربت مع ابن البقال بعد آخر امتحانات الدبلوم؟ يجب أن تنهي كل فتاة واجباتها قبل الهرب مع صديقها، غير ذلك لا يصح.

عادت سماح ثيبًا، لن تهرب مع صفوت بعد سرقة مصوغات والدتها ثم تعود بكرًا بعد ذلك بالتأكيد. سماح كانت تبحث عن اللذة الجنسية مبكرًا، وقد نالتها.. بعد أسابيع قليلة عاد العاشقان، جزئيا لذة الجنس لحين نفاد المال، ثم انتهى كل شيء. الأستاذ شفيق ضربها ضربًا مبرحًا حتى إنها لازمت مستشفى السنبلاوين المركزي شهرًا كاملًا للعلاج، وبعد هدوء الوضع نسبيًا بدأ البحث عن صفوت، تحدث مع والده بشكل صفيق وحاول ضربه هو الآخر لكن دون فائدة. صفوت لا أثر له، أما البقال فكان من أصحاب الجلد الثخين فلم يستطع أخذ حقٍ منه أو باطل، من ينجب ابنًا بهذه الخسة لن يكون نزار قباني على أي حال، هذا الخسيس من ذاك النذل بالطبع كما تعلمون، كذلك لا توجد أي مسؤولية قانونية على ولده صفوت، ولن تقام جلسة عرفية لحكماء المدينة لأن شفيق الدمراني ليس محبوبًا لهذه الدرجة، ثم إنّ لفظ «حكماء» مدينة السنبلاوين لهو محل شك من الأساس.

ماذا فعل شفيق الدمراني؟ لم يبالغ في رد فعله، ازداد الشيب في شعر رأسه المتبقي إلى درجة مخيفة وسقطت إحدى أسنانه دون سبب طبيٍ معروف، أحيانًا كنت تراه جالسًا على أحد المقاهي بعد العمل ويردد أن خطيب سماح مسافر في عمل وسيأتي عما قريب عندما يلفح أحدهم له بما حدث. كان الرجل أقرب إلى المرضى النفسيين.. يعود بعد ذلك في آخر النهار إلى البيت، يأكل طعامًا خفيفًا، ثم ينام حتى صباح اليوم التالي، صحيح أن عودته إلى زوجته الأولى عودة فندقية -إن صحّ التعبير- أي مجرد مكان للنوم فقط، إلا أنها جمعت شمل الأسرة من جديد، عودة الدفء الأسري إحدى ميزات هروب أحد أفرادها بالتأكيد.

مرّت الأيام والشهور وتحوّل المنزل تدريجيًا إلى جُزر منفصلة، لم يكن مترابطًا مِن قبلُ لكنه أصبح في وضع مُخزٍ للغاية، يكفي القول إنّ شفيق لم يغد راغبًا حتى في النظر إلى ثلاثة أفراد من أسرته، سماح، والبومة والدتها، وثالثهم الولد الوحيد ووريث لقب الدمراني بعد أن صار سلوكه الشاذ أمرًا واقعًا لا يقدر على منعه.

قالت الأم في نحيب عن ابنها: الكارثة أنه موافق، أنه يستمتع، أنه يتمادى.

- اخرسي يا بومة.

تلوي فمها وتضع كفّ يدها عليه في حركة مسرحية قائلة: خرسنا.

جرّب شفيق الحضور في المسجد بعد أن أوصدت أمامه جميع أبواب الأمل، لكنه مع الأسف وجد هناك نظرات قتلت الأمل بداخله، الكل كان يتحاشاه، ليس هذا فقط، بل جعلوا منه متندرًا بسبب التناقض بين ما يدعو به في المسجد وأفعاله السالفة.. قد يحيط بابن آدم أعداء كثيرون يحسُنون له القبيح ويقبّحون له الحسن، يدفعونه دفعًا دون وعي منهم إلى القنوط من رحمة الله، لهذا كان المطلب الأول من العالِم للرجل الذي قتل مئة نفس أن يهجر البيئة التي تذكّره بالمعصية إلى أرض جديدة.. لكن شفيق لم يهاجر إلى أيّ أرض جديدة بالطبع، وسرعان ما عاد إلى سابق عهده من طلب الرشى وشرب أحجار المعسل والشجار مع أهل بيته لأتفه الأسباب، بل واستمر في إفساد أرضه نفسها لكونه لا يملك الرغبة الحقيقية في الإصلاح، أو لعلّها ضريبة إضاعة الحقوق دون تمييز، بداية من الدولة التي ائتمنته على أموالها، حتى ولده الذي ترك دراسته بسببه.

نعود إلى سماح، المراهقة اللطيفة التي كانت تسير بخطى ثابتة نحو مستويات مرضية في الدعارة، حتى الآن هي ناجحة بشكل يجعلنا نصفق لها انبهارًا. في البداية كانت تقدم خدماتها لشباب السنبلاوين فقط، ثم تطوّر الأمر حتى شملت خدماتها مدينة المنصورة وبعض المراكز المجاورة.. المقابل لم يكن ضخمًا نظرًا لظروف سماح، فهي للأسف تحكمك بفترة الصباح فقط، بمجرّد توسط الشمس في كبد السماء كانت تعدو نحو البيت دون تفكير، كذلك حبّها الشديد للجنس جعلها تكذب بخصوص ميعاد دورتها الشهرية، جعل زبائنها تتأفف من ذلك، ناهيك بكونها صعبة الوصول إلى النشوة الجنسية مما وضع الأغلبية في حرج تامّ.. أمّها عرفت بالتأكيد، الأمّ تعرف كل شيء، لا يمكن أن تخفي فتاة أمرًا عن والدتها، خصوصًا عندما يتعلق بالجنس، ثارت عليها فحاولت سماح إقناعها بقرب عودة صفوت، وحذرها من الحمل من الزبائن، لكن الأمّ وقفت لابنتها بالمرصاد، هنا ظهرت الهدايا فتبدّل الحال تمامًا.. لن يحدث أسوأ مما حدث، هكذا برّرت الأمّ لنفسها تغاضيها عما تفعله ابنتها وخرست تمامًا.

أمل، الابنة الصغرى للأستاذ شفيق، كانت شعاع الضوء الوحيد الذي أنار عتمة حياته بعد سنين، أمل تعلّمت الدرس جيدًا واختارت انتظار الحياة المستقرّة بأي صورة حتى لو ستظلّ عانس للأبد.. تقدّم لها موظف بسيط في شركة المياه، يتيم الأب والأم ورأى فيها نموذجًا للفتاة التي ترغب في صون نفسها، تزوجته بشكل بدائي للغاية، مجرد شقة صغيرة بالإيجار تحوي أثاثًا متواضعًا، دون عرس أو شبكة، العريس لم يكن يملك شيئًا من الأساس، أما والد زوجته فلم يكن راغبًا في شيء سوى إزاحة واحدة من الغمائم الثلاث عديمة الفائدة في شقته.

أمل صارت زوجة وعلى وشك أن تصبح أمًا، صارت قائدة في بيتها تحاول الحفاظ عليه لأقصى درجة، قالت لنفسها إنّ هذه الزيجة ستنهار غالبًا، ستتراكم الديون على زوجها مع عدم وجود غطاء من الذهب لسدادها، أو ستستمر في الإنجاب دون وعي حتى يهرب زوجها منها، خصوصًا لأنه بلا جذور في المدينة، أو سيتحرش بها أحد الجيران الذين يعرفون سلوك أختها جيدًا ولن يقدر الزوج على تحمّل الشك... إلخ، فكرة انهيار أسرتها -مثلما حدث لوالدتها- كانت ترعبها.

صحيح أن أمل لم تكن تعرف مدى قوة تحمّلها، لكنها كانت تعرف أنها تحب زوجها وأن المحاولة شرف، لهذا لم تستسلم قطّ.

***

قال: سكن عادل وداوود هنا، في هذا البيت يا رزقة، شقة الدور الثالث، هل كنتِ تعلمين ذلك؟

قالت مرزوقة في شغف: سمعت هذا، بل أقمت بها شهورًا قليلة.

قال في انهزام خفي: في تلك الفترة، بعد خروج عادل من هاوية المخابرات الحربية، اتخذ والده قرار البقاء معه في مصر، لم يغد إلى كوم النور طبعًا، لم يكن يريد العودة مكسورًا وولده في تلك الحالة المزرية، خصوصًا بعد غياب خمسة عشر عامًا أو أكثر وتحقيق نجاحات ملحوظة في بلاد العمّ سام، بلاد العمّ سام هي أمريكا يا رزقة.

ابتسمتْ في لامبالاة ونظرت إليه مشجعة كي يستكمل حديثه فاستطرد قائلًا: عامان كاملان عاشا فيهما معًا، حياة غريبة لم يستطع أحدهما فهم الآخر بها، عادل صار مدخنًا من العيار الثقيل، لا يتكلم ولا يخرج من الشقة تقريبًا، صامتًا طوال الوقت، أحيانًا يقرأ، أما أغلب أوقاته فكان يقضيها نائمًا. كان أقرب للجنون إن شئنا الدقة، ينفعل بشدة ويهدأ سريعًا بعد أن يحصل على طلبه كالأطفال.. زاره طاهر الباهي مرة واحدة طيلة العامين، كان نائمًا، فتح باب غرفته ودخل، وجد عشرات من أعقاب السجائر منتشرة في الغرفة، بشكل يدعو للقرف، حاول إيقاظه فلم يستجب في البداية، ثم استيقظ أخيرًا. قال طاهر في شفقة: عادل، كيف حالك يا صاحبي؟

أجابه عادل والنوم ما زال يداعب جفونه: أنا بخير، من سمح لك بالدخول؟

ردّ طاهر شاعرًا أنه ينحصر في ركن ضيق خجلًا: أما كنت تنتظر زيارتي؟

- لا.

نهض طاهر في جزع واضطراب قائلًا: جئت للاطمئنان عليك، أما آن الأوان لتعود إلى عملك في أمريكا أو تبدأ من جديد هنا في مصر؟

ضحك عادل في عصبية ثم سأله ساخرًا: هل أقنعك ذاك الداعر بهذا؟

قالها وأشار بيده ناحية باب الغرفة في إشارة إلى داوود. حدجه طاهر بنظرة استنكار وقال في ضيق: عيب عليك يا عادل، مهما كان فهو أبوك.

هتف عادل غاضبًا: هذا الخنزير دنّس كل ذكرياتي، ومصمم أن يعذب أمي يوميًا حتى وهي في قبرها، كانت زوجة مترعة القلب بالمحبة وحسن المعاشرة، لكنه خسيس.

نظر إليه طاهر نظرة طويلة لم يقطعها إلا صوت باب الغرفة يُفتح، ظهر داوود بهيئته التي تشبه نجوم السينما، خصوصًا مع ارتدائه الروب والكوفية الستان، وقال بابتسامة هادئة: هل أحضر لك قهوتك هنا يا طاهر قبل أن تبرد؟

نقل طاهر بصره بين الأب والابن ثم خرج من المكان دون أن ينبس ببنت شفة.. بعدها قام عادل من فراشه ناحية والده، فسحب داوود نفسه للخارج سريعًا وأغلق الباب في خوف.. أما طاهر فأخذ يجوب شوارع وسط البلد بلا هدف حتى وجد نفسه أمام مقهى «ريش» الشهير، تناول هناك كوبًا من الشاي مسترجعًا زيارته السريعة لآل الجندي، لم يستطِع تحديد سبب تصرّف عادل العدائي معه.. سأل نفسه، هل تعرُّض الإنسان للخذلان من شخص مقرّب يولّد مرضًا نفسيًا؟ سوء الظن الغريب من عادل وجداله العقيم يرجحان كفة ذلك بشكل كبير.

بعدها استقلّ سيارة أجرة حتى ميدان رمسيس لتبدأ رحلته إلى الإسكندرية حيث مقرّ عمله.. كانت تلك هي زيارته الأولى والأخيرة لمنزل داوود، لم يرَ عادل بعدها مرة أخرى.

لا ننكر أن داوود حاول التقرب من ولده أحيانًا، لكن هيهات، باءت محاولاته كلها بالفشل، خصوصًا أنه لم يحاول الإصلاح بشكل جذري. الأب عديم المبادئ لم يهتم يومًا بحالة ولده اهتمامًا حقيقيًا، فبعد فترة بسيطة من خروج عادل من المعتقل عاد داوود إلى سهرات الماضي وشرب الخمر وملاطفة العاهرات دون المستوى، ما إن يرخِ الليل سدوله ليلة الجمعة من كل أسبوع حتى ينتظر داوود نوم ولده ليبدأ رحلته لالتقاط إحدى بائعات الهوى.. رجل في نهاية الخمسينيات من عمره يجوب شوارع القاهرة سيئة السمعة -مثل الهرم وجامعة الدول العربية- بسيارته الـ«فولفو» الزرقاء منتظرًا عاهرات الطريق، هل تتخيلين هذا المشهد الرخيص يا رزقة؟ كانت دائمًا هناك شابة ما تتسكع في الشوارع بعد أن وضعت ماكياجًا فجًا واختارت ثيابًا لإظهار مفاتنها للعيان، كنّ يبالغن في سعر الليالي الحمراء بالطبع، لن يخسرن ما أنفقن على الثياب ومساحيق التجميل وكذا لذتهن الجنسية مع هذا الشيخ ثم يتقاضين مبلغًا تافهًا في النهاية، هذا ظلم.. بعد نشوة الخمر وتبادل القُبل والتفاف الساق بالساق، تحاول العاهرة بشتى الطرق أن تصل به إلى ذروة لذته ليقذف مبكرًا وتحصل هي على المال.. لكن الأمور لا تسير هكذا طوال الوقت.

عرف عادل مدى قذارة والده عندما لمح إحداهن ذات مرة، يومها وقف أمام باب الشقة ممسكًا بعصا المقشة الخشبية، منتظرًا شجّ رأسها نصفين كأحد جنود الفايكنج في أوروبا، فاضطر داوود إلى تهريبها من سلّم الخدم، هل تعرفين الفايكنج يا رزقة؟

قالت في دهشة وقد زاغ بصرها غير مستجيبة لمزاحه: لا أعرفهم، لكنني تذكرت شيئًا عن الفولفو الزرقاء،

هل تريد سماع حكايتي معها؟

***

{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (سورة النساء: 93)

***

القاهرة، وسط البلد، يناير 1989...

وقف عادل أمام نافذة حجرته منتظرًا توقف الأمطار، حجرته كانت تطلّ على ميدان محمد فريد مباشرة، ركز بصره على التمثال وبدأت ذكريات طفولته المشوهة في مهاجمته.. كان بداخله شعور سخيف غير مفهوم بسبب عدم قدرته على تخطيها، الغريب أن طاقة الحب بداخله كانت تكفي العالم كله، تكفي إخوته وقريته وكل أجناس الولايات المتحدة الأمريكية، بل تكفي ضباط المخابرات والمعتقلين، لكنها تنضب مرة واحدة أمام داوود الجندي. الأمر يشبه تعاملك مع زوج طليقتك، الرجل لا يخطئ في حقك، لكنك لا تنسى أبدًا أن زوجتك القديمة تضاجع هذا الرجل بجنون الآن.

لم يجد عادل أي ذكريات مفرحة داخل مستودع ذكرياته، لم يجد ذكريات من الأساس سوى ذكرى كسر عنق أمه، كأن طفولته قطعة من جهنم، إبليس نفسه كانت طفولته مبهجة عنه.. تذكّر أيضًا هجومه على طاهر دون مبرر، عام مرّ دون سؤال منه، أحس بمدى سخافته وغبائه وقتها وتمنى نسيان الأمر سريعًا، تمنى كذلك احتضان أبيه مثل آخر وداع بينهما في أمريكا، كان قد وصل إلى درجة مقبولة من التسامح، لكن الأمور عادت أسوأ من ذي قبل. تقول الأسطورة: «إذا لم نكن ننسى الألم لما أنجبت النساء مرتين إطلاقًا». كان متأكدًا من أنه سينسى مرة ثانية، بشرط أن يبتعد والده عن كل هذا ويصبح غير قادر على صبغ شعره ومداعبة الخادمات ومحاولة استرضائهن.

شرد ببصره ناحية الميدان متأثرًا بكل ما يراه، وجد أمًا تهرع مع ابنها ليختبئا من الأمطار، قطة تبحث في صندوق قمامة عن طعام يجعلها تكمل حياتها البائسة، رجل جالس وحيدًا بالمقهى يفكر في الموت غالبًا، حتى تمثال محمد فريد رأى به رمزًا لتعاسة صاحبه، فبعد أن استمرّ المناضل العظيم في الدعوة إلى الجلاء غادر البلاد إلى أوروبا خوفًا من السجن حتى مات هناك وحيدًا فقيرًا.. شعر أن الميدان وجهٌ ينظر إليه، اللافتتان المضيئتان على مرمى بصره كانتا عينيه، والرصيف المتآكل بلونيه الأبيض والأسود كانت أسنانه النخرة التي تبرز مع ضحكته الساخرة.

أغلق النافذة بسرعة وظل ثابتًا مكانه حتى سمع صوتًا خافتًا قادمًا من الصالة، ظن أنها صوت أنفاسه اللاهثة في البداية كأن الميدان يطارده.. همّ بالخروج من الغرفة، فجأة تذكّر طاهر الباهي للمرة الثانية، لم تكن ديجافو هذه المرة بالتأكيد، اعتقد أنها إشارة من السماء وصمّم أن يعتذر لطاهر، بعد دقائق من التفكير اتخذ قراره بالسفر إلى كوم النور.

فتح باب الحجرة ليجد والده يودّع ساقطة لازمته في الفترة الأخيرة كثيرًا. يبدو أنه استفزّ عاطفيًا على واحدة فقط تغاضت عن شيخوخة أعضائه.. لم يكترث لما شاهده وقال بشكل آلي: أنا مسافر إلى كوم النور.

قالها في ضجر، فلاح تساؤلٌ في عيني داوود وقال: لماذا؟ الوقت متأخر والجوّ ممطر بالخارج.

قطب عادل غاضبًا وقال بتهذج: أريد المبيت عند صديقي طاهر، تلك الساقطة ليست أكثر تحمّلًا مني للتقلّبات الجوية.

هتف داوود في نفاد صبر: الساقطة تسكن هنا في الجوار، لكن سفرك الآن مخاطرة ضخمة، في الغالب لن تجد سيارات أجرة أصلًا.

صمت عادل وازداد وجهه عبوسًا ثم قال بعد ثوانٍ: هلا أوسعت لي الطريق؟

قال داوود بلهجة المتصبر: عادل، يا بني، لا تعاملني كأنني عدوك، كل يوم أنتظر عودتك إلى سابق عهدك كي نبدأ حياتنا من جديد مع إخوتك في أمريكا.. أعرف أنك مررت بتجربة سيئة لكنها ليست آخر الدنيا، أرجوك امنح نفسك وامنحني فرصة أخيرة.. أرجوك.

تناول عادل تفاحة من طبق الفاكهة على منضدة الطعام في حركة سينمائية وبدأ في قضمها ونظر إلى والده طويلًا في اشمئزاز ثم قال أخيرًا: التجربة السيئة هي ميلادي من أب مثلك، ثم كيف أمنح قاتل أمي فرصة للصفح؟

رد داوود في عصبية: لم أقتلها، لقد كان شجارًا عنيفًا بعض الشيء ولم...

قاطعه عادل بصوت ينمّ عن الانتصار: بل قتلتها، حتى هروبك لأمريكا يقول إنك قتلتها... دعني وشأني.

ختم جملته واتجه صوب باب الشقة وفي عينيه إصرار عجيب، فابتعد داوود عن طريقه قائلًا في اضطراب: كما تشاء لك حماقتك، لكن تذكّر يا عادل، إن خرجت من هنا لا أنت ابني ولا أنا أبوك، ولن يعود لك أخ أو أخت بعد الآن.

قالها ثم أشار بيده ناحية الباب وأكمل في حزن: اذهب مصحوبًا بغضبي، وستعلّمك الأيام حقيقة جنونك.

أكمل عادل طريقه وهَمّ بفتح الباب فسمع داوود يتمتم بصوت المتألم: ما أخيب أملي في ابني.. ابني صار مجنونًا رسميًا.

هنا اشتعل الموقف.. التفت عادل إليه وكان جوابه أن انقضّ عليه كالثور الهائج وقبض على منكبه بقبضة كالمعصرة ودفعه أمامه، تقهقر داوود حتى اصطدم بأحد مقاعد السفرة فتعثر وصار متكورًا على الأرض يتأوه من الألم.. هنا توقف عادل وقال بصوت منخفض وقد أنذرت أساريره المنقبضة بالشرّ: لا تنعتني بالجنون مرة أخرى وإلا قطعت لسانك.

خفق قلب داوود بشدة وشعر بالغيظ من أثر الإهانة، لكن حدثته نفسه أن يبرّد لهجته مع عادل كي لا يشتعل الموقف أكثر.. حاول الوقوف وندت عنه آهة كاذبة، وأمسك عادل من ذراعه في رفق ثم قال في نبرة المعتذر: لا تظلمني وتظلم نفسك، يجب أن نخرج من تلك الهوّة السحيقة التي سقطنا فيها ونكمل حياتنا بشكل طبيعي، لقد تعلمتُ الدرس جيدًا، ليس من المهمّ إن كنت قتلت أمّك أم لا، المهم أننا نعيش معًا الآن.

سكت هنيهة ثم عضّ شفتيه قائلًا: عادل، أنا حزين لأني عاجز عن تخفيف ألمك. هل تعلم أنني أصلّي؟

قالها ونظر إلى عيني عادل ليرى تأثير المعلومة عليه، لكن عادل لم يبدُ أيّ اهتمام بها، فصاح داوود: نعم أصلّي، أصلّي وأدعو لك بالهداية من الله كل يوم لكنك لا تراني، لا أتوسل في رعب بغية النجاة ولكن للظفر بضمّة يدك في معاناتي، أنا أحبّك يا عادل.

واغرورقت عيناه وارتفع صوته بالنحيب وقال: الموت هو ما أستحقه من جزاء، فاغفر لي.

بدا عادل كأنما يقاوم ضغطًا شديدًا، لكنه سيطر على انفعالاته وأشاح ببصره الناحية الأخرى، فتملك اليأس من داوود بعد فشل خطته وأفلت ذراع ولده في إحباط.. تركه عادل وفتح الباب وتخطى عتبته قائلًا لوالده في تهكم: ستموت وحيدًا لا يتبعك سوى قبيح عملك.

هنا بلغ داوود من الغضب درجة لم يعُد يدرك معها خطرًا، كان كمجنون يهاجم مارِدًا من الجنّ، اكفهرّ وجهه حتى حاكى لون الليل البهيم ثم صاح بعدما ضرب ضلفة الباب بقدمه: أنت تبغضني، لم أكن أعلم هذا، ولكنك تبغضني دون شك، لعل أمك المعتوهة هي التي بغّضتني إليك. كم كانت بلهاء مثيرة للشفقة، لم تعرف كيف تسعد زوجها يومًا، هل تعلم أيها العبيط؟ الموت بعد ساعة من معاشرة «سومة» العاهرة لهو أهوَن عندي من

العيش ألف عام بجوار أمك، يا مجنون.

التفت إليه عادل في حركة سريعة داخلًا الشقة من جديد، واستلّ سكّين الفاكهة، حاول داوود الهرب بآخر طاقة متبقية له في جسده، فعاجله عادل بطعنة من الظهر، ثم أخرج السكين وطعنه مرة ثانية في جنبه، تفجّرت الدماء من جسد داوود وهو لا يزال أسيرًا للصدمة، وأخذ يترنح متخبطًا بين أثاث الشقة. أنهى عادل عليه بعدّة طعنات أخرى وصلت أخراهم إلى القلب فشهق ثم انهار أرضًا على وجهه كالحجر.

ظل عادل متجمّدًا يشاهد الجسد الملقى على الأرض غارقًا في دمائه وقد انتابته حالة غريبة. صراحةً سيكولوجيا القتل يصعب فهمها أو فهم ما يدور في ذهن القاتل لأن ذلك سرّ لا يفشيه أبدًا، غالبًا مشاعره كانت مزيجًا من النشوة والنصر والذهول من وجود تلك الطاقة العنيفة بداخله. حدّق لثوانٍ في جثة داوود وهو ملقى على وجهه وخدّه الأيسر ملاصق للبلاط وعينه اليمنى ثابتة في محجرها، ثم أغلق باب الشقة في هدوء وعاد إلى غرفته.

متى يقتل الإنسان؟ يقتل الإنسان عندما يُسقِط عن خصمه صفة الإنسانية، لهذا لا فرق بين قاتل محترف قتل العشرات وبين قابيل الذي قتل أخاه بسبب غروره، كلاهما أسقط صفة الإنسانية عن الضحية، من هنا استخدم هتلر لفظ الإنسان الأدنى لوصف اليهود.. عادل أيضًا أسقط صفة الإنسانية عن داوود، اعتبر أن الموت بداية جديدة له، وهو السبيل الوحيدة لتطهيره ومِن ثَمّ سموّ رُوحه بعد نَيل العقاب، هكذا قُتل داوود الجندي، وهكذا قَتَل إمباركة أيضًا.

***

سماح كانت تتطوّر بشكل خرافي، صارت تلعب بالمال لعبًا بعد توسيع دائرة نشاطها، خطت أولى خطواتها بالعاصمة عندما تعرّف عليها تاجر قاهريّ متزوّج سرًا في المنصورة، عرض عليها 500 جنيه (وهو مبلغ ضخم وقتها) للمبيت في شقته بالقاهرة، لم تستطع مقاومة المبلغ وباتت ليلتين هناك.. تلك المرة لم يحرر شفيق الدمزاني محضرًا بغيابها، الأمر لم يعُد مرعبًا لتلك الدرجة، كما أن زجاجة العطر الفاخرة والحذاء الشمواه باهظ الثمن أنسياه تلك الأمور التافهة.. بعد فترة، صار يغيب عن العمل بالأيام غير مهتمّ بالجزاء، شفيق لم يعُد بحاجة لإذلال نفسه مقابل بضعة جنيهات، أصبح الراتب الشهري والرشى هي آخر ما يفكر فيه الرجل بعد أن أصبحت سماح امرأة عاملة تساعد أسرتها.. ومثلما هناك ديوث، هناك أيضًا قندوعة (التي لا تغار على أهل بيتها)، والدة سماح أصبحت قندوعة عن اقتناع، ساعدت ابنتها الكبرى كثيرًا لتصل إلى قمّة هرم البغاء، فاهتمت بملابسها ونظافتها الشخصية وتنظيم مواعيد العمل، الأمّ التي تتخلى عن ابنتها وقت «الزنقة» يجب أن يُسحَب منها لقب «أمّ» فورًا، هكذا صارت حرم شفيق الدمراني أمًا مثالية.. أما الشقيقة الصغرى أمل فحياتها كانت مرهِقة لكنها مستقرّة، وكذلك الولد أيضًا، لم يعُد يحتك بزملاء الدراسة الذين يعايرونه، صار يحتك بشباب أكبر سنًا منه فوق أسطح المنازل.

الجميع كان سعيدًا باستثناء الشقيقة الوسطى، الوحيدة التي كانت حائرة طَوال الوقت، حيرتها كانت بسبب التناقض الذي تعيش فيه، أفراد أسرتها تشجعها ضمنيًا على احتراف مهنة الدعارة بسبب جمالها الملحوظ من ناحية، وأمل تثنيها عن البدء في هذا الطريق من ناحية أخرى، حذرتها مرارًا وتكرارًا في أي مناسبة تجمعهما، هكذا عاشت الأخت الصغرى عامًا كاملًا وهي تزن الكفتين بعقلها، السلوك المستقيم والمبادئ أمام أحقر المخازي وأدنى درجات الانحطاط. في النهاية اتخذت قرارها لتحذو حذو باقي الأسرة؛ سماح مستقرة وغنية، أما أمل فمستقرة وفقيرة، ناهيك بالهدايا ومعاكسات شباب المدينة الذين يحاولون استمالتها انبهارًا بجمالها، المعادلة لم تكن بحاجة إلى كل هذا الوقت.. «سأختار الأولى يا رب وأتمنى أن تبارك لي طريقي»، هكذا خاطبت نفسها.

بعد استقرارها نفسيًا بدأت في تشجيع أختها الكبرى على الاستقلال، قالت لها: ما رأيك بالسفر إلى القاهرة والاستقرار هناك؟

- لا أعرف أحدًا هناك سوى ذاك التاجر الذي حكيت لك عنه.

قالتها سماح مبتسمة كمن يسترجع ذكرى فارقة في حياته.

- نستأجر شقة ويكون هو بداية العمل هناك، إن بقينا هنا لن نفلح أبدًا.

سألتها سماح في اهتمام: وهل سيوافق أبوك بهذا؟

ضحكت شقيقتها في سخرية قائلة: ما بك يا سماح؟ سنخصص له راتبًا شهريًا، ثم ما الذي سيضير شفيق (قالتها هكذا دون ألقاب) في استقرارنا هناك؟

ثم أكملت سؤالها بآخر استنكاري: العرسان المتهافتة لن ترانا مثلًا؟

قالتها وقهقهت بصوت عالٍ ثم أخذت تدندن وهي تهز رأسها في دلال: اوعيلو يا بت اوعيلو.. ده الظابط يبقى عديلُه.. اوعالها يا واد أوعالها.. ده العمدة يبقى خالها.

أما سماح فابتسمت في ميوعة قائلة: اهدئي يا بنت اللئيمة.

في أثناء ضحكهما دخل شفيق غرفتهما قائلًا في وداعة: صوتكما عالٍ.

وقفت سماح في منتصف الغرفة كأنها ستلقي خطابًا وقالت في عبث: حاج شفيق، اسمح لنا بالسفر للقاهرة أنا وهذه الساقطة، ما رأيك؟

قالتها ووضعت يدها على وسطها محركة إياه في تحدٍ.

- ما نيّتك بالضبط يا سماح؟

قالها شفيق في عصبية لمداراة خنوعه، فقالت سماح في بساطة: اجلس يا حاج، اسمع مني أولًا ثم قرر بعد ذلك.

بعد مناقشة لم تذم طويلًا قال شفيق في استضعاف: أختك أمانة في رقبتك يا سماح، القاهرة ليست كالمنصورة، أخاف عليكما من حثالة البشر هناك.

ابتسمت سماح في انتصار ونظرت إلى أختها نظرة ذات مغزى وهي تلوك العلكة ثم قالت: لا تخف يا شفيق.

هكذا استأجرت الأختان شقة بوسط البلد وبدأت سومة (سماح سابقًا) نشاطها، في الأشهر الأولى لها، درست مناخ العمل بالقاهرة، وبعد أن سلّمت جسدها من يد إلى يد ومن كل الأصناف -التاجر، الصائغ، الشاب، الكهل، الأعزب، المتزوج... إلخ- زجّت بأختها داخل شبكات المحروسة. نقل الخبرات هو ما يخلق الترابط بين الأشقاء بالتأكيد. تعرفت في تلك الفترة على داوود الجندي، عجوز متصابٍ يبحث عن تجديد دمائه كثيرًا، مارسا الجنس عدة مرات في شقته بميدان محمد فريد، ثم بدأ الرجل يتعلق بها، ربما كان الأصل الريفي المشترك هو ما جعله يرتاح إليها. الكلام صار يأخذ حيزًا كبيرًا من وقت اللقاء رغم فارق السنّ بينهما، ارتاحت سومة كذلك للرجل لرقي تعامله وسخاء جيبه، لا داعي للخوض في الممارسات الجنسية لأن سماح استفاضت في التهكّم عليها مع شقيقتها وكذا المباهاة بسيطرتها على عقل الرجل.. قالت سماح: الرجل الذي خرجتُ معه في الفولفو الزرقاء، هل تذكرينه؟ إنه يحبني ويريد الزواج بي.

ثم مصمصت شفتيها وتابعت في مزاح: في الشكل يشبه رشدي أباظة، أما في الفعل فشفيق الدمراني أرجل منه.

- ولمَ لا؟ تزوجيه ثم عيشي حياتك بعد ذلك.

قالتها شقيقتها في مكر.

- الله الغني يا أختي.

لا ننكر أن الفكرة الخبيثة راودتها قبل النوم لدقائق، الرجل كبير السنّ ويعيش مع ابنه فقط في شقته التمليك، هي لم ترَ ابنه مطلقًا، لكنها استنتجت من حديث داوود أنه يعاني من مرض عقلي، فلِمَ لا؟ تبخرت تلك الأفكار سريعًا قبل نموّها.

في صباح أحد الأيام المشؤومة، بعد أن وصلت إلى شقة داوود في الليلة السابقة، بدأت الأمطار في الهطول بشكل مخيف فتعكّر المزاج وصار اللقاء الحميمي مستحيلًا نظرًا لتوتر الأعصاب، زادت عصبية داوود مع صوت الرعد وضوء البرق، هتف في ضيق: الجوّ لا يشجّع على أي شيء، ما رأيك في الصباح الباكر؟

لوّث فمها بضيق وقالت بامتعاض: طيّب.

قال في صرامة بعض الشيء: سومة، أنا لا أطلبك لتحضري من أمريكا، أنت تسكنين هنا بالجوار، أعطيك ضعف ما تأخذينه من باقي الزبائن، أليس كذلك؟

ابتسمَتْ بسرعة وهي تنظر إليه في عتاب لطيف: أضحك معك يا رجل، ما لك؟

أخرج مفتاح الشقة من جيب الروب وناولها إياه قائلًا: السابعة صباحًا قبل أن يستيقظ عادل، لا أريد مشكلات، إياكِ أن تتأخري.

قالت في دلال: لا تقلق، أنا معتادة على المواعيد الصباحية.

في أثناء خروجها لمحت بطرف عينها عادل خارجًا من حجرته فأسرعت خُطاها حتى أغلق داوود باب الشقة مِن خلفها.

في الصباح حاولت فتح الباب بهدوء، فلم يفتح بشكل يسمح بمرورها منه، لاحظت وجود عائق ما خلفه، ضغطت قليلًا فبدأ الباب بالاستجابة، نظرَتْ إلى أسفل فوجدت داوود الجندي أمامها جثة متكومة أرضًا، شهقت ووضعت يدها على فمها بسرعة لمنع صوتها من الخروج.. وجدت نفسها غارقة في دماء الرجل المتجلطة، فجزعت من هول المنظر حتى إنها كادت تسقط أرضًا وهي تحاول الهرب بسرعة دون أن تغلق الباب.. وصلت إلى شقّتها وحمدت الله أن أختها كانت بالخارج، ظلّت تبكي في رعب ولوعة كما لو كان أحد أقاربها وهي تردد: ليتني ما جئت إلى هنا.

***

لم يحضر أحد جنازة داوود الجندي من أسرته سوى ابنه مراد، الابن الأكبر رفض حضور إخوته الجنازة منعًا للقيل والقال وتجنبًا لأي مواجهة مباشرة مع عادل.. منظر الجنازة البائسة كان محزنًا للعين ربما أكثر من وقع خبر القتل على الأذن. الجامع الكبير (هكذا يطلقون عليه في كوم النور) خلا تقريبًا من المصلّين إلا من بعض كبار السنّ، بعض أقارب إمباركة حضروا بشكل رسمي لقضاء الواجب لا أكثر، لم يتعرف مراد على أغلبهم في البداية.

- أين إخوتك يا مراد؟

سأله أحد أخواله في سخرية.

- الأمر ليس سهلًا عليهم، سيزورون قبره بعد أن يهدأ الوضع.

لم تعجب خاله الإجابة فانصرف من أمامه سريعًا كي لا يلاحقه بالأسئلة.

دُفن داوود في هدوء تام، أما المأتم فلم يكن سوى جهاز تسجيل لأحد قراء القرآن الكريم وبعض المقاعد الخشبية أسفل سرادق متواضع... بعد ساعات انتهى كل شيء.. كان الأمر أشبه بالكابوس بالنسبة إلى مراد، خفف عنه مقابلة طاهر الباهي، تذكّر شكله الذي اختلف قليلًا عن الطفولة، بعد السلام والعناق عرض عليه

طاهر مرافقته حتى ميت غمر فوافق، لم يكن قد رآه منذ سنوات طويلة لكنه يعرف مدى قوة غلاقته بعادل. دار بينهما الحوار التالي في أثناء الطريق:

قال مراد في ذهول: هل تصدق أنّ عادل يقتل يا طاهر؟ أنت أقرب الناس إليه في الفترة الأخيرة. أخبرني، ماذا حدث؟

أجابه طاهر في حزن: عادل بعد قصة خطاب إيران تحديدًا لم يعد في كامل قواه العقلية، لقد تشاجر معي قبل هذه الكارثة بشهور قليلة بسبب دفاعي عن والدك.

تذكّر مراد والده فبدأت الدموع تتجمع في عينيه حتى حجبت عنه الرؤية فآثر طاهر عدم الخوض في نزوات داوود الجندي وحاول تغيير الحوار قائلًا في جدية: ما الذي تنوي فعله مع عادل الفترة القادمة؟ هل ستتركه هكذا؟

قال مراد وقد تملّكه الحزن: هناك شرخ داخل زوجي يا طاهر، أخي الأصغر قتل أبي دون سبب، أرغب في مساعدته بشدة لكن هناك غصة في صدري تمنعني.

- وحّد الله يا مراد، عادل يحتاج إليك لأنه مريض، منهم لله مَن كانوا سببًا في ذلك.

حدّدا لقاءً في اليوم التالي للاتفاق على تفاصيل بيع شقة ميت غمر والسيارة وترك شقة القاهرة لحين استقرار الأمور بالنسبة إلى عادل، كان مراد يحتاج إلى طاهر الباهي ويثق به لإنهاء هذه الإجراءات نظرًا لعدم إلمامه بأسعار البيع وضيق الوقت.

بعد البيع توجّه مراد إلى القاهرة لتوكيل محامٍ شهير في القاهرة لمتابعة القضية، بعدها طلب زيارة أخيه لأول مرة بقسم شرطة عابدين داخل حجزه الانفرادي.. كان عادل جالسًا على الأرض معطيًا ظهره للباب واضعًا وجهه بين ركبتيه.

-عادل.

قالها مراد هامسًا وهو يتقدم بخطوات حذرة في اضطراب ناحية أخيه. لم يسمع ردًا، فاقترب أكثر حتى وقف خلفه مباشرة. تسللت دمعة من عينيه وسقطت على رأس عادل، فخرج صوته عميقًا نفذ إلى أعماق قلب مراد وهو يقول: لمَ البكاء يا أخي؟

حملق مراد في رأس أخيه كأنما يحاول قراءة ما بداخلها وتخلّت عنه قوى الكلام والحركة وحتى التفكير.. بقي ساكنًا كالجماد لا يستطيع حراكًا خمس دقائق كاملة حتى أيقظه صوت خبط على باب الحجز من أحد الحراس لاستعجاله، فقال في أسى: لم يكن أبونا ظالمًا لتقتله هكذا يا أخي. أنت تقتل؟! هذا هو الجنون بعينه!

قالها وانحدرت الدموع تباعًا من مقلتيه دون تحكّم منه، وبدأ في التقهقر إلى الخلف حتى جلس أرضًا وسند ظهره إلى الجدار مثل أخيه ثم بدأ الكلام وهو يمسح دموعه: المهم الآن أن تخرج من هنا.

وسكت هنيهة ثم استطرد قائلًا: لقد وكلت لك أكبر محامٍ في البلد، قال إنّ موقفك صعب جدًا بعد اعترافك ووجود الجثة بالإضافة إلى البصمات. الحل الأمثل الآن هو...

سكت عدة ثوانٍ هذه المرة ثم أضاف بسرعة كمن يتخلص من حمل ثقيل: الطعن في قواك العقلية.

قالها ثم قام من جلسته ليستدعي فرد الحراسة حتى فتح له الباب، وقال في هدوء بعد أن سحب نفسًا عميقًا ثم زفره ببطء: نصيحتي لك يا عادل أن تساعد المحامي في كل ما سيطلبه منك، هل تفهمني يا أخي؟ كل ما سيطلبه منك.

كرر نصيحته هذه المرة محذرًا حتى قاطعه عادل قائلًا بصوت مسموع: داوود قتل إمبراكة يا مراد، قتلها وأنت تعرف ذلك، لو لم يكن داوود هو قاتلها ما كنت لتزورني الآن وتشكرني بينك وبين نفسك.

لم يلتفت إليه مراد وخرج من المكان مسرعًا وهو يزيح فرد الحراسة من طريقه في عصبية.

بعد خروجه أجرى مكالمة هاتفية لمنزل طاهر الباهي وطلب مقابلته في القاهرة، اتفقا على أن يعود مراد إلى الولايات المتحدة ويتولى طاهر متابعة المحامي وإفادته (مراد وليس المحامي) عن تطوّرات القضية أولًا بأول.

- أنا معتمد عليك يا طاهر، القضية ستحتاج إلى شهور للفصل فيها، وأمريكا لن تصبر علي، أنا آسف.

- عيب يا دكتور مراد، أنت أخي مثل عادل تمامًا.

***

كانت قضية عادل الجندي من أسهل قضايا وحدة البحث في قسم عابدين، عندما اتصل أحد الجيران بالشرطة وانتقلوا إلى شقة داوود على الفور وجدوا عادل جالسًا على مقعد داخل بلكونة، وباب الشقة مفتوح، كان يدخن سيجارة شاردًا ببصره غير مبالٍ، سأله الضابط عما حدث وهو يلقي القبض عليه فقال في حدّة كأن السؤال إهانة له: داوود هناك في أول الشقة، خذوه واتركوني.

لم يستوعب الضابط هذا الرد، لكنه جذب عادل برفق خارجًا حتى وصل به إلى القسم وبدأت التحقيقات.

- هل قتلته؟

- نعم.

- لماذا؟

- كان يكرهني.

- كيف قتلته؟

- بسكّين الفاكهة.

- هل ساعدك أحد على قتله؟

- لا.

- لماذا تركت الباب مفتوحًا؟

- لا أذكر.

- أين أشقاؤك؟

- في أمريكا.

- هل تريد الاتصال بأحدهم لمساعدتك؟

- لا.

حصل رجال الشرطة على بيانات داوود من مالك المنزل، وعندما بحثوا في أغراضه وجدوا مفكرة ضخمة بها رقم هاتف منزله في أمريكا.

عاد مراد كما قلنا ووكّل المحامي وأشرف طاهر الباهي على ذلك.. البراءة كانت مستحيلة تقريبًا، المخرج القانوني الوحيد للقضية -كما قال المحامي- كان التشكيك في القوى العقلية لعادل، وهو أمر موجود بالفعل لكنه كان يحتاج إلى القليل من التوفيق لإصابته. في البداية قدّم محامي الدفاع إحدى الروشتات الطبية المزورة التي تفيد بأن عادل يتناول أدوية علاج نفسي، على إثر ذلك تقدمت النيابة العامة بخطاب لمكتب النائب العام كي يصدر قراره بإيداع عادل للفحص، بعد إصدار القرار ترسل النيابة القرار إلى مستشفى

العباسية للصحة النفسية لبيان أهليته من عدمها.

نُقِل عادل إلى المستشفى لفحص حالته من قِبل لجنة لمدة أسبوع (قد يُسمح بمد الفترة حتى 45 يومًا) ويطلق عليها اسم اللجنة الثلاثية، في تلك الفترة خضع عادل للمراقبة المشددة والفحص الدقيق على مدار 24 ساعة من خلال التمريض والباحثين الاجتماعيين والأطباء النفسيين، وغرِض على اللجنة عدة مرات واطلعوا على ملف القضية لمعرفة تفاصيلها، وذلك لإصدار تقرير مؤكد بخصوص حالته النفسية (اللجنة الثلاثية عبارة عن استشاريين من وزارة الصحة وأستاذ جامعي مشهود لهم بالكفاءة والنزاهة).. زار المحامي في أثناء هذه الفترة عادل عدة مرات للسؤال عنه، كان يجلس أغلب الوقت متخشبًا لا يرغب في التحاور مع أحد، أحيانًا كان يتكلم بصوت عالٍ مع نفسه أو يُحزك يده كأنه يخاطب شخصًا ما.. بعد انتهاء المدة، كتبت اللجنة الثلاثية تقريرها النهائي بشأن عادل، والذي أفاد بأن عادل داوود الجندي يعاني من مرض الفصام البارانوي (تبدأ أعراض هذا المرض بقوة في الغالب بعد الثلاثين، وتقلّ نسبة التدهور الاجتماعي فيه، ويتميز بالضلالات والهلاوس دون أثر للاضطرابات الأخرى للفصام، بل أحيانًا تكون الشخصية متكاملة مع بعض الاستبصار)، وأن المتهم مسؤول مسؤولية جزئية عن جريمة قتل والده، وعلى هذا أوصت اللجنة بإيداعه أحد المستشفيات النفسية للعلاج.

دافع المحامي قدر المستطاع ودافع ودافع حتى جفّ ريقه دون أدنى مساعدة من موكله، قال لنفسه: «هذه من أصعب القضايا التي مرت عليّ بسبب هذا الوغد الأخرس». في النهاية تم النطق بالحكم.

- حكمت المحكمة حضوريًا بالسجن تسع سنوات على المتهم عادل داوود الجندي، على أن يُودَع بسجن مستشفى الخانكة لمدة عام حتى يبرأ من مرض الفصام البارانوي كما ورد بتقرير اللجنة الثلاثية، على أن نوافى بتقرير عن حالته بشكل دوري لإيداعه أحد السجون العمومية في حالة شفائه أو تجديد حبسه بالمستشفى لمدة أخرى في حالة عدم اكتمال شفائه.

هكذا أُودِع عادل سجن مستشفى الخانكة.

سجن مستشفى الخانكة عبارة عن مبنى ضخم يطلق عليه «دائرة المودعين» أو «الدائرة» اختصارًا، وهو مبنى مؤمَن من وزارة الداخلية بأسوار عالية وعليه حراسة من الخارج كالسجون العمومية، يُعالَج السجين به لكن تحت رقابة مشددة خشية هروبه. الطعام كالخضار والخبز مثلًا يُطبَخ ويُجهز تحت إشراف المستشفى مع شركة أغذية، حتى أساليب الترفيه موجودة داخل قسم مخصص للألعاب الرياضية (كرة القدم، شطرنج، تنس طاولة)، الخلاصة أن دائرة المودعين هي في ظاهرها سجن لكنها مستشفى نفسي من الباطن.

في زيارة المحامي الأولى والأخيرة لعادل نصحه بعدم إثاره المشكلات لأنه -على حدّ قوله- دفع الكثير، المال هنا لم يكن مقابلًا للاهتمام لأن عادل كان مريضًا بالفعل، المال كان لتأمين مستقبله للبقاء في سجن المستشفى طيلة السنوات التسع. قام بالاتفاق مع أحد الأطباء على تقرير عادل السنوي القادم، بعدها سيتولى طاهر الباهي مهمة المال مقابل التقارير. أبلغه المحامي كذلك بتنازل باقي إخوته عن شقة وسط البلد له، عادل لم يهتم بقصة التقارير هذه ولم يفرح بامتلاك الشقة، بل حتى لم يسأل عن طاهر الباهي عندما جاء ذكره في الحديث.. خرج المحامي بعد المقابلة يحمل شعورين مختلفين، مطمئنًا لسوء حالة عادل النفسية وبالتالي نجاح قضيته، وشعور بالضيق من عدم اكتراث عادل أو الوغد الأخرس كما يطلق عليه.

عنابر المساجين في الدائرة لا تختلف كثيرًا عن الحالات المرضية العادية، يشوبها جوّ مليء بالترقب والخوف وأحيانًا العنف بسبب هياج بعض المساجين. لم يكن عادل من تلك الحالات الخطرة، كان أقرب للصمت طوال الوقت، يتناول الوجبات والأدوية بانتظام، أما استجابته للعلاج فكانت بطيئة للغاية، في عامه الأول كانت الهلاوس البصرية تأتيه دومًا في صورة أمه، بعدها صار إخوته يعاقبونه على ما فعل، أما الهلاوس السمعية فغالبًا ما كانت تأتيه بصوت عمّ ملاك، أحيانًا كان يحكي لأحد المساجين معه داخل العنبر حكاية آن، يحكيها بنفس انفعالاته الأخيرة وبنفس شغفه القديم.. أيام طويلة قضاها عادل مع المرض والسجن

والضلالات والهلاوس، بين القتلة المتسلسلين ومرضى البيرومانيا (هوس إشعال الحرائق) وعبدة الشيطان، عام ثانٍ وثالث جعلا عادل معتادًا على هذا الوضع ومرتضيه، لكن الرياح دائمًا تأتي بما لا تشتهي السفن، في العام الخامس له هناك دخل عليه أحد الأطباء وقال له في تحدٍ دون داع: لقد تحسنت حالتك يا عادل، سنقلك إلى سجن المنصورة العمومي.

***

الوضع صار غامضًا بالنسبة إلى سماح، كان لديها حالة من الملل المستمر، تحججت بالإرهاق بعد مقتل داوود الجندي، وعادت إلى أسرتها في السنبلاوين لتقيم هناك نحو شهر تقريبًا. كانت صامتة أغلب الوقت، وإن تكلّمت بدت شاردة، صارت تقرأ على غير العادة، أحيانًا الجرائد وأحيانًا كتبًا دينية، عادت إلى القاهرة ومواعدة الرجال في حماس ثم انتابتها حالة من تأنيب الضمير وإحساس بالغرق في الوحل، لدرجة أنها كانت ترسل كل مليم تكسبه إلى والدها دون الإبقاء على شيء سوى للطعام والشراب، أحيانًا كانت تغلب عليها الفطرة وتؤدي فرائضها بالتزام، وأحيانًا أخرى يموت قلبها وتبحث -كأي فاجرة- عن أرذل الأفعال لتؤديها.

- ما بك يا أختي؟

- لا أدري، جثة داوود الجندي تظهر لي من آن لآخر.

- لا تحمّلي نفسك فوق طاقتها، أنتِ أستاذتنا في التهوين وعدم حمل الهمّ.

لكن الأمور ازدادت تعقيدًا بعد فترة، هاجمتها الكوابيس، وعبثت الأفكار السوداء برأسها، صارت تتوهّم إصابتها بأمراض جنسية كالإيدز وتبكي بالساعات بعدها، صار عملها المشبوه محلّ تساؤل، لم تعد تهتمّ بمواعيد الزبائن أو حتى أختها التي تركتها في القاهرة.

زوزو -الشقيقة الوسطى- ظهرت في الصورة، إن وُجد لقب أفضل ناشئة في البغاء لحصلت عليه زوزو دون منافسة، بعد ما أصاب أختها صارت ترى نفسها بعين ثانية، عرفت من الزبائن أنها الأجمل، أنها الأكثر شقاوة، أنها كنز مدفون أسفل جدار آيل للسقوط يدعى سماح الدمراني. بعد عامين صارت زوزو هي الأكثر انتشارًا، ارتادت الكباريهات ليلًا والكافيهات نهارًا، كانت تقترب من نهاية عقدها الثالث فتزداد مع الأيام نضجًا وفتنة عن ذي قبل، جسمها البضّ وعيناها الجريئتان وخفة دمها أثقلوا رؤوس زبائنها بسؤال واحد حال انصرافها من المكان: أين كانت مختفية تلك الجوهرة؟

على النقيض تمامًا كانت سماح تزداد نحولًا يومًا بعد يوم، تركت القاهرة بشكل نهائي واستقرّ بها الحال في شقة السنبلاوين. في البداية حاول شفيق الدمراني إثناءها عن هذا الدلع -كما وصفه- لكنها أبت أن تعود إلى تلك الانحرافات التي تجعلها كالبهائم، على حد قولها. ذات ليلة تبادلا الإهانات، ضربها بعد أن اتهمته بأنه السبب في كل ما حدث ووصفته بأقذع السباب.

- النجاسة هي السبب الأول في بشاعة خلقتك.

- اخرسي يا قبيحة.

هذا الاشتباك فُضّ عن طريق زوزو بالطبع، وعدت والدها بزيادة المصروف فعاد إلى طبيعته الهادئة وقال في لين: الله يسامحك يا سمسمة، أقصد يا سماح.

شفيق لم يعد يتحرك للذود عن عرضه مهما حدث، ليس هذا فقط، بل صار يحترق إن تحزك عرضه للدفاع بدلًا منه، أصبح يتسم بطباع غريبة حتى الحيوانات تأباها، الجَمَل مثلًا -وهو صاحبنا ومصدر رزق لنا نحن العرب على مرّ التاريخ- من طبعه الغيرة الشديدة على ناقته، إذا رأى أنثاه مع جمل آخر فإنه يترك المكان ويهيم على وجهه في الصحراء دون رجعة كأنه يفرّ بكرامته وسمعته، أما الدياثة فلا يقبل بها سوى الخنازير والعياذ بالله.

المثير للاشمئزاز كان تدني المرحلة التي وصل إليها شفيق الدمراني، فالرجل -إن صح التعبير- لم يرتقِ إلى درجة القوّاد، إذ إنّ القوّاد هو من يدير عمل العاهرة من الألف إلى الياء سواء كانت من أهل بيته أم لا، أما شفيق فلم يقوَ على طلب الإدارة، لم يختَر لسماح زبائنها، لم يستطع طلب زيادة في المصروف الشهري، أغلب يومه كان موضع سخرية واستهزاء من المجتمع، رواد المقهى، الجيران، إن لم يكن بالألفاظ النابية المباشرة فبالتلميح، المكان الوحيد الذي تمتع شفيق ببعض السيادة فيه كان العمل، هل تذكرون واقعة شجاره مع المواطن وزوجته المنتقبة وتلفازهما الذي يشبه الترانزستور؟ كان يتلذذ بنشر الديائة أو جش نبضها داخل المترددين ظوّال الوقت، حاول مع ذلك المواطن لكن المحاولة باءت بالفشل، قام مدير القسم يومها بفضّ الشجار بين الرجل وشفيق، بعدها همس رئيس القسم في أذن الأخير قائلًا: أنا مسافر القاهرة الأسبوع القادم يا أستاذ شفيق، وصّ الآنسة زوزو علينا.

هكذا كانت تسير الأمور داخل محطة الكهرباء بالسنبلاوين في عهد رئيس القسم الداعر، وأصبح «أبو سماح» هو الآمر الناهي رغم تفاهة منصبه.

بعد نحو ستة أشهر فاحت رائحة الرشى والجنس، فعندما يشيع الظلم في مكان ينادي المظلوم ربه ويقول ربِّ إني مظلوم فانتصر. تبدّل الحال وأتى على رأس الشركة رجلٌ لا يقبل بهذا الانحلال وجعل أعزتها بالشرّ هم الأذلّ، لم يستطع إثبات أي تُهَم على شفيق في البداية لكنه تربّص بأيّ هفوة أو خطأ للإيقاع به، سنحت له الفرصة عندما طلب شفيق مبلغًا من أحد أقارب المدير الجديد. المضحك أنّ مبلغ الرشوة لم يتعدّ العشرين جنيهًا، بعدها تمت إحالة القضية إلى النيابة الإدارية ومنها إلى النيابة العامة، وفي النهاية حُكِم على الأستاذ شفيق الدمراني بالحبس لمدة ثلاث سنوات.

عاش شفيق داخل سجن المنصورة حياة كئيبة، لم يخفف عنه بها سوى زيارات زوجته وابنتهما سماح. ذات مرة جلس معهما وأخذ يأكل في شراهة ثم قال والطعام يتساقط من فمه في مشهد مقزز: كيف حال زوزو؟ لماذا لا تأتي لزيارتي؟

ردّت زوجته البومة: لم تأتِ لزيارتنا أيضًا منذ فترة، لكنها ترسل إلينا المال.

قال وهو يمسح فمه في رداء السجن: تبًا لها، أتخجل من أبيها؟ أقسم بالله لم آخذ مليمًا من أحد، ولكنه النصيب.. ما بك يا سماح؟

ردّت سماح في وهن: مرهقة قليلًا يا أبي، ادعُ الله أن يشفيني ويهديك.

نظر إليها شزرًا ولم يعلق.

ذات يوم قرأت سماح خبر اعتزال الفنانة مديحة كامل للفنّ، قرأت كذلك عن التزامها ومداومتها على الصلاة والتقرب إلى الله، نظرت إلى صورتها بالحجاب مليًا وحفظت شكلها جيدًا بذاكرتها، شعرت أن الخبر رسالة من الخالق لإعادتها إلى طريق الصواب والابتعاد -حتى بالتفكير- في حياتها السابقة. احتضنت الجريدة بين ذراعيها ونظرت إلى وجهها بالمرآة في خجل وهي تفكّر، كم من ضحكات ماجنة ملأت هذه الغرفة، كم من مكالمات هاتفية اشمأزت منها تلك الجدران، كم من تنهدات زادت من حرارة هذه الأجواء. قامت وتوضأت وصلّت ركعتي شكر لله عز وجل على نعمة التوبة، وأخذت تدعو لشقيقتها بالهداية حتى بَحّ صوتها.

بعد شهور قامت ذات ليلة من النوم شاعرة بارتفاع في درجة حرارتها، سحبت ورقة من أسفل الوسادة وقرأت دعاء التعاز من الليل وتناولت قرصًا خافضًا للحرارة ثم نامت في وضع الجنين الشهير قريرة العين برضا عن الله وقدره. لم تستيقظ في الصباح؛ لفظت أنفاسها الأخيرة في أثناء النوم دون سبب واضح.

ماتت سماح، ماتت دون أن تعرف هل ستدخل الجنة أم النار، لكنها تيقّنت أنها ستقابل ربها بنفس راضية.

***

أهمّ ضغط نفسي يواجهه السجين هو إماتة الشعور بالذاتية، الشعور بالذاتية أمر ملازم لك خارج السجن، الزيّ الموحد وطريقة المعيشة الموحدة داخل الزنازين وتناول نفس الطعام مع نفس الأشخاص في نفس المواعيد يفقدك هُويّتك الشخصية، التهذيب فيه هو حرمانك من الحرية والتعرض للبلطجة، أما الإصلاح فيعود إلى قوة إرادتك ومدى تقبلك لما حدث معك. لا ننكر بالطبع أن الوضع كان أفضل من المعتقلات عشرات المرات، لكن يظل السجن هو السجن.

سجن المنصورة العمومي لا يختلف عن أي سجن آخر، له قانونه الخاص الذي يخضع له الكبير قبل الصغير وإلا تحوّل إلى ساحة قتال طَوال الوقت. لن نتكلم عن الثوابت مثل طول الأيام، والأسوار العالية، والحرية المكبلة، ودموع القهر والندم.. شجارات السجن لها نهاية واحدة بالطبع وهي «السيطرة للأقوى». أحيانًا سيعطف عليك البعض، لكن هذه القلة ستتخلى عنك في لحظات إذا ما واجههم خطر ما، عملًا بمبدأ «أنا ومن بعدي الطوفان». كبير السجن يسمى «عمّ العموم» وينام أمام باب العنبر المسقى بالمرايا لأنه يكشف ما يحدث بالخارج، أما الوارد الجديد أو المستجدّون فينام كل منهم في مساحة بلاطتين فقط، الحرامي ينام بالقرب من دورة المياه ويعتبرونه مجرم درجة ثانية لأن جريمته لها مدلول الخسّة. العملة داخل السجن والمعروفة منذ قديم الأزل هي السجائر، يتداولها السجناء ويستخدمها الضعفاء منهم للدفاع عن آخر ما تبقّى من هيبتهم. العقاب داخل السجن هو الحبس الانفرادي، الطعام قليل، الشراب من جردل دورة المياه، النظافة تكاد تكون معدومة، الزيّ موحّد باللون الأزرق ومن الخلف رقمك بالأبيض. السبيل الأول لتهريب الممنوعات إلى المساجين هو الطعام، إذ يخفي أقارب السجين الممنوعات غالبًا داخل الأواني الخشبية، لكن أجهزة السجن دومًا ما تسقط مثل هذه الأعمال. أخيرًا أوقات الترفيه، كان ترفيهًا زاد من اغترابه داخل السجن، على سبيل المثال مشاهدة الأفلام مرة في الشهر تجعلك تتعلق بحياة الحرية وتتمناها تلقائيًا. أحد المشاهد التي جعلت عادل يرتجف كان مشهد قاتل متسلسل يقوم بذبح فتاة، فعلق أحد السجناء الجالس إلى جواره أنه لم يقُم بقتلها بالطريقة الصحيحة.. أعتقد أن الصورة باتت واضحة في ذهنك الآن.

نعود إلى عادل الذي وجد نفسه محاطًا بمجموعة من المجرمين الأصحاء. الرجال الأصحاء يعتبرون السجن معاناة صعبة، في المأكل والملبس والمأوى، فما بالك بالمريض؟ وأيّ مريض، إنه المريض النفسي تحديدًا.. في البداية ضربوه وسخروا منه ثم بالغوا في الضرب والسخرية حتى استشعروا أنه مجنون بالفعل، لا أحد يتحمّل هذا الكمّ من اللكمات والإهانات إلا لو كان مجنونًا أو من أبطال القوى الخارقة في الأفلام. عادل كان بالنسبة إليهم في البداية هو فقرة الترفيه اليومية، المرض النفسي كان بالنسبة إليهم هو الجنون المطلق، أن تسير رث الثياب، منكوش الشعر، يسيل اللعاب من بين شفتيك، والأهمّ من ذلك أنك ستكون حرًا طليقًا في الشوارع وليس بين جدران السجن، أما عادل فلم يكن كذلك، الصمت جعله مخيفًا، عدم اتخاذ ردّ فعل جعل الجميع متوجّسًا من أنه لا يبدو طبيعيًا مثلهم.

كانوا يقتربون منه مثل الحيوانات ويبدأ سيل من الحركات المستفزة أمامه والأسئلة البلهاء عن مرضه، ثم.. لا شيء. عادل لم يكن يحرك ساكنًا باستثناء حركة عينيه كأنه يرى مشهدًا ما لا يرونه، حتى جاء ذلك اليوم الذي ظهر منه ردّ فعل عنيف جدًا، أحد بلطجية السجن ركله بقدمه في أثناء مروره على سبيل العادة، هنا أمسك عادل قدمه ورفعها لأعلى فسقط على وجهه بشكل مضحك. لم ينتظر عادل حتى يقوم الرجل، بل انقضّ عليه من الخلف وأمسك رأسه ليحركها يمينًا ويسارًا في عنف، ثم صدم وجهه بالبلاط حتى سالت الدماء من أنفه وشفتيه، وظل منبطحًا على وجهه. عاد عادل إلى مكان نومه مرة أخرى ثم هتف بانفعال مرة واحدة: لماذا تكرهونني؟

حاول الرجل دامي الوجه الهجوم على عادل لاستعادة كرامته المبعثرة، فتجمّع عدد لا بأس به من كبار العنبر وحالوا بينه وبين عادل وبدؤوا في تهدئته.. كان لهذه الواقعة أثر عجيب على كلّ رجال العنبر، بدأ الكل يتحاشى عادل، ليس عن خوف، بل عن شفقة حقيقية هذه المرة، كان صراخه وسطهم هو ما جعلهم يتقبلون فكرة أنه شخص طبيعي يجب أن يُترك وشأنه.

بعد شهور تقابل عادل مع شفيق الدمراني وجهًا لوجه، سأل عنه الأخير وعرفه من اسمه، لا يمكن أن ينسى أبدًا صاحب الحادثة التي جعلت ابنته تتوب وتقطع عنه المال لفترة لم تكن بالهينة. نظر إليه شفيق في بُغض من بعيد، وتذكّر ساعات الحرّية القليلة التي قضاها خارج السجن لحضور جنازة سماح.

***

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}.

(سورة يوسف: 100)

***

قالت مرزوقة: بعد سجن والدي شفيق الدمراني ووفاة سماح، بحثتُ عن الله على استحياء.

سألها: وهل وجدتِه؟

أكملَت في سرعة دون الردّ على سؤاله: بعد انقضاء مدة حبس والدي، خرج مكسورًا، قابلته أمي وحدها أمام باب السجن وعادا إلى البيت صامتين.. كنت أرسل إليهما المال شهريًا، لكنّ فصل والدي من عمله جعله متوترًا أغلب الوقت. الغريب أنه لم يكن يفارق السُّقة قَطّ. أحيانًا كان يصلي، وأحيانًا يقرأ القرآن، وكثيرًا ما يكون نائمًا. استمرّ الحال هكذا شهورًا قليلة حتى هاتفني ذات ليلة وقال في هدوء: ما رأيك بالزواج يا رزقة؟

ضحكتُ كما لم أضحك من قبل وسألته في مرح: ما بك يا شفيق؟ عمومًا أنا مطلوبة للزواج، التاجر الذي كان معجبًا بأختي سماح عرض عليّ الزواج، أنا رفضت لكنه مصمّم. هل تعرف كم سيدفع مقابل موافقتي؟

-.لا يهمّ، وافقي يا رزقة، وافقي.

لكنني رفضت أن أعيش بهذا الشكل، رفضت أن أكون الزوجة الثالثة، اشترطت على ذاك التاجر تطليق زوجتيه أو الرفض، فقرر تطليق زوجته الثانية المقيمة بالمنصورة والابتعاد عن الأولى، رفضت، حاول إغرائي بالمال، رفضت أيضًا، قلت لنفسي وقتها: لن تظلّي جميلة طوال العمر يا زوزو، يجب أن تتزوّجي ممن يدقّ قلبك له أو على الأقل لا يشاركك به أحد.. للأسف جاء انتقامه سريعًا، بعد أيام، في أثناء خروجي لأحد الزبائن في كباريه بشارع الهرم ألقى أحدهم زجاجة ماء نار عليّ، كان مستقلًا دراجة نارية، أتى من خلفي ثم ألقى المادة الكاوية فأحرق رقبتي بالكامل. أسابيع طويلة تلقّيت فيها العلاج دون هوادة حتى وصل الوضع إلى هذه النتيجة كما ترى، بعد جراحات تجميل عديدة وعلاج نفسي طويل انتهى بي الحال إلى امرأة يخشى الكبار النظر إليها، ويبكي الأطفال بمجرد رؤيتها. لا تقلق، لم أغد حزينة كوقت الحادثة.. بعد ثلاث سنوات، صارت حياتنا جحيمًا، حرفيًا لم يكن هناك مصدر رزق تستطيع الاعتماد عليه، حتى وجد والدي فكرة للخروج من هذا المأزق، خطط لها وبدأ في التنفيذ على الفور.

هنا شعرَتْ رزقة أنها تكلمّت أكثر من اللازم، أو قالت ما لا يجب أن يقال، صمتت برهة ثم قالت في حدّة: مَن أنت يا رجل؟

سألها في مكر: هل تزوّجتِ عادل لتحصلي على شقته؟

صرخت في وجهه قائلة: مَن أنت؟ وما هديتك المزعومة تلك؟

- هديتي لكما ليست كلامًا.

قالها ثم أخرج من جيب بنطاله شيكًا يحمل توقيعه، ووضعه أمام عينيها قائلًا في جدّية: هذا شيك بمبلغ 100 ألف جنيه، تستطيعان شراء شقة جديدة به.

نظرَتْ إلى الشيك باستهانة وقالت في أسى: لا أريد هذا المال، أنت لا تفهم شيئًا.

وانفجرت في البكاء فجأة ثم قالت: أقسم لك أني لم أبع زوجي بالمال، لم أبع شيئًا بالمال سوى نفسي.

فهتف بدهشة: لم أطلب منك أن تبيعي أحدًا بالمال، أنا هنا لمساعدتك.

- قلت لك أنت لا تفهم شيئًا.

- إذًا أفهميني.

- تمام، لكن تذكر، أنا لا أريد هديتك ولا أخاف منك.

نظر إليها في تعجب ثم أعاد الشيك إلى جيبه وابتسم لها في ودّ، وبدأت تحكي كأنها تتخلص من وجع عميق تدريجيًا.

***

اللعنة على الفقر، الفقر هو باب الشيطان الأول للقلب، مرض خبيث يقتل كل نية جميلة داخل الإنسان، يفتك بك حتى يجعلك تنسى إنسانيتك. كرهت أبي بسبب الفقر، ومارست البغاء بسبب الفقر، واتبعت خطوات الشرّ بسبب الفقر.. وجدتني مسحوبة مع أبي وأمي وذلك الجلد المكرمش أسفل خدي إلى سجن المنصورة العمومي لزيارة عادل. أعتقد أنها كانت المرة الأولى التي يزوره بها أحد منذ دخل السجن، وكذلك الأخيرة.. كانت خطة أبي تعتمد على التقرّب من عادل واستمالته كي أتزوّجه. لم أعرف عنه سوى أنه ابن ناس جار عليه الزمن وأن والده مات في حادث سير، لم يقُل لي شفيق إنّ عادل قتل والده كي لا يخيفني منه، لم أستطع الربط بين ما حدث لشقيقتي سماح وبين زواجي بعادل، لكنني عرفت كل شيء منك الآن بعد ذكر قصة الفولفو الزرقاء.

عادل كان رجلًا بلا أهل أو أصدقاء يسألون عنه، أما أنا فكنت بلا مستقبل أو حتى رغبة في العيش.. مشوّه نفسيًا يمتلك مسكنًا مع مشوّهة جسديًا باقٍ لديها لسان، سيكمل كل منا الآخر وستصبح الحياة رائعة.. في الزيارة بقيتُ صامتة أنظر إليه، أمّا هو فلم يتكلّم معنا. حاول أبي تذكيره بنفسه دون فائدة.

- كنت زميلك هنا في السجن يا عادل بك.

-...

- هانت، ستخرج من السجن بعد أسبوعين. مَن سيكون في انتظارك؟

-...

- هل تريد شيئًا معينًا وقت خروجك مِن هنا؟ سأجهز لك زفة.

-...

- أين ستقيم بعد الإفراج عنك؟ ميت غمر أم القاهرة؟

أخيرًا نطق عادل، لم يتبين أحد منا ما قاله في البداية فكرر سؤاله بصوت أعلى: مَن أنتم؟

هنا هتف شفيق في أداء مسرحيّ: كفارة يا رجل، الحمد لله، الحمد لله. أنا يا سيدي أحد زملائك في السجن وجئت للاطمئنان عليك.

- هل تعرفني؟ لا أريد من أحد الاطمئنان علَيّ.

قال والدي في خبث: يا عادل، مَن يؤنس وحدتك، يحضر لك الطعام؟

ضحك ضحكة ذات مغزى ثم أكمل: أنت رجل ولك احتياجاتك بالتأكيد. لديّ العروس، اخرج أنت مَن هنا.

ابتسم عادل كأنه تذكّر شيئًا ما قبل مرضه.. شفيق لم يكفّ عن الديانة لحظة حتى وإن كان اتفاقًا على زواج شرعي، أظن أنك لاحظت ذلك.

يومَ الإفراج عنه ذهب إليه أبي منفردًا، وقام بشراء ملابس جديدة له، ثم أحضره إلينا وطلب منه الاستحمام والتعطر وأحضر مأذونًا، ثم... هوب، صرتِ زوجة عادل الجندي، وانتقلت للعيش هنا في وسط البلد بعد أن كسر أبي كالون الشقة وأعاد تركيب آخر جديد. في أول أيامنا بشقة الزوجية وجدتُ آثار دماء بالمدخل، وملابس وعطورًا بإحدى الغرف. أمّا عن نظرة الجيران لنا فحدّث ولا حرج.

لاحظتُ انهيار حالة عادل النفسية فور دخوله الشقة، بعد أن كانت طبيعية جدًا في الليلة التي قضاها معنا بالسنبلاوين. فهمت بالطبع مدى المعاناة التي عاشها زوجي وحاولت التخفيف عنه حتى هدأ قليلًا.. مالك البيت كان رجلًا طيبًا وكريمًا، جاء في اليوم الثاني وعرض مساعدتنا بالمال، رفض عادل بشدة، فترك الرجل مبلغًا ماليًا كبيرًا وخرج مسرعًا.

عادل عزيز النفس جدًا، وهذه واحدة من ضمن مزايا شخصيته النبيلة. لا أعلم صراحةً إن كان قد أحبني أم لا، لكنه على الأقل ارتبط بي بشكل معقول. أتعرف يا «اسمك إيه» أنه من اللحظة الأولى رأيت بها عادل غمرني حبّه؟ أحببته -على غير المتوقع- حبًا غريبًا، رأيت به إنسانًا تمنحه عمرك دون خوف. عادل يمتلك كل خصائص الرجولة، أنت تفهمني بالطبع، وسيم الخلقة، هادئ الطبع، طيّب القلب، بمجرد أن يضحك لي كأن الدنيا كلها ضحكت. أحببته من أعماق قلبي، وأقسِم لك أنني لو كنت بكامل جمالي السابق لكنت أحببته أيضًا. تخيل أنه عندما رأى رقبتي أول مرة لم يهتمّ حتى بسؤالي عن سبب الحرق، كل ما فعله أنه مدّ شفتيه ناحية الجرح وقبّله. أحيانًا كثيرة أستلقي على ظهري واضعة رأسي على فخذه فيبدأ هو بالمسح على شعري في حنان. لم أخَف يومًا منه، حتى عيناه، البئران السحيقان المليئان بالأسرار الغامضة، في نظري يزيدانه سحرًا.. الأنثى يا سعادة الأستاذ لا ترغب سوى في حضن دافئ يخاف عليها بصدق.

مرّت الشهور وحبّي له يزداد يومًا بعد يوم. كانت تأتي إلينا بعض المساعدات من أهل الخير، خصوصًا في الأعياد والمناسبات، لكنها لم تكُن تكفي العام كلّه. أقنعت عادل بالخروج للعمل لكنه لم يكن يعرف ماذا يفعل! مرة عمل قهوجيًا، بعدها عمل مساعدًا لأحد النقّاشين، ثم في ورشة دوكو... إلخ. السبب الأساسي لفشله كل مرة هو عدم اكتراثه لكلام الزبائن كأنهم هواء أمامه.. ربما كان السبب في ذلك هو المرض الذي قلت عنه.. ما اسمه لا مؤاخذة؟

- الفصام البارانوي.

- عادل في نظر العامة «عنده لطف»، لكنه في نظري يعاني من اكتئاب، أو شيء من هذا القبيل. حاولت مساعدته ومساعدة نفسي بأي عمل كي لا نعاني وأرضخ لكلام أبي في بيع الشقة، لكننا لم نستطع، كنا نسكن في شقة تمليك شاسعة، وفي ذات الوقت لا نملك حقّ الرغيف، وصلنا إلى طريق مسدود منذ أسابيع قليلة، خصوصًا بعدما أجرى عادل عملية الزائدة الدودية، خرج من المستشفى ضعيفًا هزيلًا يحتاج إلى الرعاية من طعام وأدوية.. باع عادل الشقة للمالك مرة أخرى، وحصلنا على مبلغ معقول لكنه لا يتناسب مع مساحة الشقة، حاول أبي الاستيلاء على المبلغ كاملًا، رفضت، ضربني وأهانني، قال بالحرف الواحد وفي عينيه نظرة شيطانية: «لن تعطيني المال؟! وحياة أمك؟ بعد كل هذا التعب؟ أنتِ مجنونة يا رزقة؟ هل تريدين شفط المبلغ كله أم أنك أحببتِ هذا العبيط؟ لا أصدق. زوزو الدمرائي تحب عادل بوسطة؟ ستقوم القيامة غدًا بالتأكيد».

قالها واقتحم غرفة عادل الذي لم يكن موجودًا، حاولتُ منعه بالقوة فضربني على وجهي لدرجة أنني سقطتُ أرضًا، بحث عن المال كالثيران في حلبة المصارعة حتى وجده أسفل السرير، رمى لي «باكو» على الأرض وتركني أندب حظي، وقال بعاطفة أبوّة لا تتناسب مع فعلته: بيت أبوكِ مفتوح إنْ غدتِ إلى رشدك.

أظلمت الدنيا في وجهي يا «اسمك إيه»، أمّا عادل فلم يسألني عن المال، أخبرته كذبًا بسرقته فنظر لي في

لامبالاة كأن الأمر لا يعنيه من الأساس.. بعد أن عادت الشقة إلى المالك لم يطردنا منها، بل بنى لنا هذه الغرفة على سطح المنزل بعد أن أخبرته كذبًا بسرقة المال.. ربك لطيف بعباده دائمًا يا «اسمك إيه».

- وكيف يقضي عادل يومه هذه الأيام؟

- لا شيء، يسرح بصندوق عند إشارات المرور لبيع غلّب المناديل، بعد العملية صارت الهلاوس تهاجمه بشكل أكبر، لا أعلم لماذا.

- أحيانًا الأمراض العضوية تزيد من مشكلات المرض النفسي مثل الفصام.

نظر إليها وابتسم متسائلًا في رقة: أين أجده؟

- لا أعلم تحديدًا، إن لم تجده في إشارة طلعت حرب ستجده غالبًا في جراج الأوبرا، شهرته هناك «بوسطة». لم أفهم سبب إطلاق هذا اللقب عليه حتى سمعت قصته مع آن منك. هل تعتقد أن ترديده للقصة هو السبب؟

قال طاهر وهو يقف استعدادًا للمغادرة: بالتأكيد. شكرًا لكِ يا رزقة، وآسف على الإطالة وعلى شكّي في نيّاتكِ.

ضحكَتْ في براءة ثم سألته للمرة الألف: ما اسمك يا سعادة الأستاذ؟

كشف عن شخصيته أخيرًا وقال: أنا طاهر الباهي يا ست مرزوقة.

هتفت في سعادة غامرة: والله كنت عارفة. من يعرف عن عادل كل هذا سوى أعز أصدقائه؟! ألف نهار أبيض. انتظر قليلًا وسيأتي عادل بالتأكيد، لن يتأخر. لكن قل لي، لماذا لم تخبرني من البداية؟

ردّ في بساطة: لأنني لم أكن متأكدًا من ردّ فعل عادل، لكن حالته الآن تُلزمني مقابلته مهما كانت العواقب. لقد قصّرتُ في حقّه يا رزقة وأتمنى أن يسامحني. أنتِ أفضل مني كثيرًا، لأنك دافعتِ عن ماله بعد ندمك على اشتراكك في مخطط والدك.

حاولَتْ تهدئته وقالت مشجعة: ربنا كبير، سأنتظركما على الغداء، أنا متأكدة أنه سيسامحك. إياك وعدم المجيء.

هزّ رأسه ثم اتجه ناحية باب السطح استعدادًا للخروج، فمشت مرزوقة خلفه وهي تأتي بحركات عشوائية كأنها تهمّ بقول شيء ما، لمح ظلها فالتفت إليها متسائلًا بعينيه فقالت بصوت يرتعش قليلًا: أستاذ طاهر، أرجو ألا يعرف عادل شيئًا عمّا حكيته، لا أريد منه حبًا، لكنني أتمنى ألا يكرهني، عادل طيب القلب، وإذا عرف شيئًا لن يعود لي مرة أخرى، أنا أحبه، أحبه أكثر مما تتخيل يا أستاذ طاهر.

تهللت أساريرها وملأت الطمأنينة قلبها بعدما سألها: ماذا ستطهين اليوم على الغداء؟

نزل الدرج المتهالك كأغلب أبنية وسط البلد ووقفت هي تتابعه بنظرها حتى قارب على الاختفاء، فهتفت باسمه وقالت في تأثر: مع السلامة يا أستاذ طاهر، ربنا يحفظك ويصونك، سأدعو لكما أن تدوم صداقتكما طوال العمر. يعلم ربنا كيف انفتح قلبي لك بسرعة عجيبة من اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وكأنني...

صمتت برهة ثم أضافت: وكأنني أعرفك منذ آلاف السنين.

غادر طاهر المنزل وسار مضطربًا في شارع محمد فريد باتجاه الإشارة التي قالت عنها مرزوقة، تحسّس أوراقه وحافظة نقوده مرة ثانية آملًا أن يكون التعويض المادي مناسبًا في نظر صديقه، تمنى من الله أن يسامحه عادل كما دعت زوجته، الدعاء يغيّر القدر كما تعلّم في طفولته، لكن هل سيُقبل الدعاء من مرزوقة فعلًا؟ هل يُقبل الدعاء ممن لا يعرفون الحقيقة كاملة؟ مرزوقة عرفت أن طاهر تخلّى عن عادل في فترة سجنه، هذا صحيح بالفعل، لكن ليس هذا كل شيء.. الخيانة الأكبر من طاهر لصديقه كانت بالاستيلاء على

حصيلة بيع شقة ميت غمر والسيارة عندما كانت تحت تصرفه، بمجرد سفر مراد سحب طاهر المبلغ بالكامل وأبلغ المحامي بوقف متابعة تقارير عادل السنوية بالخانكة، قال إنّ المال المتبقي لا يكفي لرشوة الطبيب المسؤول عن حالة عادل، ولحسن الحظ استمرّ وجود عادل هناك خمس سنوات من التسع، لو حدث غير ذلك لذهب عقل عادل بالكامل.

لم يكتفِ طاهر بهذا، بل قدّم طلبًا لمصلحة السجون لنقل عادل من سجن القاهرة إلى سجن المنصورة، بعدها اتصل بمراد في أمريكا وأبلغه كذبًا أن عادل أصبح مسؤولًا منه ويحتاج إلى مبلغ شهريّ للإنفاق على علاجه ومعيشته، ضخّ مراد ثروة من الدولارات على مدار سنوات باسم طاهر، تزوّج وتاجر بها الأخير في صناعة الورق حتى صار من رجال الأعمال الواعدين في بلدته.. هاجمته الذكريات في شراسة وخنقته الأسئلة، كيف يبيع الإنسان صداقة العمر بحفنة من المال؟ لربما وُجدت التوبة كي لا تقتلنا أفعالنا، لكن الأهمّ من التوبة هو قبولها بالطبع، والأهمّ من سير أعمالنا هو ختامها.

وجد نفسه أمام تمثال طلعت حرب الشهير فأخذ يتلفت حوله محاولًا إيجاد عادل، لمح إشارة مرور فتوجّه إليها ودقّق النظر في الرجل الواقف بجانبها فوجده بعيد الشكل عن عادل.. اقترب منه طاهر فعرض عليه الرجل بضاعته.

- مناديل يا أستاذ؟

- لا أريد، لكن خذ هذه لك.

قالها وأخرج من جيبه ورقة فئة عشرة جنيهات، أخذها منه الرجل بسرعة متسائلًا: هل تبحث عن شخص ما؟

ردّ طاهر في ارتباك: نعم، نعم، أبحث عن عادل الجندي، أقصد عادل بوسطة.

-آاااه بوسطة، ستجده هناك عند جراج الأوبرا، آخر الشارع.

عاد للسير من جديد وتأنيب الضمير يعصف به، كان مجهدًا لكن إحساسه بقرب الخلاص من جريمته طرد فكرة الراحة عن باله. هاجمه هاجس بعدم العثور على عادل والعودة مرة أخرى إلى مرزوقة، فابتسم وقال لنفسه: هذه المرأة رغم كل ما فعلته بحياتها فإنها منحته طاقة إيجابية لا بأس بها. هي تحبّ عادل لكنها كذبت عليه، تشبهني كثيرًا هذه المرأة.

تفحص وجوه المارّة وعاد يفكّر: تُرى، مَن مِن هؤلاء سيقابل ربّه مرتاح البال والضمير؟

فجأة لمح عادل، واقفًا هناك، كانت ثيابه ممزقة وهناك أثر للدماء عليها، ظهر في رأسه شعيرات بيضاء لكن ملامحه ظلت محتفظة بوسامتها رغم نحوله الشديد. كان عادل واقفًا بجوار أحد بائعي المناديل يتكلّم معه، قطع الطريق متجاوزًا السيارات بسرعة حتى صار بينهما عدة أمتار، اقترب أكثر وقال بصوت يغمغم: عادل.

لم يسمعه أي منهما بسبب ضوضاء الشارع وقت الظهيرة، نادى بصوت أعلى: عاااادل.

التفت إليه زميل عادل ثم نظر إلى عادل مرة أخرى وقال: هل تعرفه؟

اقترب طاهر حتى وضع يده على كتف عادل وقال للرجل كأنه يذكّر عادل: أنا طاهر الباهي صديق عادل منذ عشرات السنين، لكنني لم أكن أعرف له طريقًا.

نظر إليه الرجل في شك، أما عادل فتفحص وجه طاهر وقال في غرابة: سائق الأجرة ضربني يا طاهر، إنه يكرهني.

لم يفهم طاهر، لكنه ضمّ صديق عمره إلى صدره وقال كأنه كان تائهًا ووجد داره: الحمد لله، الحمد لله.

ابتعد زميل عادل هاتفًا في لامبالاة: أنا في الجراج يا عادل.

أمسك طاهر يد عادل وقال: هيا بنا نعود إلى مرزوقة. لديّ مفاجأة لك.

سحب عادل يده في رفق وأشار ناحية تمثال إبراهيم باشا وسط الميدان وبدأ يتحرك بخطوات بطيئة ناحيته.. مشى طاهر خلفه دون كلام ليعرف مقصده، تخطى عادل المنطقة المزروعة حول التمثال ثم جلس على قاعدة التمثال الرخامية وبجواره طاهر الذي قال: كيف حالك يا رجل؟ اشتقت إليك كثيرًا.

قال عادل: هل معك سجائر؟

أخرج طاهر علبة سجائره بسرعة وسحب منها واحدة ملفوفة أخذها لنفسه ثم أعطى العلبة لعادل.. ضحك عادل فجأة دون داعٍ وأخذ يردد: سجائر لف، سجائر لف.

لم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام، فقال طاهر في توتر: دعك من السجائر الآن، عرفت أنك قمت ببيع شقتك هنا. أحضرت لك مبلغًا محترمًا لتشتري شقة جديدة بدلًا من السكن فوق السطح. لو أردت أي شيء آخر سأشتريه لك.

- لا أريد مالًا.

قالها عادل في مرارة، فقال طاهر في ذهول غير مصدّق أن مجهوده ضاع هباء: ألا تريد السكن في مكان أفضل أو الوقوف في محلّ مثلًا بدلًا من الجري في الشوارع؟ ربما نحن...

قاطعه عادل كأنه لا يسمعه: أريد شهادة معاملة أطفال.

قال طاهر في دهشة: ماذا؟!

كرّر عادل طلبه قائلًا: أريد شهادة معاملة أطفال يا طاهر، أرجوك.

أدرك طاهر أن صديقه صار مختلّ العقل بشكل كبير فلم يُرِد أن يناقشه وقال في حزن: حاضر.

تهللت أسارير عادل وحرّك يده اليمنى في سعادة مثل فائزي البطولات الرياضية وهو يقول: هيا، اكتبها يا طاهر.

أخرج طاهر قلمًا ونوتة أرقام التليفونات ثم قطع منها ورقة من المنتصف ووضعها على فخذه، رنّت عادل على ظهر طاهر في حنان فبدأت الدموع تتساقط من عيني الأخير وهو يكتب دون النظر إلى صديقه:

«إقرار...

تُقِرّ وزارة الصحة المصرية أن المدعو/ عادل داوود الجندي، يعاني من مرض نفسي، وغير مسؤول عن أفعاله مثل الأطفال، وهذه شهادة إلى مَن يهمه الأمر».

هتف عادل مهللًا: إنك صاحبي بالفعل يا طاهر.

ناوله طاهر الورقة وهو يفحم من البكاء: تفضّل.

خطفها عادل وجرى مسرعًا وهو يهتف دون النظر إلى الوراء: انتظر دقائق وسأعود إليك.

لم يُجبه طاهر بعد أن سقط القلم من يده، نظر إليه بعض المارّة في دهشة وسألوه عن حاجته وهو يقول في حسرة ضاغطًا على مخارج دموعه كي لا ينفجر في البكاء: لا تتركني يا عادل.. أرجوك.

***

ما قبل الخاتمة

وسط البلد، سنترال الفوالة

الثانية ظهرًا

31 ديسمبر 1999

«كابينة 8»

«هذا رقم دولي، الولايات المتحدة الأمريكية، هل معك نقود كافية؟».

قالتها موظفة السنترال في شك، فأخرج عادل كل ما معه من مال ووضعه أمامها دون عدّه، نظرت إليه ثم ابتسمت قائلة: «المال لا يكفي لكنني سأمنحك مدة واحدة.. كل عام وأنت طيب، تفضل كابينة 8»

بحث عن الرقم بسرعة حتى وجده، لمح الطبيب الذي كان مستقلًا سيارة الأجرة وقت المشاجرة واقفًا داخل إحدى الكبائن لكنه لم يُعره انتباهًا، دخل الكابينة ثم سمع صوت السيدة تهتف: «كابينة 8، ارفع السماعة»، رفع عادل السماعة بسرعة قائلًا في لهفة: هاللو.

جاءه صوت أخيه مراد يقول بصوت ناعس: مَن المتحدث؟

سأله عادل بإنجليزية طليقة: هل أيقظتك من النوم يا أخي؟ أنا أخوك يا مراد، أنا عادل.

ظهر صوت مراد أكثر وضوحًا هذه المرة كأنه غير مصدّق: عادل؟! متى خرجت من المستشفى؟

- لا أذكر يا أخي، كيف حالك وحال حافظ وتحية؟

- جميعنا بخير يا عادل، حافظ سافر إلى دبي وسيعود آخر الشهر، وتحية تزوجت مصريًا يعيش هنا.

- مبروك، مبروك يا مراد. أبلغ أشواقي لتحية.

-...

- أريد سؤالك عن شيء يا مراد، هل تذكرني طفلًا؟

- ما الغرض من سؤالك يا أخي؟

كرر عادل سؤاله: هل تذكرني طفلًا يا مراد؟

- بالطبع يا عادل، كنت طفلًا شقيًا وذكيًا.

قالها ثم تهدج صوته وأكمل: لا أعلم لم فعلت ذلك!

قال عادل كأنه لم يسمع شيئًا: والله العظيم أنا طفل الآن، ومعي شهادة تثبت ذلك. أنت تثق في طاهر، أليس كذلك؟

- يومًا ما سنجتمع مرة أخرى ونعيش في مكان واحد مثل السابق، أما الآن فصعب جدًا، أنت تفهمني يا عادل بالتأكيد، أليس كذلك؟

قال عادل بصوت مرتعش وقد غلبه البكاء واليأس: أريد العودة للعيش معكم يا مراد، أتوسل إليك.

- أنا آسف يا أخي، ربما بات ذلك قريبًا، لكن ليس الآن.

خرج من الكابينة يجز قدميه حتى وصل إلى موظفة الاستقبال وأخرج من جيبه شهادة معاملة الأطفال ووضعها أمامها ثم طلب منها قلمًا، أحضرت له طلبه فبدأ يضيف اسم زوجته بالشهادة:

«إقرار...

تُقِرّ وزارة الصحة المصرية أن المدعو/ عادل داوود الجندي، ومرزوقة شفيق الدمراني، يعانيان من مرض نفسيّ وغير مسؤولَين عن أفعالهما مثل الأطفال، وهذه شهادة إلى مَن يهمّه الأمر».

نظر إلى الورقة في تمعُّن شاعرًا بالسعادة لرؤية اسم مرزوقة بجوار اسمه، وكذا بالطمأنينة لوجود من يشاركه الباقي من طفولته.. نظر إلى موظفة الاستقبال ثم سألها في براءة: لماذا لا يسامح الناس بعضهم بعضًا مثلما يغفر الله الخطايا يا سيدتي؟

«كابينة 3»

- لماذا تريد الهجرة يا ولدي؟

-...

- إيفون تحبّك يا هادي، لكنها اختارت إعلاء قيمتها أمام الله، هذا لا يعيبها يا بني.

- لم أقرر الهجرة بسبب إيفون، قررت الهجرة لأننا مسيحيون يا أبي، يعاملنا الناس معاملة درجة ثانية، لم أقبل العيش هكذا.

- رفضك مستشفى فعملت بواحد آخر أكبر ويعطيك راتبًا أفضل حتى حدث ما حدث. صدقني يا بني، لن تستطيع إرضاء الناس جميعًا، مسلم أو مسيحي أو حتى يهودي، لن ترى مجتمعك جميلًا إلا لو كان الجمال من داخلك، حتى لو هاجرت، لن ترضى نفسك بالبُعد عنا. هل تذكر عمّتك كاميليا يا هادي؟

- نعم.

- اتصلَت بي منذ عدة سنوات، قالت إنها تندم في اليوم ألف مرة، وأعطتني عنوانها، خافت من العودة يا هادي في حياتها، أوصتني بدفنها في مقابر العائلة هنا بملوي.

-...

- سواء هاجرتَ أو عدتَ لنا يا هادي، لا تنسَنا.. هذا رجائي الوحيد.

بحث هادي في بنطاله عن منديل فلم يجد، لم يعرف إن كان محتاجًا إليه لتجفيف دموعه أم عرقه، بحث بالجيب الداخلي للجاكيت فوجد منديلًا ملفوفًا، شعر بوجود شيء ما داخله، أخرج المنديل وفتحه فوجد السنّ القديمة المخلوعة من فم سمير، طفل الملجأ، نظر إلى السنّ طويلًا ثم ابتسم طويلًا، أما والده فأخذ ينادي عليه كثيرًا حتى انتبه هادي وقال في حماس غريب: أحتاج إلى الحديث معك كثيرًا يا أبي، سأعود إلى المنيا، أحتاج إلى بداية جديدة، بداية حقيقية هذه المرة وليست مسكنًا كالأعمال التطوعية.

أنهى المكالمة وخرج من الكابينة ففوجئ بوجود آن بالسنترال، وجدها تمشي بخطوات مسرعة قليلًا ناحية دورة المياه، دفع أجر المكالمة ثم وقف بإحدى الزوايا ينتظر خروجها.. بعد دقائق شعر بالارتباك من نظرات العاملين بالسنترال فقرر انتظارها بالخارج.

«كابينة 7»

قالت الجهيزة: تعالَي يا يلدا، والدتك تريد الحديث معك.

تحركت القطة الشيرازي -التي تقترب من منتصف العقد الثالث- في خفّة.. القوام الرشيق، الشعر الأسود الغزير، العيون الواسعة الكحيلة التي ورثتها من النمرة، الشفتان اللتان تشبهان ثمرتي الشليك، الجمال الذي تذهب عيناك إليه ولا يبذل مجهودًا للظهور ويجعلك تتساءل: هل من الممكن أن يصاب الجمال هذا بالتوحد؟

قالت الجهيزة: يلدا معك يا آن.

أمسكت يلدا بسماعة الهاتف لكنها لم تنطق حرفًا، ظلت صامتة لثوانٍ حتى سمعت صوت آن من الطرف الآخر قائلة في حنان: اشتقتُ إليكِ كثيرًا يا يلدا، هل أنتِ بخير؟

-...

- أنا آذيتك كثيرًا يا يلدا، لكن الأيام القادمة ستكشف لكِ عن مدى حبي لك، وغبائي الشديد كذلك.

-...

- يلدا، امنحيني فرصة أخيرة.. أرجوكِ.

- آن، آن، آن، أنا أحبك.

- هل حقًا ما سمعته؟!! أنا، أنا أحبك أكثر يا...

فجأة شعرت ببرودة نوعًا، نظرت إلى أسفل بسرعة فوجدت بللًا باللون الأحمر القاتم يغطي مساحة بين فخذيها تزداد تدريجيًا، وضعت السماعة وخرجت مسرعة من الكابينة واضعة حقيبة يدها أمام وسطها، سألت موظفة السنترال عن مكان دورة المياه، لمحت الموظفة اللون الأحمر الظاهر نوعًا ما من خلف حقيبتها فدلّتها على المكان، هذه الأمور تفهمها النساء جيدًا.

اقتحمت آن دورة المياه وأغلقت الباب خلفها في توتر ثم رفعت فستانها، تحسست مكان العملية الجراحية فلم ترَ نزيفًا، نزعت الشاش والقطن فلم تجد شيئًا، جلد خثلتها (المنطقة التي أشبعتها هرشًا) كان بلا أثر لأي عملية جراحية، مجرد خدش بسيط أخرج القليل من الدماء بعد العملية، وقام هادي بتضميده ثانية في ليلتها الأخيرة بالبنسيون.. تحسست الخدش فلم تشعر بأي ألم، أنزلت لباسها الداخلي فتيقنت أن الدم يخصّ دورتها الشهرية.

- الدكتور هادي خدعني، أو بمعنى أدق رفض أن أكمل حياتي عقيمة.

هكذا خاطبَت نفسها.. ارتدت ملابسها وجلست على أرض الحمام مسندة ظهرها إلى الحائط ثم انفجرت ضاحكة في رضا تامّ.. خرجت بعد دقائق وتسلّمت حقيبة سفرها ثم غادرت المكان في خجل.

توقّف الزمن لدقائق بمنطقة وسط البلد، دقائق وقفها غرباء الميلاد ذوو الأصل الواحد أمام سنترال الفوالة، تذكّر كل منهم فيها حياته بالكامل، نظر كل منهم إلى الآخر في امتنان دون نطق كلمة واحدة، فقط ابتسم بعضهم لبعض ابتسامة تشعّ بالأمل، ثم تحرّك كل منهم في طريقه.

***

مكتبة الإسكندرية للروايات وكتب عربية وعالمية

الخاتمة

إقليم البحيرة

21 كيهك (31 ديسمبر).. 664 ميلادية

وقت الظهيرة

أيكيلة من جديد.. أرض الآباء والأجداد و.. الإخوة، أرض الشهداء والقديسين، خمسة وأربعون عامًا مضت منذ وقت المذبحة وما زال بيت آل يعقوب قائمًا.. لكن تُرى، هل مِن ساكن؟

مارية، الفتاة الثائرة، صارت امرأة عجوزًا تحتاج إلى مَن يساعدها، توقعت أن تجد البيت خاويًا لكنها وجدت كهلًا في مثل عمرها تقريبًا، خطت خطوات سريعة نوعًا ما بالنسبة إلى عمرها واقتربت أكثر، وجدت عدة أطفال يخرجون من البيت ثم التفّوا حول الرجل العجوز الذي بدأ يداعبهم في لطف.

- مَن أنتَ؟

- صاحب الدار يا ست، إسحق بن مينا. تبدين غريبة عن هنا، مَن أنتِ؟

ابتسمَتْ وقالت بهدوء: أنا عمّة صاحب الدار.

وقف متخشبًا في ذهول لثوانٍ ثم صاح في فرح كالأطفال وهو يتفحص ملامحها في دهشة ممزوجة بسعادة غامرة: مارية؟! مارية؟! كيف...؟! لقد ظن الجميع أنك...!! حمدًا لله على سلامتك يا مارية.

هزّت رأسها في تأثُّر ثم احتضنته لدقائق ودموعه تبلّل كتفها حتى قالت: كيف حالك يا بن الشهيد؟ وكيف حال أيكيلة؟

أخذ نفَسًا عميقًا بعد شعوره بالتعب بعد هذا الكمّ من الانفعال ثم قال: الجميع هنا بخير يا مارية بعد مجيء العرب، لم يكن ينقصنا سوى رؤيتك.

- وأين قسما؟

- ابن العمّ يعيش في مِنه (المنيا الآن)، يعيش بالقرب من دير السيدة العذراء هناك، تزوج وأنجب لكنه رفض العودة إلى هنا أو الدخول في الإسلام. في زيارتي الأخيرة له وجدته ينقش صورة لك مع والدي وعمّي أباسخيرون على جرّة من السيراميك، أقسَمَ لي أنك ستفرحين بها كثيرًا عند عودتك من المنفى، لم أعرف يومها من أين جاء بهذه الثقة!

- سنزوره معًا بالتأكيد.

صمتت برهة ثم سألته بشكل مفاجئ: هل أسلمتَ يا إسحق؟

- نعم يا عمة.

ضحكَتْ ضحكة قصيرة بسبب مصطلح «عمة»، لكنها لم تعلّق على إسلامه. بعد فترة صمت سألته بصوت مخنوق: أين إخوتي يا إسحق؟

هتف إسحق بصوت حازم كأنه يطمئنها: دفنهم أهل القرية بحديقة البيت يا مارية.

فرحت بشكل واضح بعد إجابة إسحق الذي نادى على أبنائه وزوجاتهم، فخرج الجميع من البيت فرحين بعودتها رغم عدم رؤيتهم لها من قبل، تجمّعوا حولها في شبه دائرة وهتف ابن إسحق الأكبر في حماس: سمعنا عن شجاعتك الكثير يا عمة.

ابتسمت له في حنان، وأخذت تسألهم عن أسمائهم بينما نظرها مشدود ناحية البيت طوال الوقت، لاحظ

إسحق ذلك فأشار بنظرة خفية إلى عائلته فأفسحوا لها مجالًا للحركة.. تركتهم مارية واتجهت ناحية بيت والدها كالمسحورة.. دخلت ثم أغلقت المزلاج في إحكام، كانت تريد خلوة مع أخويها، أسندت ظهرها إلى الباب فصارت وجهًا لوجه مع البيت القديم، كان باب البيت الداخلي مفتوحًا يُظهر صورة القدّيس إيريناوس معلقة على الجدار كما تركتها.

رأت شاهدَي القبر بآخر الحديقة، فأسندت يدها على السور ومشت إلى هناك.. تذكرت كل شيء، طفولتها ومراهقتها، ثورتها على الرومان، يوم النفي، قتل كل البحارة الرومان بعد مهاجمة سفينة فارسية لهم في طريقها لاحتلال مصر، تذكرت أيضًا زواجها بجنديّ فارسيّ بعد وقوعها أسيرة وعودته بها إلى بلاده.. خمسة وأربعون عامًا كاملة عاشتها في بلاد فارس (إيران حاليًا)، تحديدًا في قرية صغيرة قريبة من أصفهان، عاشت غريبة في البداية وسط مجتمع مدني منحظ للغاية، لا تتكلم لغتهم، لا تميل إلى الفجور مثلهم، زوجها كان فارسًا صالحًا، أنهى خدمته العسكرية واستقرّ معها. في البداية لم تتجاوب معه لكن بعد فترة وجدت أنه ليس بالسوء الذي تخيلته، لم تحبه ولكنها أخلصت له وكذا أخلصت لدينها، بعد عشرين عامًا دخل الإسلامُ بلادَ فارس قبل مصر بسنوات قليلة، لكن الدّين كان بالنسبة إليها تاريخها، ثوراتها، شقيقاها. أسلم زوجُها وتركها على دين المسيحية ما دامت من أهل الكتاب. أنجبت منه سبعة أطفال، كانت تسعى طَوال الوقت لتكوين عائلة كبيرة تُنسيها غربتها الإجبارية. بعد عشرات السنين استأذنت زوجها في العودة إلى وطنها، مصر، أرادت أن تُدفَن بجوار شقيقَيها، وافق الزوج الصالح بعد محاولات طويلة استمرت لشهور.

وقفت مارية بجوار شاهدَي القبر وبدأت تتمتم ببعض الصلوات، ثنت ركبتيها وجلست في وضعية السجود، ثم ألصقت خدّها بالأرض كأنها تصغي لضحكات مينا وأباسخيرون بعد لقاء طال انتظاره، وقالت في نبرة فرض الأسى الخفي ذاته عليها: كيف الحال يا مينا؟ كيف الحال يا أباسخيرون؟ أحتاج إليكما قدر اشتياقي، لم أغد شجاعة مثل السابق أيها العزيزان، من دونكما كنت مكسورة بالكامل، لكم تمنيت الموت كل يوم لأستريح من شوقي وأوجاعي. عزائي الوحيد أنني سأدفَن معكما هنا، أصبح لديّ الآن أمل عالٍ يكفي لوقف عربة يجرها الجيّاد، أكاد أسمعه وهو يشجعني بحرارة، فأتعجّل اللقاء على أحرّ من الجمر، لعل اللقاء الأبديّ صار قريبًا، وحتى إذا بَعُد، فسنعيش معًا ألف ألف حياة قادمة.. هذا وعد.

تمت

يوليو، 2018

***

روايات وكتب عربية وعالمية

شكر خاصّ للصديقة آية الطنطاوي والأطبّاء: محمد كامل، محمد عاصي، محمد الحلواني، فتحي غزي، محمد خليل... على تقديم المعلومات الطبّية الواردة بالرواية.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.